وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ذي قار – كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الانسجامُ النصِّي في القرآنِ الكريم
الميزان في تفسير القرآن للسيّد الطباطبائيِّ أنموذجاً

رسالة تقدم بها الطالب

رحيم مجيد راضي

إلى

مجلس كلية الآداب في جامعة ذي قار وهي جزء من متطلبات نيل
شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور
جابر محيسن عليوي الركابي

١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

التمهيد (مفاهيم عامة)

١- مفهوم النصِّ:

نالَ مصطلحُ النصِّ حظًا وافرًا في الدراسات اللغوية والأدبية والاجتماعية؛ لكونه ينتمي إلى المعرفة الكلية ، وجالت هذه الدراسات في مفهوم النصِّ ومرجعياته وأثره في المتلقي، على أنَّ البحثَ في الأصول العربية والاصطلاحية لكلمة نصٍّ أمر صعب لتعدد معايير هذا التعريف، ومداخله ومنطلقاته وتعدد الأشكال والمواقع والغايات[١].

النصُّ لغةً :

قال الأزهري(ت٣٧٠هـ): ((النصُّ أصله منتهى الأشياء، ومبلغ أقصاها، ومنه قيل : نصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء، حين تستخرج كل ما عنده،...))[٢].

وجاء في لسان العرب لابن منظور(ت٧١١هـ) : (((نَصَصَ) النص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصًا : رفعه وكل ما أُظهِر فقد نُصَّ ، ووضع على المنصة : أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور.... ومنه قول الفقهاء: نص القرآن، ونص السنة. أي: ما دلَّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام ،...وانتص الشيء وانتصب إذا استوى واستقام ...))[٣].

إنَّ استقراء مادة(نَصَصَ) ينتج عنها معاني متعددة ، أبرزها ثلاثة هي (الرفع ونهاية الشيء والإظهار) هذه المعاني وغيرها التي دونها ابن منظور في معجمه ناقلًا عن معاجم تسبقه قال عنها أحمد بن فارس(ت ٣٩٥هـ):((إنَّها ترجع إلى أصلٍ صحيح يدلُّ على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء...)) [٤].

---

(١) يُنظرُ: نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً الأزهر الزَّناد:١١.

(٢) معجم تهذيب اللغة لإبي منصور محمد بن أحمد الازهري، تحقيق د .رياض زكي قاسم، :٤ /٣٥٨٥،(نَصَصَ).

(٣) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل:١٤/٢٧١،(نَصَصَ).

(٤) معجم مقاييس اللغة : أحمد بن قارس ، تحقيق عبد السلام هارون :٣٥٦/٥ (نَصَصَ).

وعرَّفَ مؤلفو المعجم الوسيط النصّ بأنَّه ((صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف))[١] ،وآخر ما يدلُّ عليه النصُّ الإظهار (وهو عند الفقهاء نصُّ القرآن ونصُّ السنة) أي ما دلَّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام، ولعل دلالة الإظهار والارتفاع هي الجامع لتعدد الدلالات فتكاد تكون الدلالة المركزية والبؤرة التي تدور حولها تلك الدلالات[٢].

ويبدو أنَّ انتقال دلالة الكلمة ممَّا كان قارًا في المعجمات القديمة إلى دلالتهِ في المعجمات الحديثة حصل بعملية مجازية هذا ما أشار إليه الزمخشري في أساس البلاغة[٣]، أي: انتقال هذا المعنى المجازي إلى الاستعمال،وغياب الدلالات الأولى للكلمة أو تهميشها ،وثبوت المعنى الحديث في المعجمات الحديثة، وهذه العملية على الراجح حدثت في ميدان الدراسات القرآنية من تفسير وفقه ، ولم تحدث في ميدان العلوم اللغوية من نحو وبلاغة[٤].

النصُّ اصطلاحًا:

يعرف هارفج النص ((بأنَّه تتابع مشكّل من خلال تسلسل ضميري متصل، لوحدات لغوية)) [٥]، فتتابع جمل وعبارات النص ضروري وشرط أساسي لنصية النص، وهذا يكون بتوفر ضمائر لغوية تربط بين الجمل فتجعلها متماسكة ومتسقة، فتأتي متتابعة ومتتالية بحيث تحقق المعنى الذي وجدت لأجله فالقارئ للنص يحس بتسلسل العبارات وتوالي الوقائع والأحداث، وبذلك يكون النص تتويجا لمجموعة من العلميات المتعاقبة[٦].

وفي هذا الصدد تأتي محاولات برنكر وايزنبيرج وشتايتز التي تعرّف النصُّ بأنَّه تتابعٌ مترابطٌ من الجُملِ، ويستنتج من ذلك أنَّ الجملة بوصفها جزءًا صغيرًا ترمز إلى النصِّ،

---

(١) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون: ٩٢٦، (نَصَصَ) .

(٢) يُنظر في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم(دراسة نظرية): بشرى حمدي البستاني، وسن عبد الغني المختار مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ١١ ، العدد١ ،٢٠١١م : ١٧٦.

(٣) يُنظر : أساس البلاغة للزمخشري:٦٣٥-٦٣٦ (نَصَصَ) ، والسبْكُ النصي في القرآن الكريم دراسةٌ تطبيقية في سورة الأنعام ،رسالة ماجستير أحمد حسين حيال ،كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ،٢٠١١ م:١٧.

(٤) يُنظر :أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية والعربية تأسيس (نحو النص) ،د.محمد الشاوش:١٩٢/١.

(٥) علم النص مدخل إلى مشكلات بناء النص، زتسيسلاف وأورزنياك، ترجمة، د. سعيد حسن بحيري:٥٥.

(٦) يُنظر: نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عثمان أبو زنيد: ٢٥.

ويمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام، أو علامة تعجب ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنَّها وحدة مستقلة نسبيًا[١].

فالنصُّ ليس إلَّا سلسلة من الجُملِ المتتابعة المتوالية الواحدة تلو الأخرى، وقد يتحدد النصُّ بجملةٍ واحدةٍ، وإذا وضعنا في نهايتها نقطة فإنَّها تؤدي معنى خاصا كالتقرير مثلا، والسؤال بوضع علامة استفهام فالمُرسل يكون جملة ويرسلها إلى المتلقي وبها يتواصل معه، فهي تمثل نصًا أما إذا كان النصّ مشكّل في مجموعة جمل فيشترط الترابط والتماسك، والمعنى العام للوحدة المتكاملة الكلية لا يتأتى إلَّا باتحادِ عناصرها وأجزائها المكونة لها [٢]

ويعرَّفه الازهر الزنَّاد بقوله: ((إنَّ النصَّ نسيجٌ من كلمات يترابط بعضها ببعض وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلِّ واحدٍ)) [٣] .

ويعرَّفه هاليداي ورقية حسن بقوليهما : ((إنَّ كلمةَ نصّ تستخدم في علم اللغة لتشير إلى أيِّ فقرةٍ مكتوبةٍ أو منطوقةٍ مهما كان طولها شريطة أنْ تكونَ وحدة متكاملة)) [٤].

ويعرَّفه (دي بو جراند)بأنَّه تشكيلة لغوية ذات معنى تستهدف الاتصال، ويضاف إلى ذلك ضرورة صدوره أي النصِّ عن مشارك أو أكثر ضمن حدود زمنية معينة وليس من الضروري أنْ يتألفَ النص من الجمل وحدها، فقد يتكون النصُّ من جمل أو كلمات مفردة أو أية مجموعات لغوية تحقق أهداف الاتصال، ومن جهة أخرى فقد يكون بين بعض النصوص من الصلة المتبادلة ما يؤهلها لأنْ تكونَ خطابًا [٥].

ويذهب كلٌّ من إبراهيم الفقي وسعيد بحيري إلى تبني تعريف روبرت دي بو جراند ويعدّانه من التعريفات الجامعة ، التي يرى النصَّ حدثًا تواصليًا يشترط لنصيته أنْ تتوفرَ له

(١) يُنظر: نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية:١٤
(٢) يُنظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب:١٣.
(٣) نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا:١٢.
(٤) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ،د. أحمد عفيفي:٢٢.
(٥) يُنظر:النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بو جراند، ترجمة د. تمَّام حسَّان: ٩٨-١٠١،ومدخل إلى علم لغة النصي، د. إلهام ابو غزالة وعلي خليل محمد:٩

سبعة معايير مجتمعة ، وهذه المعايير (الاتساق ، الانسجام ، القصد ،القبول، الاعلام ، المقامية ، التناص) [١] .

وعرَّفه نعمان بُوقرة ((وحدة كبرى شاملة تتكون من أجزاء مختلفة تقع على مستوى أفقي من الناحية النحوية، وعلى مستوى عمودي من الناحية الدلالية، ومعنى ذلك أنَّ النصَّ وحدة كبرى لا تتضمنها وحدة أكبر منها، والمقصود بالمستوى الاول (الأفقي)أنَّ النصَّ يتكون من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية، أمَّا الثاني فيتكون من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية، ولهذا عند تحليل النصِّ ينبغي أنْ نتبنى نظرية كلية تتفرع منها نظريات صغرى تحتية تجمع كل المستويات)) [٢] .

ويعرِّفه محمد الصبيحي بأنَّ((النصَّ وحدة لغوية مهيكلة تجمع بين عناصرها علاقات وروابط معينة، وهذا ما يجعل من النصِّ كلًا مترابطًا منسجمًا)) [٣] .

وبعد هذه الرحلة القصيرة مع تعريفات النصِّ في اللغة والاصطلاح تَجْدرُ الإشارة إلى أنَّ الفرقَ بين النصِّ والخطابِ من وجهة نظر علماء النصِّ ، فعندما نقرأ بعض الدراسات اللسانية النصية الحديثة نجدُ كثيرًا منها قد استعملت مصطلحَ النصِّ وهي تقصدُ الخطابَ ، ونجدُ كثيرًا منها قد استعملت الخطابَ وهي تقصدُ النصَّ ، ولذلك نتساءل ما الفرق بين النصِّ والخطابِ ؟ أين يلتقيان وأين يفترقان ؟ لقد استُعمل مُصطلح النصِّ في الأدبيات اللسانية تارة مُرادفا للخطاب (بوصف الخطاب نصًّا وظروف إنتاج) وتارةً بوصْفه سلسلةً جملية مجردةً معزولةً عن ظروف إنتاجها[٤].

فالتعريفات النصِّ كثيرةٌ ومتنوعة ٌ، فبعضها يقصرُ النصِّ على المُنجَزِ كتابةً، وبعضها الآخر يجمعُ بين النصِّ المكتوب والملفوظ ،ومنها ما يُراعي في التعريف جانب الوظيفة

(١) يُنظر: علم اللغة النصي (بين النظرية والتطبيق): ١ /٢٩.

(٢) لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والاجراء د. نعمان بوقرة:٥٥-٥٦.

(٣) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، د. محمد الأخضر الصبيحي :٨٠.

(٤) يُنظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط ،د. أحمد المتوكل:٢١- ٢٢.

التواصلية ،ومنها ما يهتم بعنصر التتابع بين ألفاظ النصِّ ومنها ما يركز على الوظيفة الدلالية للنصِّ [١]،وإنَّ الخطابَ يطلقُ اجمالًا على أحد مفهومين، يتفق في أحدهما مع ما ورد قديمًا، عند العرب، أمّا في المفهوم الآخر فيتسم بجدَّته في الدرس اللغوي الحديث، وهذان المفهومان هما:- أولهما أنَّه ذلك الملفوظ الموجه إلى مخاطبين، بإفهامه قصدًا معينًا.

ثانيهما: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة [٢].

فمفهوم الخطاب عند العرب القدامى يشمل الملفوظ، أي إبلاغ المتلقي (السامع) منطوقًا لغويًا قصد التواصل وهذا بوجود كل من المتحدث والسامع، ثم تطور مفهومه إلى أنَّه استعمال لغوي يتجاوز فيه مستوى الجملة، وهذا دليل على أنَّ مصطلحَ الخطابِ لا يمكن تحديده بمفهوم شامل جامع فمن الصعب اعطاؤه تعريفًا ثابتًا قارًا [٣].

ويؤكد صلاح فضل على((أنَّ علاقةَ النصِّ بالكتابة أقوى من علاقة الخطاب بها))[٤]، ويرى أحمد مدارس((أنَّ الفرقَ بين النصِّ والخطاب أنَّ الخطاب هو اللغة التي يسيطر عليها المتكلم في حالة الاستعمال ويكون مرادفًا للكلام بينما النص هو مجموعة من الملفوظات اللسانية القابلة للتحليل)) [٥].

ويذكر محمد الصبيحي فرقًا جوهريًا ((يكاد يجمع أغلب اللغويين أنَّ النصَّ يمثل المظهر الشكلي المجرّد للخطاب ،بينما يعني الخطاب الممارسة الفعلية الاجتماعية للنصِّ)) [٦] .

ويمكن أنْ نُبيّنَ الفرق بين الخطابِ والنصِّ بما يلي:

---

(١) يُنظر: في نظرية الأدب وعلم النص، د. إبرا هيم خليل:٢١٦-٢١٧.

(٢) يُنظر :استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري : ٣٧ .

(٣) يُنظر : المصدر نفسه:٣٦.

(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص،د. صلاح فضل :٢٥٢.

(٥) لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري ،د .أحمد مدارس:١٠،ويُنظر: خُطب سيدات البيت العلوي(عليهنَّ السلام) دراسة في ضوء لسانيات النص، مطلك ارزيج عطشان، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة ذي قار،٢٠١٣م:١٢

(٦) يُنظر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه :٧٣.

١ – يفترض الخطاب وجود السامع الذي يتلقى الخطاب، بينما يتوجه النصُّ الى متلق غائب يتلقاه عن طريق عينيه قراءة أي :أنَّ الخطابَ نشاطٌ تواصلي يتأسس– أولًا وقبل كل شيء – على اللغةِ المنطوقةِ بينما النصُّ مدونةٌ مكتوبةٌ.

٢– الخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره أي: أنَّه مرتبط بلحظة انتاجه بينما النصِّ له ديمومةُ الكتابةِ فهو يقرأ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

٣ – إنَّ الخطابَ ألصقُ بمعطياتِ اللغةِ الشفاهيةِ ، كالنَبْرِ والتَنْغِيمِ والوقفِ والوصلِ؛ لأنَّ مصطلحَ الخطابِ مأخوذٌ من الخُطْبةِ ، وغالبًا ما تلقى الخُطبةَ شفاهًا أمام جمهور من الناس، فيحتاج الخطيبُ الجهرَ ،مع العلم أنَّ أغلبَ الباحثين المعاصرين يلغي الفرقَ بين الخطاب وبين النصِّ، أمَّا النصُّ فهو الكلامُ المكتوبُ وفي حال كُتبَ المنطوقُ أصبح نصًّا مكتوبًا، وهذا الأمر يحتم علينا الاعتراف بفرادتهما.

وبعد هذا البحث في المعجمات اللغوية وتعريفات علماء النصِّ للنصِّ ،علينا أنْ نُبينَ الرؤية النصية للسيّدِ الطباطبائيِّ، وتصوره عن مفهوم النصِّ.

يقولُ السيّدُ الطباطبائيُّ عن مفهوم النصِّ: ((البيان القرآني... كلام موصول بعضه ببعض في عين أنَّه مفصول ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض كما قاله علي (عليه السلام) فلا يكفي ما يتحصل من آية واحدة بإعمال القواعد المقررة في العلوم المربوطة في انكشاف المعنى المراد منها دون أنْ يتعاهدَ جميع الآيات المناسبة لها ويجتهد في التدبر فيها كما يظهر من قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]))[١]

ويقولُ السيّدُ الطباطبائيُّ في مكانٍ آخرٍ من الميزان مشيرًا إلى رؤيته النصية : ((على أنَّ كلَّ مَنْ يرعى نظره في آيات القرآن من أوله إلى آخره لا يشك في أنَّ ليس بينها آية لها مدلول وهي لا تنطق بمعناها وتضل في مرادها، بل ما من آية إلَّا وفيها دلالة على المدلول: إمَّا

(١) الميزان : السيّد محمد حسين الطباطبائي :٨٨/٣ .

مدلول واحد لا يرتاب فيه العارف بالكلام، أو مداليل يَلْتَبِسُ بعضها ببعضٍ، وهذه المعاني الملتبسة لا تخلو عن حق المراد بالضرورة وإلَّا بطلت الدلالة كما عرفت، وهذا المعنى الواحد الذي هو حق المراد لا محالة لا يكون أجنبيًا عن الأصول المسلمة في القرآن كوجود الصانع وتوحيده وبعثة الأنبياء وتشريع الأحكام والمعاد ونحو ذلك، بل هو موافق لها وهي تستلزمه وتنتجه وتعين المراد الحق من بين المداليل المتعددة المحتملة، فالقرآن بعضه يبين بعضًا، وبعضه أصل يرجع إليه البعض الآخر))[١].

ويشير السيّدُ الطباطبائيُّ في مكان آخر إلى مفهوم النصِّ قائلًا: ((على أنَّه ليس في القرآن آيةٌ أُريدَ فيها ما يُخالف ظاهرها، وما يُوهِمُ ذلك من الآيات إنَّما أُريدَ بها معانٍ يعطيها لها آياتٌ أُخر محكمة، والقرآن يُفسِّرُ بعضه بعضًا، ومن المعلوم أنَّ المعنى الذي تعطيه القرائن متصلة أو منفصلة للفظ ليس بخارج عن ظهوره وبالخصوص في كلام نصِّ متكلمه على أنَّ ديدنه أنْ يتكلم بما يتصل بعضه ببعضٍ، ويشهد بعضه على بعضٍ ويرتفع كل اختلاف وتنافٍ مترائي[*] بالتدبر فيه)) [٢] .

٢-مفهوم الاتساق :

إذا رجعنا إلى المعاجمِ وأمّات الكتب العربية باحثين عن المعنى الذي يمكن أنْ نتلمسَه من خلال الجذر (وَسِقَ) فإننا نجده يدور حول مفهوم الاكتمال والتمام، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) في الجذر (وَسِقَ): ((وسقت النخلة إذا حملت، فإذا كثر حملها قيل أوسقت أي حَمِلَتْ وسقًا ... ،وسِقَتْ الناقة وغيرها تَسِقُ أي حَمِلَتْ وأغلقت رحمها على الماء فهي واسق ، ونوق وِساقُ ... وسِقَتْ عيني على الماء أي ما حملته ...، الوسوق، ما دخل فيه الليل وما ضم ، وقد وسق الليل، واتسق...، والطريق يتسق...، ينظم، واتساق

(*) الصحيح (متراءٍ)

(١) الميزان:٣/٢٥ .

(٢) المصدر نفسه:٣/٤٥

القمر امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة ...، واستوسقت الإبل: اجتمعت ...، والاتساق: الانتظام))[١]

أما الفيروز أبادي (ت ٨١٧ هـ) في القاموس المحيط فيقول: ((وسقه يسُقه: جمعه وحمله ومنه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق:١٧]وطرده ومنه الوسيقة وهي من الإبل كالرفقة من الناس، فإذا سرقت طردت معًا، والناقة حملت وأغلقت على الماء رحمها فهي واسق، واستوسقت الإبل : اجتمعت، واتسق انتظم، والميساق: الطائر يصفق بجناحيه إذا طار)) [٢] ، والطائر إذا طار وكان مصفقا بجناحيه كان في ذلك اتساق كبير وانتظام ظاهر، كما يقول السيوطي (ت ٩١١ هـ):((اتسق القمر إذا تَمَّ وامتلأ ليلة أربع عشرة ، ووزنُ اتسق : افتعل وهو مشتق من الوسوق، ويقال اتسق: استوى))[٣].

الملاحظ في الذي ذكر ابن منظور والفيروز أبادي والسيوطي أنَّ المعنى الذي يكاد يتكرر حول الجذر (وَسِقَ) هو الاجتماع والانتظام والاكتمال وهذا لا يبتعد أبدًا عن المعنى الذي يدور الآن في كتب الاختصاص في علم النص .

والاتساق مفهوم يُعْنى بخصائص الربط النحوي بينَ الجُمَل والعبارات لتأليف بنية نصية مُتماسكة مُترابطة، ويَعْتَمدُ الربط النحوي على الإحالة والتكرار والربط بالعطف والفصل والوَصل وغير ذلك [٤] و يعرَّف محمد خطابي الاتساق بقوله: ((الاتساق ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنصٍّ ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية(الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمتها))[٥] ، ثم ينتقل إلى توضيح كيفية رصد تحقق الاتساق في نصٍّ من النصوص، فيواصل قائلًا: ((ومن أجل وصف اتساق(الخطاب/

(١) لسان العرب:١٥/٣٧٨، (وَسَقَ).
(٢) القاموس المحيط (وَسَقَ) :٨٣٥.
(٣) معترك الاقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين السيوطي، تحقيق :أحمد شمس الدين:٢/ ٢٧٠.
(٤) يُنظر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه :٨٢.
(٥) لسانيات النص، مدخل لانسجام الخطاب :٥.

النص) يسلك المحلل الواصف طريقة خطية، متدرجًا من بداية الخطاب إلى نهايته)) [١]، علمًا أنَّ محمد خطابي لا يفرق بين مصطلح النصِّ ومصطلح الخطاب والباحث لا يوافقه .

وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى مصطلحِ الإتساق صراحةً في تفسير سورة (ال عمران) بقوله: ((ويشبه أنْ تكونَ السورة نازلة دفعة واحدة ، فإنَّ آياتها ــ وهي مئتا آيةــ ظاهرة الاتساق والانتظام من أولها إلى آخرها، متناسبة آياتها، مرتبطة أغراضها))[٢].

ويظهر للباحث أنَّ السيّد الطباطبائيَّ يفرق بين الانتظام والإتساق إذ يقصد بالإنتظام العلاقات الدلالية بين الآيات أما الإتساق يقصد به العلاقات النحوية بين جمل الآيات وبين الآيات نفسها، فعناصر النصِّ تأتي مرتبطة بعضها ببعضٍ إذ إنَّ معناها لا يتأتى إلَّا بهمس ارتباطها وتسلسلها .

وأشار المُفسِّر إلى مصطلح الإتساق عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [المائدة:٤١] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((وهذه الجمل المتسقة بيان حال الذين هادوا، وأما المنافقون المذكرون في صدر الآية فحالهم لا يوافق هذه الاوصاف كما هو ظاهر))[٣].

بعد هذا العرض الموجز لبعض مفاهيم الاتساق نقول بأنَّ الاتساق يمثل دعامة أساسية من دعائم الدرس النصي، فهو يتصل بالانسجام النصي داخل النصِّ، ويرتبط بالوسائل والروابط

(١) لسانيات النص، مدخل لانسجام الخطاب :٥.
(٢) الميزان:٥/٣.
(٣) المصدر نفسه :٣٤٧/٥.

الصورية السطحية، وتتحد مهمته في توفير عناصر الانسجام، وتحقيق الترابط بين بداية النصِّ وآخره دون الفصل بين المستويات اللغوية المختلفة، هذا الترابط هو الذي يخلق بنية النصِّ، ويحقق استمراريته.

٣-مفهوم الانسجام:

درس اللغويون النصَّ من منطلقِ كونه بنيةً لغويةً، ومفهوم البنية يعني وجود علاقات متنوعة ومتداخلة بين عناصر النصِّ وفصوله الدلالية ، وهو ما يعبر عنه بالانسجام الذي عُرِّفَ تعريفات كثيرة ربما قاد بعضها إلى التقاء دلالة هذا المصطلح بمصطلحات أخرى ،لذا لابد لنا من بيان حقيقة الانسجام من جهة اللغة والاصطلاح.

الانسجامُ لغةً:

جاء في معجم مقاييس اللغة ((السين والجيم والميم أصل واحد، وهو صب الشيء من الماء والدمع ،يقال سَجَمَتْ العين دمعها، وعين سجُوم، ودمع مَسْجُوم، ويقال أرض مَسْجُومَة، ممطورة))[١]، وأورد ابن منظور في مادة (سَجَمَ): ((سَجَمَتْ العين الدمع والسحابة الماء وسجمه سجمًا وسجومًا، وسجمانًا: وهو قطرات الدمع وسيلانه، قليلاً كان أو كثيرًا ،...وانْسَجَمَ الماءُ والدمع، فهو مُنْسَجِمٌ إذا انْسَجَمَ أَي انصب...))[٢].

إنَّ المُتقصي للمعاني المتعلقة بمادة (سَجَمَ) يجدُ أنّها تدور حول القطران والصَبِّ والسّيلان وهذه المفردات توحي بالتتابع والانتظام وعدم الانقطاع في الانحدار، وإذا ربطنا هذه المعاني بالكلام نجد الانسجام هو أنْ يأتي الكلام متحدرًا كتحدر الماء المنسجم[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة :١٣٦/٣،(سَجَمَ).

(٢) لسان العرب:٣١/٧ ، (سَجَمَ).

(٣) يُنظر: تحرير والتحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع زكي الدين عبدالعظيم بن عبد الواحد المصري ،تحقيق د.حفني محمد شرف:٤٢٩.

الانسجام اصطلاحاً:

يُعدُّ مصطلح الانسجام أحد المصطلحات التي تباينت أراء الدارسين بشأنه وذلك عن طريق إيجاد مقابل عربي له، بحيث كان لكل دارس مصطلح معين مقابل للمصطلح الأجنبي (Coherence) فقد اختار سعيد حسن البحيري مصطلح التماسك[١]، وسماه محمد خطابي وصلاح فضل الانسجام[٢]،وترجم فالح العجمي الانسجام إلى (التناسق)[٣]، وقريب من ذلك ترجمة الهام أبي غزالة وعلي حمد خليل فقد أطلقا على الانسجام(التقارن)[٤]، في حين تتقارب التسمية عند صبحي إبراهيم الفقي ويوسف نور عوض فالأول يطلق على الانسجام التماسك الدلالي أو المعنوي[٥]، والآخر يطلق عليهِ الترابط الفكروي[٦].

واختار الباحثان سعد مصلوح ومحمد العبد مصطلح الحبك[٧]، ويقول محمد العبد:((فقد آثرت الحبك على غيره مما دار في مداره في التراث كما آثرته مقابلًا عربيًا مناسًبا (Coherence)))[٨].

واختار تمام حسان الالتحام[٩] في ترجمته لكتاب النص والخطاب والاجراء ونرى تمام حسان مع عدم استقراره على مصطلح واحد يسميه الالتحام والتعليق[١٠]، والاتساق[١١].

---

(١) يُنظر: علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) د. سعيد حسن بحيري: ١٠٨.

(٢) يُنظر : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب،د. محمد خطابي : ٥ ، وبلاغة الخطاب وعلم النص :٣٢٨ .

(٣) يُنظر: مدخل إلى علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق(دراسة تطبيقية على السور المكية): ١٤١.

(٤) يُنظر: مدخل إلى علم لغة النص روبرت ديبو غراند – ولفغانغ دريسلر إلهام أبو غزالة – علي خليل حمد: ١١.

(٥) يُنظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق(دراسة تطبيقية على السور المكية): ٩٦/١.

(٦) يُنظر:نظرية النقد الأدبي الحديث، د. يوسف نور عوض: ١٠٢

(٧) يُنظر :نحو أجرومية للنص الشعري، د. سعد مصلوح:١٥٤.

(٨) يُنظر: النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد:١٠١.

(٩) يُنظر :النص والخطاب والأجراء : ١٠٣.

(١٠) يُنظر :اجتهادات لغوية، د. تمام حسان : ٣٧،وخُطب سيدات البيت العلوي(عليهنَّ السلام) في ضوء لسانيات النصِّ:٧٣.

(١١) يُنظر :الدرس النحوي النصي في كتب أعجاز القرآن، د. أشرف عبد البديع عبد الكريم : ١٤٠.

واختار الباحث مصطلح الانسجام ؛ لأنَّ الانسجام يَعدُّ من أكثر المصطلحات انتشارًا قياسًا بغيره من المصطلحات المستعملة في الدراسات النصية ، واستعمل السيّدُ الطباطبائيُّ هذا المصطلح مرات متعددة في تفسيره (الميزان) بقوله: ((وأما وقوع الآية بين ما تقدمها وما تأخر عنها من الآيات فهي كالمتخللة المعترضة إلَّا أنَّ هاهنا احتمالًا ربما صحح هذا النحو من التخلل والاعتراض – وهو غير عزيز في القرآن – وهو جواز أنْ تتنزل عدة من الآيات ذات سياق واحد متصل منسجم تدريجًا في خلال أيام ثم تمس الحاجة إلى نزول آية أو آيات ولما تمت الآيات النازلة على سياق واحد تقع الآية بين الآيات كالمعترضة المتخللة وليست بأجنبية بحسب الحقيقة وإنما هي كالكلام بين الكلام لرفع توهم لازم الدفع))[1]. ويقول المُفسِّر مكانٍ آخرٍ من تفسيره (الميزان) :((... ويؤيده أنَّ آية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[الأحزاب:٣٣]، على انسجامها واتصالها لو قدّر ارتفاع آية التطهير من آية من بين جملها فموقع آية التطهير من آية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ كموقع آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ ﴾ [المائدة:٣]))[2]، وهكذا نجدُ السيّدَّ الطباطبائيَّ يُشير إلى مصطلح الانسجام بالرؤية نفسها التي أشارت إليه اللسانيات النصية الحديثة .

يُعَدُّ مصطلح الانسجام جانبًا من الجوانب المهمة في دراسة النص أو تحليل النص: ((بعدِّه الوحدة الكبرى؛ فهو ذو طبيعة دلالية متعلقة ومشروطة بمدى التماسك الكلي للنص، لذلك فإن الذي يحدد إطارها هو المتلقي)) [3].

(١) الميزان:٥/٣٦٨.
(٢) المصدر نفسه:١٦/٣١٨.
(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص :٣٣٨.

فالانسجام يعمل على بناء النص أكثر ترابطًا وأكثر تماسكًا مما يحقق التواصل بين المتلقي والمنتج والنصّ، وبه يصل إلى غاية إبداعه وقد عرفه السيوطي بقوله: ((أنْ يكون الكلام لخلوه من الانعقاد منحدرا كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه، وعذوبة ألفاظه أنْ يسهل رقة، والقرآن الكريم كله كذلك ....، وقد جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه)) [١].

فمن هذا المفهوم يتضح جليًا أنَّ الانسجامَ لا يتحقق إلَّا بالانتظام وبعدّ النصِّ وحدة كبرى منتظمة وليست رصفًا عشوائيا للجمل، إذ يقوم محلله بالانتقال من المستوى الأفقي له وصولًا إلى المستوى العمودي، لاستقصاء مدى انسجامه، وهذا بتفسيره، واستنطاق مكامنه وكشف خباياه، والانسجام يعمل على تحقيق الاستمرارية في النصِّ، فنجد أنَّ ((الانسجام يتصل إلى هذا المعيار برصد وسائل الاستمرار الدلالي في عماله أو العمل على إيجاد الترابط المفهومي)) [٢]

ويرى محمد خطابي ليس هناك نص منسجم في ذاته وغير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي ،بل إنَّ المتلقي هو الذي يحكم على النص بأنَّه منسجم ، وعلى آخر بأنَّه غير منسجم[٣] ،وهذا رأي فيه شيء من الاطلاق إلَّا إذا عددنا المتلقي صاحب علمية تجيز له الحكم فالمتلقون ـ بطبيعة الحال ـ متفاوتو المعرفة.

ولا يَعدُّ (براون ويول) انسجام الخطاب شيئًا معطى موجودًا في الخطاب ينبغي البحث عنه للعثور عليه وإنَّما هو شيء يُبنى، أي: ليس هناك نص منسجم بذاته ونص غير منسجم بذاته باستقلال عن المتلقي، بل إنَّ المتلقي (السامع أو القارئ) هو الذي يحكم على نصِّ فأنَّه منسجم وعلى الآخر بأنَّه غير منسجم، إذ يقوم بإدماج النص أو المقطع اللغوي ضمن

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي :٣/٢٥٩ـ ٢٦٠.

(٢) النص والخطاب والأجراء:١٠٣ .

(٣) يُنظر: لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب :٥ .

عمليات عقلية معقدة تشبه عمليات الحاسوب، تقوده في نهاية المطاف إلى الحكم على انسجام النصِّ من عدمه أي: أنَّ الخطاب يستمدّ انسجامه من فهم المتلقي وتأويله [١].

وهذا الرأي كسابقه فيه شيء من الاطلاق لا ينسجم مع النصِّ القرآني، ويركز هذا الاتجاه على الدور الفاعل للقارئ في تحقيق عملية الانسجام مغفلًا دور المؤلف في ذلك، ويرى أنَّ عملية الانسجام تتحقق نتيجة علاقة جدلية بين عقل القارئ وذات النصِّ[٢]، وعلى هذا ((فإنَّ كلَّ نصٍّ منسجمٍ مهما تراءت فوْضويته وعدم انسجام أجزاءه)) [٣]، وهذا الرأي مُفرِط في دور القارئ حتى جعله العنصر المركزي في تحقيق عملية الانسجام .

وقد توصل (فندايك) إلى نتيجة مفادها تحليل النصوص يعتمد أساسًا على رصد أوجه الربط والترابط والانسجام والتفاعل بين البنية الصغرى الجزئية والبنية الكبرى التي تجمعها في هيكل تجريدي[٤].

وقد ركز (فندايك) على مظهرين أساسين في تحليل النص الأول مراعاة علائق الانسجام الخطي الموجود بين الجمل ، والثاني البنية الكلية أو مدار الحديث[٥]، وفي الاتجاه نفسه يتكلم السيّدُ الطباطبائيُّ إنَّ القرآن الكريم كلامٌ مُنسجمٌ ولا يوجد فيه أي اختلاف ،كلُّ اختلافٍ يظهرُ منه يمكن حله بالتدبر في القرآن الكريم نفسه[٦] .

---

(١) يُنظر: الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، مفتاح بن عروس ،أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨م :١٢٢.

(٢) يُنظر: مفهوم النص د. حامد أبو زيد:١٦٠ ـ١٦١ .

(٣) ديناميّة النص (تنظير وإنجاز)، د. محمد مفتاح:٤٤ .

(٤) يُنظر : علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات):٢٢.

(٥) يُنظر : التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية د. محمد مفتاح:٣٥-٣٧ .

(٦) يُنظر: الميزان:٥/٢٠-٢١.

المُقدَّمةُ

الحمـدُ للهِ ربِّ العـالمين والصـلاةُ والسـلامُ علـى سـيِّدِ رُسُـلِه وصـفوةِ خلقـهِ محمـد وعترتِه الطاهرين.

وبعدُ:

ميـزةُ (نحـو الـنصِّ أو لسـانيات الـنصِّ أو علـم الـنصِّ) ، فـي أنَّـه أفـادَ مـن نحـو الجُملَـة، مَبْنـى ومَعْنـى، ومـن الدراسـاتِ الأسـلوبيةِ، ومـن المنـاهجِ والمعـارِفِ السـابقة ولكنّـه أضـافَ إلـى تلـك المنـاهجِ مـا يُثبـتُ نصّـيةَ الـنصِّ وبَلاغتـه الخطـابِ، مـن غيـرِ أنْ يقتصـرَ علـى المنـاهجِ التـي كانـت تُجـزّئ الـنصّ ثُـمَّ تقـفُ عنـدَ الأجـزاءِ فقـط، فكُـلُّ مـا سـاعدَ علـى تصـورِ الـنصِّ كيانًـا لغويًـا متعـدِّدَ المُسـتوياتِ، مكوّنًـا مـن أجـزاء مترابطـةٍ أو أنظمـةٍ مُتشـابكةٍ، فإنَّـه يـدخلُ فـي علـم الـنصِّ؛ فإنشـاءُ علـمٍ للنصـوصِ هـو المـنهجُ الأنسـبُ للخِطـابِ المَـدْروس؛ لأنَّـه مـنهجٌ يستمـدُّ مادّتَـه وقوانينـه ومفاهيمـه مـن تشـابُكِ الأنظمةِ.

ومـن المعلـومِ أنَّ الـنصَّ القُرآنـيّ تناولـه بالبحـثِ والتفسـيرِ علمـاءُ الفقـه والأصـولِ والتفسِّـيرِ والبلاغـةِ والنحْـو ، ولكـنَّ عُلمـاءَ (عُلـوم القُـرآن) والمُفسِّـرينَ البلاغيـينَ للقُـرآن الكَـريم، كـان لهـم النصـيبُ الأوْفـرُ فـي مُقارَبَـةِ الـنصّ القُرآنـيّ، وذلِـك بتوظيـفِ كثيـرٍ مـن العُلـومِ والآليـاتِ والأدواتِ التـي تُحـيطُ بـالنصِّ القرآنـي الكَـريم، مـن جوانـبَ متعـدّدةٍ وتستكشـفُ قيمَـهُ الدلاليـةَ وجوانبـه الجماليـةَ وعلاقاتـه الكليـةَ، فكـان هـذا العلـمُ مُؤهّلاً لأنْ يكـونَ أقـربَ إلـى الـنّهجِ الـذي نهجَتـه لسـانياتُ الـنصّ وتحليـل الخطـابِ، وهـو صـالحٌ لأنْ يُصـاغَ منـه أنمـوذَجٌ تحليلـيٌّ يسـتخْرجُ أعمـاقَ الـنصِّ ويكشـفُ قِيمـه الجماليـةَ، و ليُكتشَفَ به مزيدٌ من المزايا الجماليةِ التي تنطوي عليها اللغةُ العربيةُ نفسُها.

ويحقق هذا المنهج فائدة بالغة في تحليل النصوص وفهمها؛ لأنَّه يدعو إلى تطبيق النظرة الكلية للنص ، والنظر في أنواع النصوص ومضامينها المختلفة وعلاقة النص بأركان التواصل ، وانسجام النص وتماسكه والربط بأدواته المختلفة وأنواع التراكيب ، والعلاقات بين الجمل ، وكلها أمور لا يتأتى تفسيرها إلَّا عن طريق وحدة النص الكاملة .

وعلى الرغم من شيوع النظرة الجزئية في أكثر الدراسات القديمة التي دارت في إطار نحْو الجُملة، فهناك عدد كبير من مُفسِّري القرآن الكريم لهم نظرات صائبة وتحليلات دقيقة تدخل في إطار علم النصِّ، فقد تحدّثوا عن المناسبة بين آيات القرآن وسوره ، وخصصوا في ذلك كُتبًا كما فعل البقاعي في (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وتحدثوا عن تماسك القرآن آيات وسورًا ، وكشفوا في ذلك عن مبدأين مهمين : أحدهما أنَّ القرآن يفسر بعضه بعضًا ، والثاني أنَّ سياق القرآن كالسورة الواحدة.

وبظهور النصِّ ظهرتْ مصطلحات مرافقة له، تُسْهِم في كيفية تحليله، ومن بينها مصطلح (الانسجام) الذي يعدُّ آلية من آليات التحليل؛ لأنَّ القارئ –في تحليله النصّ– يحاول اكتشاف مدى انسجامه، وقدرته على التبليغ والتأثير في المتلقي فتحليل النصِّ يقتضي دراسته عن طريق التركيب والدلالة، أي: الشكل والمضمون مع مراعاة مقاصد وغايات المُنْتج، وإنَّ المحلل يقوم بدراسة الأدوات اللغوية والدلالية لانسجام النصِّ.

والانسجام يعني العلاقات التي تربط معاني الجمل في النص ،وهذه الروابط تعتمد على المتحدثين(السياق المحيط بهم) ،فهو يتصل برصد وسائل الاستمرار الدلالي في عالم النص أو العمل على إيجاد الترابط المفهومي أي أنه يهتم بالروابط

الدلاليـة المتحققـة فـي عـالم الـنص بخـلاف الاتسـاق الـذي يهـتم بـالروابط الشـكلية المتجسدة في ظاهر النص.

وفـي الاتجـاهِ نفسـه يـأتي هـذا البحـث موسـومًا ب(الانسـجام النصِّـي فـي القـرآن الكـريم ـ الميـزان فـي تفسـير القـرآن للسـيّد الطباطبـائيِّ أنموذجًـا ، والاشـكال الـذي يحـاول البحـث كشـفه ودراسـته هـو تحديـد مفهـوم الانسـجام عنـد السـيّد الطباطبـائيِّ وتبيـان آلياتـه التـي جسـدَّها فـي تفسـير الميـزان ، ومحـور هـذا البحـث يـدرس التسـاؤل الآتـي: كيـف يتماسـك الـنص القرآنـي الكـريم ؟ وكيـف يحـدث الانسـجامُ فيـه مـن وجهـةِ نظـر السـيّدِ الطباطبـائيِّ ؟ وربَّ سـائلٍ يسـألُ هـل تفسـير الميـزان أنموذجًـا للقـرآن الكـريم؟ نقول لا يمكن ذلك وإنَّما تفسير الميزان أنموذجًا للإنسجام النصِّي في القرآن الكريم.

وقـد آثـر الباحـث أنْ تكـونَ دراسـته قرآنيـة ؛ لأنَّ القـرآن الكـريم أبلـغ الكـلام بـلا منـازع وفـي معايشـته أعظـم الفوائـد ، وجنـي أطيـب الثمـار ، وقـد وقـع اختيـاري علـى هـذا الموضـوع ، بتوفيـق مـن الله ، ثُـمَّ بمعونـة الأُسـتاذ المسـاعد الـدكتور جـابر محيسـن الركابي .

وفيمـا يخـص المـنهج المعتمـد فـي هـذا البحـث فقـد فرضـت طبيعـة خطتـه وغايتـه الاعتمـاد علـى المـنهج الوصـفي التحليلـي، وهـذا فـي مختلـف مراحـل البحـث فقـد سـمح بتتبع عناصره واحدة تلو الأخرى.

أمَّـا خُطـةُ البحـثِ فقـد قَسَّـمتها إلـى ثلاثـةِ فصـولٍ يتقـدَّمُها تمهيـدٌ ويتلوهـا خاتمـة، ضـمَّ التمهيـدُ الـنصَّ والاتسـاق والانسـجام (مفـاهيم عامـة)، ودار الحـديث فـي الفصـل الأول عـن (السِّـياق فـي تفسـير الميـزان) ويُمثـل السِّـياق عنصـرًا مهمًـا فـي الـنصِّ يُسْـهمُ فـي انسـجامهِ ومقبوليتـهِ ،واشـتمل علـى مقدمـة نظريّـة ومبحثـين الأول السِّـياق اللغـوي وقـد خُصـصَ لدراسـة السّـياق اللغـوي فـي تفسـير الميـزان، والثـاني

خُصصَ لدراسةِ السِّياق غير اللغوي في تفسير الميزان وكيف وَظّفَهُما السيّد الطباطبائيّ في بيان انسجام النصِّ القرآني؟

وأمّا الفصل الثاني فقد درس (المناسبة) التي تُسْهمُ في انسجام النصِّ القرآني وقد قُسِّمَ الفصلُ إلى ثلاثةِ مباحثَ تَضمَّنَ المبحثُ الأول موقف السيّدِ الطباطبائيِّ من الترتيب التوقيفي بين الآيات في السورة الواحدة أمَّا المُبحث الثاني فقد درس المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة (المناسبة الداخلية) تناول مناسبة اسم السورة لمضمونها ،ومناسبة فواتح السور لخواتمها ،أمَّا المبحث الثالث فقد درس المناسبة بين السّور (المناسبة الخارجية) ،وموقف بعض علماء المسلمين من الترتيب التوقيفي للسور القرآنية ثُمَّ موقف السيّد الطباطبائيّ من الترتيب التوقيفي بين السور وبعد ذلك جاء التطبيق العملي للمناسبة في تفسير الميزان .

وحمل الفصل الثالث عنوان (الفصول الدلالية في تفسير الميزان) وجاء الكلام فيه عن الدور الذي تؤديه الفصول الدلالية في انسجام النصِّ القرآني بعد مُقدَّمة نظرية عن مفهوم الفصول الدلالية في التراث العربي الإسلامي وعند المحدثين، وقد قُسِّمَ (الفصل الثالث) إلى ثلاثةِ مباحثَ تضمَّن المبحث الأول الفصل الدلالي في آيةٍ واحدةٍ ، وقد وقع الاختيار على أربعِ آيات من سورٍ مختلفةٍ منها اثنتان مكيتان واثنتان مدنيتان ،أمَّا المبحث الثاني فقد تناول الفصول الدلالية في أربع سورٍ هي (ص ، القصص، السجدة، الفتح) ، ودرس المبحث الثالث ما عُدَّ من السور فصلًا دلاليًا واحدًا(سورة الغاشية ،وسورة الفجر)، ووقع الاختيار على السورتين اللتين تزيد آياتهما على عشرين آية ، وعلى سورتين من القصار، هي (سورة الاخلاص، سورة النصر) أمَّا الخاتمة فقد كانت لبيان أهم النتائج التي توصّل اليها البحث.

ولتحقيق متطلبات البحث كان القرآن الكريم المصدر أولًا، المصادر والمراجع ثانيًا واعتمد البحث أمّات المعجمات منها: مقاييس اللغة لابن فارس ، والصِّحَاح للجوهري ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ولسان العرب لابن منظور ، وزيادة على ما ذُكرَ فإنَّ المصادر التي اعتمدها الباحث كانت متعددة ومتنوعة نذكر منها على سبيل المثال ،(تفسير الكشاف) للزمخشري، و(التفسير الكبير) للرازي، و(البرهان)للزركشي، و(الاتقان في تفسير القرآن)للسِّيوطيِّ، و(التحرير والتنوير) لابن عاشور ومصادر أُخر.

وفضلًا عن ذلك فإنَّ الباحثَ قد اعتمدَ المصادرَ الحديثةَ في اللسانيات النصيَّة المؤلفة من الباحثين العرب منها : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب لمحمد خطابي ، وعلم لغة النص (الاتجاهات والمفاهيم) سعيد بحيري ، وأصول تحليل الخطاب لمحمد الشاوش وغيرها .

وقد تَمَّ هذا بفضل الله تعالى، ثُمَّ بفضل الأُستاذ المساعد الدكتور جابر محيسن الركابي المُشرف على البحث ، بما لاقاني به من رحابة صدر وصدق نصيحة، وسداد رأي، وحسن توجيه، إذ رعى البحث وصاحبته طوال مدة الإنجاز، فكان نِعْمَ الأستاذ المشرف الموجه، فله مني خالص الشكر وفائق الاحترام والامتنان، وتبقى هذه العبارات لا تفيه حقه، فجزاه الله عني خير جزاء .

وأخيرًا ارجو من الله عَزَّ وجل أنْ يوفقني لما فيه خير وصلاح لخدمة لغة القرآن الكريم فإنْ أصبْتُ فهذا ما أرجو، وإلَّا فحسبي أنَّني حاولت والله ولي التوفيق.

الباحث: رحيم مجيد راضي

السِّياق: لغةً واصطلاحاً:

قبل الحديث عن مفهوم السِّياق وأنواعه ودلالاته، لابُدَّ من تحديد المعنى السِّياقي والفرق بينه وبين المعنى المعجمي للكلمة، فهما معنيان متقابلان، إذ يُراد بالمعجمي : المعنى الذي نستقيه من المعجمات المختلفة، ويُمثّل المعنى الوضعي الأصلي للفظ، الذي سُمي المعنى المركزي أو الأساس(١).

وهذا النوع من المعنى للكلمة لا يُنبئ عمّا في الكلمة المفردة من دلالات أوسع من معناها المعجمي، أمّا المعنى السِّياقي فهو الذي يُستقى من النظم اللفظي والمعنوي للكلمة وموقعها من ذلك النظم(٢)،أومن السِّياق العام للكلام، إذ تخضع الكلمة للعلاقات المعنوية والظروف الحالية والتعبيرية المحيطة بها ، التي يأتلف بعضها مع بعضٍ لتُبيّن المعنى الخاص لتلك الكلمة، الذي سُمّي الإضافي أو العرضي أو الثانوي أو التضميني(٣).

والفارق الأساس بين المعنيين، المعنى المعجمي والمعنى السِّياقي هو تعدّد الأول وتحدّد الثاني(٤)،إذ لا يُعين الأول على تحديد البعد الدلالي للكلمة ؛ لأنَّها تحتمل أكثر من معنى ،وهو في الغالب معنى منفرد منفصل يقوم على التجريد(٥)،أمّا الآخر فهو معنى محدّد تحكمه علاقة الكلمة بكل ما يحيط بها من عناصر لغويّة وغير لغويّة، لذا فهو لا يقبل التعدّد، ففي كل سِياق تكتسب الكلمة معنى محدّدًا مؤقتًا يُمثل القيمة الحضورية لها ، التي تختلف من سِياق إلى آخر لذا فإن المعاني السِّياقية للكلمة الواحدة تتعدد بتعدد السِّياقات التي تَرِدُ فيها(٦).

---

(١) يُنظر : اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز ترجـمة: د. عباس صادق الوهاب :٣٥.

(٢) يُنظر : دور الكلمة في اللغة، ستيفن اولمان ترجمة د. كمال بشر: ٦٢.

(٣) يُنظر : علم الدلالة ،د. أحمد مختار عمر:٣٧.

(٤) يُنظر :اللغة العربية معناها ومبناها ،د تمّام حسّان.:٣٢٥.

(٥) يُنظر : منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. علي زوين:١٨٥.

(٦) يُنظر: اللغة (فندريس) : ٢٣١-٢٣٢.

السِّياقُ لغةً:

أشار الزمخشريُّ إلى لَفظِ (السِّياق) في مادة (سَوَقَ) يقول ومن المجاز :((ساق الله إليه، وساق إليها المَهْرَ ، وساقتْ الرّيحُ السّحاب... والمُحتَضَر يسوق سَوْقًا ،وفلان في ساقةِ العسكرِ: في آخره هو جمع سائق كقادة في قائد ، وهو يُساوِقه ويُقاوِده، وتساوَقَتْ الإبل: تتابعتْ . وهو يَسوق الحديث أحسن سِياق، وإليك يُساق الحَدِيثُ ...، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده...)) [١] .

ويُلحظ من خلال ما قدمه الزمخشري انتباهه لدلالة أخرى تلفظ السِّياق أوردها في الاستعمال المجازي للفظ إذ ربط بين لفظ السِّياق والحديث(الاستعمال) [٢].

وأورد ابن منظور لفظ السِّياق في مادة (سَوَقَ) ((السَّوق معروف ساقَ الإبلَ وغيرَها يَسُوقها سَوْقاً وسِياقاً، وهو سائقٌ وسَوَّاق، ... وقد انْساقَت وتَساوَقَت الإبلُ تساوُقاً إذا تتابعت، وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوِقة... وساقَ إليها الصَّداق والمَهرَ سِياقاً وأَساقَه، وإن كان دراهمَ أَو دنانير، لأن أَصل الصَّداق عند العرب الإبلُ، وهي التي تُساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما ، وساقَ فلانٌ من امرأته أي أعطاها مهرها ، والسِّياق: المهر قيل للمهر سَوْق لأنَّ العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهرًا ؛لأنَّها كانت الغالبَ على أموالهم، وضع السَّوق موضع المهر وإنْ لم يكن إبلًا وغنمًا...وأساقه إبلًا : أعطاها إياها يسوقها... وساقَ بنفسه سياقًا: نَزَع بها عند الموت ،والسِّياق نزع الروح أَصله سِواق، فقلبت الواو ياء لكسرةِ السين، وهما مصدران من ساقَ يَسُوق))[٣].

وهكذا يتبين عن طريق المادةِ التي قدمها ابن منظور أنَّ السِّياق جاء بمعنى: قَادَ ، أعْطَى نَزَعَ .

وأشار المُعْجم الوسيط إلى مفردة السِّياق محددًا معناها : المَهْرُ ، وسِّياق الكلام ، تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه ، والسِّياق النزع ، يقال: هو في السِّياق الاحتضار [٤] .

---

(١) أساس البلاغة،أبو القاسم محمود بن عمر *الزمخشري*:٣١٤،(سَوَقَ).

(٢) يُنظر: السِّياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ،د. علي آيت أوشان:٢٩.

(٣) لسان العرب: ٣٠٤/٧-٣٠٥ ، (سَوَقَ).

(٤) يُنظر: المُعجَم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون:٤٦٥/١،(سَوَقَ).

إنَّ الشروحاتِ التي أوردها (المُعْجَم الوسيط) للفظ السَّياق لا تخرج عما قدمه (مُعجَم لسان العرب)، وهي شروح لم يرد فيها أي تحديد للسِّياقِ.

السِّياقُ اصطلاحاً :

يقول ابن قيم الجوزية(ت٧٥١هـ) متحدثًا عن أهمية السِّياق في تعيين الدلالة : ((السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن اهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته)) [١].

يُعرِّفُ فتحي إبراهيم السِّياق أنَّه ((بناء نصي كامل من فقرات مترابطة ، في علاقته بأيِّ جزءٍ من اجزائِه أو تلك الاجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة ، ودائمًا ما يكون السَّياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط ، بحيث يلقي الضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها)) [٢].

ويعرِّف عبد الرحمن بودرع السِّياق ((إنَّه إطار عام تنتظمُ فيه عناصِر النصِّ ووحداته اللغويّة، ومقياس تتصلُ بوساطتِه الجملُ فيما بينها وتترابط، وبيئة لغويّة وتداوليّة ترعى مجموعَ العناصر المعرفيّة التي يُقدمها النصُّ للقارئِ ،ويضبط السِّياق حركات الإحالة بين عناصِر النصِّ، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلَّا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السِّياق وكثيرًا ما يرد الشبَه بين الجُمَلِ والعِبارات مع بعضِ الفوارِق التي تميز بينَها، ولا نستَطيع تفسير تلك الفوارق إلَّا بالرجوع إلى السِّياقِ اللغوي، ولَحْظ الفَوارق الدقيقة التي طرأت بين الجملِ))[٣].

ويرى (فيرث) أنَّ المعنى لا ينكشف الَّا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، أي وضعها في سياقات مختلفة ويقولُ أصحابُ هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم :إنَّ معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أُخرى، وأنَّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وضعها أو تحديدها إلَّا بملاحظة الوحدات الأخرى المجاورة لها[٤] .

---

(١) بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: علي بن محمد العمران :٢٢/٤

(٢) معجم المصطلحات الأدبية ، فتحي إبراهيم :٢٠١.

(٣) منهج السِّياق في فهم النصِّ، د. عبد الرحمن بودرع:٤٣.

(٤) يُنظر: علم الدلالة، د. أحمد مختار عُمر:٦٩ .

ويرى هاليداي ورقية حسن بقولهما: ((السِّياق هو النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر ، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية))[١] .

ويقول (روبرت دي بوجراند):((ينبغي للنصِّ أنْ يتصلَ بموقف تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف وهذه البيئة الشاسعة تسمى سِّياق الموقف أما التركيب الداخلي للنصِّ فهو سياق البيئة))[٢].

ويعرِّف مشكور كاظم العوادي السِّياق بعد تعريفه للنَظْم بقوله: ((النظْم هو ترتيب الكلمات إراديًا (بقصد مع وضع معيّن) لتأدية معنى خاص ،وبه تتم الافادة من قوانين اللغة فيما يمكن أو تسمح به هذه القوانين من إعادة التركيب في نمط معين لمعنى جديد معين، أما السِّياق فهو المعنى الذي يؤديه النصُّ والانسجام مع هذا المعنى لشيء آخر ملحق به(ملاءمة الوضع)أي المعنى العام هو الذي يجري معه السِّياق)) [٣].

فالسِّياق يبحث في الدلالات المعنوية الآتية في مساق واحد ، ومدى انسجامها في ما بينها، بحيث تشكل قطعة موضوعية من الحقائق العقدية والتشريعية والكونية بما يحقق للإنسان درب الهداية والفلاح ، ومدى ترابط المعاني وتتابعها في طريق واحد لأجل الوصول إلى غاية محددة وهنا يمكن القول السِّياق هو علاقة المعنى بالمعنى والنظم هو علاقة اللفظ بالمعنى[٤] .

من هذه التعريفات تتَّضح العلاقة التلازمية بين النص والسِّياق فوجود النصِّ يلزمه توفر سياق ما، وبيئة معينة يتم إنتاجه فيها، ويمكن القول إنَّهما متكاملان ذلك أنَّ ((النص والسِّياق يتمم أحدهما الأخر)) [٥].

فإنتاج النصِّ يكون في إطار مجموعة من الظروف المحيطة به وتحليله وتفسيره يتطلب معرفة الجوانب المتوفرة فيه لحظة

---

(١) علم النصِّ ونظرية الترجمة : ٢٢.

(٢) النص والخطاب والاجراء:٩١.

(٣) البحث الدلالي في تفسير الميزان(دراسة في تحليل النص) ،د. مشكور كاظم العوادي:١٣٧.

(٤) نظريّة السِّياق القرآني:١٧.

(٥) المعنى واللغة والسِّياق ،جون لاينز:٢٥٥.

وضعه، ولا يكون الفهم الحقيقي لرموزه وإشاراته، إلَّا بالرجوع والعودة إلى معرفة السِّياق الذي ورد فيه، ويكون بذلك قابلًا للتأويل والتحليل وفك شفراته[١].

وينطلق عبد الفتاح محمود في تعريفه السِّياق من نَظْرَتِه للسِّياق في إطار القرآن الكريم آخذًا في ذلك بالمعنى اللغوي الذي هو التتابع فالسِّياق عنده هو((تتابعُ المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية ، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود ، دون انقطاع أو انفصال)) [٢].

وفي ضوء هذا ينبغي أنْ نُميزَ بين السِّياق اللغوي والسِّياق غير اللغوي، في كون الأول يَهْتمُ بعلاقات البنية بغيرها من البنى التجاورية، ويقيم المعنى الوظيفي نتيجة لهذه العلاقات، وأبرز مظهر له يتجلى في بيان المعنى النحوي واللساني ،ولا تعنيه النسبة الخارجية التي تؤديها العبارة ،أمَّا الثاني فيتناول مؤديات المعنى في طبقات المقام ،فيكون من ضمن اعتباراته المتكلم والمخاطب والجو المحيط بذلك ،مثل الأعراف والثقافات والتقاليد التي تكون من ضمن الدورة التخاطبية[٣].

ووفقًا لنظريّة السِّياق التي تذهب إلى أنَّ الألفاظ تستمدُّ دلالتها من السِّياقات التي تُستعمل فيها، ويمكن تقسيم السِّياق في النص القرآني إلى ما يأتي:

الأول: السِّياق اللغوي ((ويعني سياق الآية أو الآيات داخل السورة وموقعها بين السابق من الآيات واللّاحق، أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أنْ تُربطَ الآية بالسِّياق الذي وردت فيه، ولا تُقطَع عمّا قبلها وما بعدها وأطلق عليه البعض (سياق النصِّ)، حيث تتوالى فيه العناصر التي يتحقق بها التركيب والاتساق)) [٤].

---

(١) يُنظر: نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عثمان أبو زنيد:١٧٣ــ١٧٤.

(٢) نظريَّة السِّياق القرآني :١٥.

(٣) يُنظر: الخطاب القرآني د. خلود العلموش :٢٦.

(٤) المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، د. عادل رشاد حسن غنيم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية ١٤٣٤/٤/٦هـ ــــ٢٠١٣/٢/١٦م:١٨.

وهذ السِّياق ينقسم بدوره إلى قسمين: الأول: السِّياق الأصغر، وهو سياق خاص جزئي وهو الموضع القريب المحيط بالنصِّ كالكلمة في الجملة أو الجملة في الآية أو الآية ضمن الآيات القريبة السابقة واللاحقة.

الثاني: السِّياق الأكبر وهو السِّياق العام الكلي وهو السِّياق القرآني بأكمله إذ إنَّ للقرآن الكريم منهجه الخاص في التعبير ومصطلحاته المُبْتكرة التي لم تعهدْ في غيره وطريقته المتميزة التي توازن بين الإجمال والبيان والإطلاق والتقييد والعموم والخصوص ولذلك أدرك المُفسرون الأوائل أنَّه لا غنى للمُفسِّر عن المواءمة بين كل ثنائية منها ومن خلالها تبرز النتائج الكاملة وقد درست في ضوء السِّياق الشامل للقرآن الكريم [١].

وأما الثاني: السِّياق غير اللغوي ((هو ظروف الخطاب وملابساته الخارجية ومنها ما سماه المُفسِّرون: أسباب النزول، ويندرج ضمنها بالطبع مراعاة حال المخاطَب وغرض المتكلم)) [٢].

لقد أدرك السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ في الألفاظِ المركبةِ دلالةً مستنبطةً في غيرِ دلالتِها المجردةِ، لذا فهو يصرح بأنَّ ((اللفظ إذا تعقَّبه غيره تغيّرت حاله... ألا ترى أنَّ أكثرَ الكلامِ مُركَّب مما إذا فصلنا بعضه عن بعضٍ أفاد ما لا يُفيده المُركّب...))[٣]،وهذا التصريح بمفهوم السِّياق حيث يتفق مع مقولة المحدثين في أنَّ معنى الكلمة لا يمكن معرفته وهي منعزلة بمفردها من غير أنْ نعرف موضعها في النص، ذلك أنَّ((الواجهة الأخرى في المواقف اليومية التي نسأل فيها عن معنى الكلمات هي تلك التي يقال عنها عادة إنَّها تعتمد النصَّ... وغالبًا ما يستحيل إعطاء معنى كلمة دون وضعها في نص)) [٤]

(١) المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير :١٨.

(٢) المصدر نفسه :١٨.

(٣) الميزان:١/٢٣٢.

(٤) علم الدلالة ، جون لاينز:٢٢ـ٢٣

المبحث الأول: السِّياق اللغوي في تفسِير الميزان

١- السِّياق الأصغر:

اعتمد السيّدُ الطباطبائيُّ الوحدة السِّياقية، وهي أنساق وسياقات، مهيمنة ينصب التفسير عليها، وهو التفسير بوحدة السِّياق وعندها ليس الكلمات هي التي تتطابق، بل المهم هو اللحاظ السِّياقي أي: القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا سياقيًا بالكشف الداخلي لا مفرداتيًا، فهو يفسِّر الآيات بالآيات بلحاظ تحصيل معاني القرآن من القرآن، ولما كان السِّياق عنده أدلُّ دليل لبيان المعنى، وفهم المراد ،ولاسيما في الوجوه المستقاة من معرفة مكان التنزيل مكيًّا أو مدنيًّا ،أو استشراف دقائق القرآن في تناسب آياته وتناسق سورة(١).

وللسِّياق اللغويِّ أثرٌ بيْن في تفسير (الميزان)، ولازمت فكرةُ السِّياقِ السيّد الطباطبائيّ في تفسيره الآيات، وغالبًا ما كان يصرّحُ بها ويذكرُ لها مصاديق كثيرة تدلنا على الاستعمال الواسع للسِّياق، ومحاولة الإفادة منه ويعدّه وسيلة مهمة من وسائل الكشف عن المعنى، ولأجل جلاء الموضوع نورد قوله تعالى:﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦] ، فقد تدبَّر السيّدُ الطباطبائيُّ النص القرآني سياقيًا بقوله:((أدراكم به أي أعلمكم به، والعمر بضمتين أو بالفتح فالسكون، هو البقاء ، ...وهذه الآية، تتضمن ردّ الشق الأول من سؤالهم، وهو قولهم: (ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ) [يونس:١٥] الذي ذكرته الآية﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [يونس:١٥] ومعناها على ما يساعد عليه السِّياق، أنَّ الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيّئتي، فإنَّما أنا رسول الله، ولو شاء أنْ ينزلَ قرآنًا غير هذا ولم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم، ولا أدراكم به، فإني مكثت فيكم عمرًا من قبل نزول القرآن، وعشت بينكم وخالطتكم وخالطتموني، فوجدتموني لا خبر عندي من وحي القرآن، ولو كان ذلك إلي وبيدي لبادرت إليه قبل ذلك... فليس إلي من الأمر شيء، وإنَّما الأمر في

(١) يُنظر: مقاربات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري،(تفسير القرآن أنموذجا)،د. كاظم مشكور العواديّ ، مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع عشر لعام ٢٠١٢ م:٣٣.

ذلك إلى مشيئة الله، وقد تعلّقت مشيّته بهذا القرآن لا غيره أفلا تعقلون؟))[1] ، والسيّدُ الطباطبائيُّ يُشير إلى المعنى لا يتبدّى إلَّا بدراسة سلسلة الكلام وتتابعه، فهو يكشف لنا عن نظام الكلام وترابطه، ويربط بطرفي الآيات ويسوق المعنى إلى غايته التي هي إيصال غرض المتكلم إلى ذهن المُخاطَب .

ويستنطق السيّدُ الطباطبائيُّ السِّياق اللغويَّ ليُبيّنَ المعنى المراد بقوله تعالى﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر:٢٤] فيقول : ((المفاد على ما يقتضيه السِّياق إنَّا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس ببدع مستغرب فما من أمة من الأمم إلَّا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه ، وظاهر السِّياق أنَّ المرادَ بالنذير الرسول المبعوث من عند الله وفسَّر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي وهو خلاف ظاهر الآية ،نعم ليس من الواجب أنْ يكون نذير كل أمة من أفرادها فقد قال تعالى:(خَلَا فِيهَا) ولم يقل: خَلَا مِنهَا))[2].

يستندُ السيّدُ الطباطبائيُّ على السَّياقِ اللغويِّ في إيضاح المراد بالنذير الرسول (محمد(ﷺ)) ويفند رأي مَن يذهب إلى أنَّ المراد بالنذير النذير بالمطلق معللًا ذلك ظاهر اللفظ يدل عليه، طبقًا للآية أعلاه، لأنَّ كلَّ الأُممِ كان فيها نذير إلهي، أي كان فيها نبي، مع أنَّ بعضهم تلقّى ذلك بمعنى أوسع، إذ يشمل العلماء والحكماء الذين ينذرون الناس أيضًا، ولكن هذا المعنى خلاف ظاهر الآية، ويتنبه السيّدُ الطباطبائيُّ إلى دليل آخر أنَّه ليس من الواجب أنْ يكون نذير كل أمة من أفرادها يؤيده قال تعالى:(خَلَا فِيهَا) ولم يقل: خَلَا مِنهَا لما تُفِيدُه (في) من معنى الظرفية بينما تُفِيدُ (من)معنى التبعيض ،والتحليل الذي يُشير إليه السيّدَ الطباطبائيِّ أقرب إلى انسجام النص القرآني وهكذا نجد السيّدَ الطباطبائيَّ يستعين بالسِّياق الأصغر في ترجيح المعنى المراد الذي يكون أقرب إلى ابقاء النص منسجمًا.

ويفضّل السيّد الطباطبائي من التفسير الوجه الملائم لسِّياق الآية مُستعينًا بالمتقدم منها ،أو المتأخر، توظيفًا لبيان الانسجام معتمدًا السِّياق اللغوي ومن أمثلة قوله تعالى:﴿ أَوَ

(١) الميزان:١٠/٢٧.

(٢) المصدر نفسه:١٧/٣٨.

كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩]يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((الصَيِّب(*) هو المطر الغزير، والبرق معروف، والرعد هو الصوت الحادث من السحاب عند الإبراق، والصاعقة هي النازلة من البروق ، وهذا مثل ثانٍ يمثل به حال المنافقين في إظهارهم الإيمان، أنَّهم كالذي أخذه صَيِّب السماء ومعه ظلمة تسلب عنه الأبصار والتمييز، فالصَيِّب يضطره إلى الفرار والتخلص، والظلمة تمنعه ذلك، والمهولات من الرعد والصاعقة محيطة به فلا يجد مناصًا من أنْ يستفيدَ بالبرق وضوئه وهو غير دائم ولا باقٍ متصل كلما أضاء له مشى وإذا أظلم عليه قام))[١]، ويستعين السيّدُ الطباطبائيُّ بالسِّياق اللغوي في تحديد المعنى المراد من المعنى المعجمي(صيِّب) ويختار المعنى السياقي (المطر الغزير) الذي تحدده معاني الكلمات المجاورة (البرق، الرعد ، جعل الاصابع بالآذان) الذي يعمل على ربط عناصر النصِّ القرآني وأنَّه((يتيح لعناصر التي يتكون منها السِّياق النص أنْ تولد تواكبًا للتمثيل والتنوع))[٢] ،مُستفيدًا من سياق الآيات التي سبقتها لذا نراه يقول: مثل ثانٍ إشارة إلى قوله تعالى:﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾ [البقرة:١٧]،وهذا التحليل النصِّي للسيّدِ الطباطبائيِّ ينمُ عن رؤية نصية تضاهي ما تقول فيه اللسانيات النصية مؤكدًا انسجام النصِّ القرآني عن طريق النصِّ دون التركيز على الرواية التي اعتادت كتب التفسير التركيز عليها.

وإنَّ التماسك يتجسد في خاصية الانسجام التي تولّد النظرة الكلية للنص دون الفصل بين أجزائه مما يجعله يظهر كنسيج واحد وبنية كلية ،ويستثمر رؤيته السِّياقية في إيضاح الانسجام بقوله :((وهذه حال المنافق فهو لا يحبُّ الإيمان ولا يجد بُدًا من إظهاره، ولعدم المواطاة بين قلبه ولسانه لا يستضيء له طريقه تمام الاستضاءة، فلا يزال يخبط خبطًا بعد

(*) يقول الراغب الاصفهانيِّ:((والصَيِّبُ: المَصْبوبُ من المطر، ومن عصارة الشيء، ومن الدم، والصُّبابة والصُّبَّةُ: البقية التي من شأنها أنْ تُصَبَّ)):٤٧٣

(١) الميزان:١/٥٨.

(٢) نسيج النص:١١٩.

خبط ويعثر عثرة بعد عثرة فيمشي قليلًا ويقف قليلًا ويفضحه الله بذلك ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره فيفتضح من أول يوم)) [١].

وهذه الرؤية النصية التي يُشير إليها السيُّد الطباطبائيُّ تماثل ما تقول بها اللسانيات المعاصرة(الناظم المنهجي)أو الذي تسميه بعض مدارسها (الرؤية المنبثقة) وهذا يقتضي أنَّ الدلالة ينبثق من داخل النص ولا يفرض عليه من الخارج[٢]، وإنَّ الانسجام النصِّي لا يتحدد على مستوى علاقات الترابط بين المتتاليات والجمل فحسب بل يتحدد كذلك على مستوى البنية الكبرى للنص بعدّه عملًا كليًا يحدد معنى النص[٣].

وقد ربط السيّدُ الطباطبائيُّ بين أول الآية وآخرها ، وأفاد من سياقها المتقدم في تحديد دلالتها ومعانيها بدقة، والسِّياق الأصغر الذي استعان به السيّدُ الطباطبائيُّ في تفسير الآية يُحقق الانسجام في النصِّ القرآني ويكون أكثر ملاءمة لمراد المخاطَب ، وهذا ما تؤكده الدراسات الحديثة إذ ترى أنَّ السِّياق من أهم أدوات الانسجام النصي وأنَّ تحقيق السِّياق واستظهاره استظهارًا للانسجام وإذا كانت فكرة التماسك النصِّي تقوم على تحقيق الانسجام بين وحدات النصوص وعناصرها من خلال العلاقات التي تربط نسيج النصِّ بعضه ببعضٍ وتجعل النصَّ موحدًا[٤]، فإنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ اعتنى بالكشف عن الترابط القائم بين سلسلة الأقوال المؤلفة للنصِّ القرآني.

وأنَّ السِّياق اللغوي هو الذي يحدد معاني المفردات، ومصداق ذلك ما ذكره السيّدُ الطباطبائيُّ فيما يخص قوله تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٤]، فسَّر لآية قائلاً:((ظاهر السِّياق أنَّ المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسِّياق التأكيد والتشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة وصية بعد الوصية بامتثال ما وجه إليهنَّ من التكليف وفي قوله (فِي بُيُوتِكُنَّ) تأكيد آخر)) [٥].

---

(١) الميزان :٥٨/١.

(٢) يُنظر: المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير :٢٩.

(٣) يُنظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء:٥٩ .

(٤) يُنظر: في اللسانيات ونحو النص،د. إبراهيم محمود خليل:١٨٥.

(٥) الميزان :٣١٩/١٦.

ويستفيد السيّدُ الطباطبائيُّ من سياق الآيات التي سبقت هذه الآية ويوظفها في تحليل هذه الآية ، ويرشح المعنى الذي يلائم معاني الكلمات المجاورة ويحصره في الذكر المقابل للنسيان،وهو كما يرى مناسب للسِّياق اللغوي، وإنَّ المتتبع في كتب النحو قديمِها وحديثِها، يَلمحُ أنَّ التكرار يرد في باب من أبوابه (التوكيد) ؛ وذلك كون التوكيد يمكن الشيء في النفس ويقوي أمره، حيث يقول أبو البقاء العكبري :((التوكيد تمكين المعنى في النفس ويقال: توكيدُ وتأكِيدْ ووكَّد وأكَّدَ بالواو))[1].

في حين أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ ينظُر إلى التوكيدِ نظرةً دلاليةً ،ويفترض وجود معنى آخر أبعد من إزالة الوهم، وتمكين المعنى الأول، وبما أنَّ التكرار يعد وسيلة من وسائل الاتساق المعجمي ذلك أنَّ أحدَ العنصرين المكررين يعين على فهم الآخر ،وهذا يضمن استمرارية النص ما يزيد المتلقي تنبهًا وإحساسًا بوحدة النص.

وفي ضوء ذلك نرى السيّدُ الطباطبائيُّ مسترشدًا بالسِّياق اللغوي في إيضاح الانسجام النصي عن طريق التأكيد التي تحدده الآية، ورادًا على بعض المُفسِّرين الذين لم يصرح بأسمائهم كدأبه في نقل الآراء ومناقشة بعضها والصفح عن بعضها الآخر قائلًا: ((وأمَّا قول بعضهم: إنَّ المراد واشكرْنَ الله إذ صيّركْنَ في بيوت يتلى فيهن القرآن والسنة فبعيد من السِّياق وخاصة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٤]))[2] والسيّدُ الطباطبائيُّ يُريدُ القولَ أنّ هناك مَن يُفسِّر ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يا نساء النبي(ﷺ) اشكرْنَ الله إذ مكنكْنَ أنْ تكونَنَّ في بيوت يتلى فيها القرآن وهذا لا يتناسب مع سياق الآيات التي سبقت هذه الآية، وهنا نجد السيّدَ الطباطبائيَّ يُحلل النص تحليلًا نصِّيًا مستفيدًا من ذيل الآية في توجيهها ويرى أنَّ الدلالة لا تحدد إلَّا وفق شرطين داخل النص وخارجه، فأما داخل النص فيتمثل في أنَّ المعنى لا يصل إلَّا في نطاق علاقات سياقية، وأما خارج النص فيتمثل في أنَّ هذا المعنى لا يصبح دلالة إلَّا عند ارتباطه بالإحالة ، ومن هنا فإنَّ الوظيفة الدلالية تتمُّ أفقيًا على مستوى علائقي سياقي، وعموديًا على مستوى مرجعي.

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء العكبري ،تحقيق غازي مختار طليمات :٣٩٤/١،

(٢) الميزان:٣١٩/١٦.

وإشعاعات السِّياق بصمة واضحة في تفسير الميزان يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان قولـه تعـالى :﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنبياء:٢٤] :(((هَاتُوا) اسم فعل بمعنى ائتوا به، والبرهان الدليل المفيد للعلم، والمراد بالذكر – على ما يستفاد من السِّياق – الكتاب المنزل من عند الله فالمراد بذكر من معي القرآن المنزل عليه الذي هو ذكر أمته إلى يوم القيامة وبذكر من قبلي كتب الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها، ويمكن أنْ يكون المراد به الوحي النازل عليه في القرآن وهو ذكر من معه (ﷺ) والوحي النازل على من قبله في أمر توحيد العبادة المنقول في القرآن فالمشار إليه بهذا هو ما في القرآن من الأمر بتوحيد العبادة النازل عليه و النازل على من تقدمه من الأنبياء (عليهم السلام)))[(١)].

يلحظ عند التأمل بهذا التحليل أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يركّز على المعنى السياقي للمفردة دون ذكر المعاني الآخر ليبقى النصُّ منسجمًا ويبقى السِّياق المحور الذي يُبنى عليه المفُسِّر انسجامه مقلبًا الآراء التي يحتضنها السِّياق ومبتعدًا عن الآراء التي لا تتناغم معه وهناك العديد من الأمثلة التي توضح أثر السَّياق اللغوي في ضبط متغايرات الدلالة التي يفرزها موقف لغويٌّ، ومنها قولـه تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[المؤمنون:١١٠] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ((:ضمائر الخطاب للكفار وضمائر الغيبة للمؤمنين والسِّياق يشهد أنَّ المراد من قول المؤمنين﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٩] وقولـه تعـالى:(حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى) أي: أنسى اشتغالكم بسخرية المؤمنين والضحك منهم (ذِكْرِى)،ففي نسبة الأنساء إلى المؤمنين دون سخريتهم إشارة إلى أنَّه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلَّا أنْ يتخذوهم سخريًا))[(٢)]، والسيّدُ الطباطبائيُّ هنا يحدد معنى كلمة (ذِكْرِى)عن طريق السِّياق الأصغر مستعينًا بالآية السابقة، ومن هنا يتضح أنَّ فهم النصِّ وتفسيره لا يتأتى لنا إلَّا بالرجوع إلى السِّياق ؛ لأنَّه يلعبُ دورًا كبيرًا في جلاء معنى النصِّ.

(١) الميزان : ١٤/٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٥/٧١-٧٢.

والسِّياق آلية من آليات الانسجام التي أشار اليها السيّدُ الطباطبائيُّ عند تفسيره قوله تعالى :﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤] ويعلق السيّدُ الطباطبائيُّ على ذلك: ((...والسِّياقُ يشهدُ أنَّ المرادَ بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلية التامة))[(١)].

إنَّ الذي يريده السيّدُ الطباطبائيُّ من الاقتضاء أنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء بنحو الاقتضاء لا العلية؛ لأنَّ العلية لا تنفك عن المعلول لو أُريد العلية ، فلذا قال أنَّه يقتضي ذلك النهي، ودلالةِ الاقتضاء ((دلالة اللفظ على مسكوت عنه يتوقف صدق الكلام عليه أو يستحيل فهمه عقلا إلَّا به أو يمتنع وجود الملفوظ شرعًا إلَّا به))[(٢)].

ويعدُّ مفهوم الاقتضاء من أهم المفاهيم الذي تقوم عليها التداولية حديثا ويمكن القول إنِّ طرح (جريس) له يقترب من معناه المستعمل به في أصول الفقه[(٣)]، ومن أهم مميزات الاقتضاء أنَّه يقدم تفسيرًا صريحًا لمقدرةِ المتكلمِ على أنْ يعيَ أكثر مما يقول بالفعل أي: أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة ويفسر كثيرًا من الامور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد[(٤)].

والسيّدُ الطباطبائيُّ لا تفوته الآراء المهمة لبعض المُفسِّرين يناقشها أحيانًا ويوضح مراد الآية ويُبين أنَّ أجوبة المُفسِّرين التي لا تلائم سياق الحكم والتعليل ،إنَّ الذي يُعطيه السِّياقَ الأمر بإقامة الصلاة يأتي لعللٍ وضَّحَها قوله تعالى:(إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ) [العنكبوت:٤]، ليفيد أنَّ الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة له عند الفحشاء والمنكر فتتنزه النفس عن الفحشاء والمنكر، وتتطهرُ عن قذارة الذنوب والآثام[(٥)].

---

(١) الميزان :١٤١/١٦.

(٢) السِّياق والنص الشعري: من البنية إلى القراءة:١٢٩.

(٣) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني ،د. عادل فاخوري: عالم الفكر ،ع٣، ١٩٨٩م:١٤١.

(٤) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني :١٤١.

(٥) يُنظر: الميزان:١٣٧/١٦-١٣٩.

ومن استعمالات السيّدُ الطباطبائيُّ للسِّياق اللغوي قوله :((إنَّ الظاهر من سِياق قوله تعالى:(وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ) [العنكبوت:٤] أنَّ قوله تعالى (وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ) متصل به مُبيّن لأثرٍ آخر للصلاة وهو أكبر مما بيّن قبلهِ فيقع قوله (وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ) موقع الإضراب والترقي ويكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكأنَّه قال: أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء والمنكر بل تقيده من ذكر الله الحاصل بها أكثر من ذلك))[(١)].

وللربط دلالة في النص ،فالربط اللغوي يحقق ترابط العناصر والربط الدلالي يعمل على تماسكها وترابطها المعنوي ،وهنا يُسْهِمُ الاضراب والترقي الذي أشار اليه السيّدُ الطباطبائيُّ في انسجام النص ، والسِّياق الأصغر أسهم مساهمة فعّالة في بيان الانسجام في النصِّ القرآني .

ومن الشواهد القرآنية على أثر السّياق اللغوي في بيان تماسك النص القرآني وانسجامه ما جاء في قوله تعالى :﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٢٢] يستحضر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية وتركيزه على انسجام النص القرآني عند تفسيره هذه الآية مطلعًا على آراء مَن سبقه من المُفسرين نجده أمينًا في نقله عن الزمخشري(ت٥٣٨هـ) ((وقد قال تعالى (ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ) وقال(وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ) فلم يأتِ بواو ثم قال سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ: فأتى بواو قال في الكشاف :وثلاثة خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلاثة، وكذلك خمسة وسبعة، رابعهم كلبهم جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم، فإنْ قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة؟ ولِمَ دخلت عليها دون الأولين؟ قلت : هي(**الواو**) التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالًا عن المعرفة... فائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أنَّ اتصافه بها أمر ثابت مستقر)) [(٢)].

---

(١) الميزان:١٦/١٤١.

(٢) الميزان :١٣/٢٦٥.والكشَّاف ،للزمخشري :٢/٦٨٤.

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله النصَّ ((وهذه **(الواو)** هي التي أذنت بأنَّ الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظّنِ كما غيرهم، والدليل عليه أنَّ الله سبحانه اتبع القولين الأولين قوله: **(رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ)**، واتبع القول الثالث قوله: **(مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ)**، وقال ابن عباس: حين وقعت الواو انقطعت العدة أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات)) [(١)]،ولم يذكر السيّدُ الطباطبائيُّ ردَّ أبي حيَّان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)على الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، الذي يذهب إلى أنَّ((الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة دالة على لصوق الصفة بالموصوف وعلى ثبوت اتصاله بها شيء لا يعرفه النحويون، بل قرروا أنَّه لا تعطف الصفة التي ليست بجملة على صفة أخرى إلَّا إذا اختلفت المعاني ، حتى يكون العطف دالًا على المغايرة ، وأما إذا لم يختلف فلا يجوز العطف هذا في الأسماء المفردة ، وأما الجمل التي تقع صفة فهي أبعد من أنْ يجوزَ ذلك فيها)) [(٢)].

ويظهرُ للباحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يرى أنَّ آراء الزمخشري أقرب إلى روح التفسير من آراء النحويين وخاصة الذين يتزمتون بالقاعدة النحوية، عِلمًا أنَّ الزمخشري علمٌ لا يُبارى في النحو والبلاغة.

ويستمرُ السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله النصي موضحاً انسجام النصِّ القرآني عن طريق السِّياق اللغوي الذي يُعدُّ أهم آلية من آلياته بقوله((ومع ذلك ففي الكلام دلالة على أنَّ بعض المخاطبين بخطاب النبي (ﷺ) ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢] كان على علم من ذلك فإنَّ قوله: **(مَّا يَعْلَمُهُمْ)** ولم يقل: لا يعلمهم يفيد نفي الحال فالاستثناء منه بقوله:(**إِلَّا قَلِيلٌ)** يفيد الإثبات في الحال واللّائح منه على الذهن أنَّهم من أهل الكتاب ،وبالجملة مفاد الكلام أنَّ الأقوال الثلاثة كانت محققة في عهد النبي(ﷺ)وعلى هذا فقوله(**سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ**)المفيد للاستقبال، وكذا قوله: **(وَيَقُولُونَ**)وقوله: **(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ)** إنْ كانا معطوفين على مدخول السين في(**سَيَقُولُونَ**) تفيد الاستقبال القريب بالنسبة إلى زمن نزول الآيات أو زمن

(١) الميزان :٢٦٥/١٣.

(٢) تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي:١١٥/٦

وقوع الحادثة))[١]، وتنبَّه السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الفرق بين النفي بـ (ما) والنفي بـ(لا) ،والفرق وفقًا لما يذكره النحاة (ما) تُخَلِّصُ المُضارِعَ للحالِ، و(لا) تُخَلِّصُهُ للاستقبالِ، وعلَى هذا الأكثرونَ، وخالفهم ابنُ مالكٍ [٢] ،((وهذا يتأتى عن إدراج النص ضمن إطاره السِّياقي ولا يكتمل إلَّا إذا اكتملت كلّ أبعاد النصِّ)) [٣].

ويستعين السيّدُ الطباطبائيُّ بالسِّياق الأصغر في تفسير قوله تعالى:﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٨-٣٩]، جاء في سياق الآيتين أنَّ يحيى (عليه السلام) كان (وَحَصُورًا)، والحَصْرُ لغةً: الحبس والمنع[٤].

وقد اختلف المُفسِّرون في دلالة هذا الوصف في ضوء المعنى اللغوي: قال بعضهم: الحصور هو الذي يكتم السر[٥]، وذهب ابو حيَّان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)إلى أنَّ الحصور هو الذي لا يأتي النساء [٦] ،وكل الآراء التي قيلت في معنى كلمة (وَحَصُورًا)،قيلت بناءً على معناها اللغوي دون التطرق إلى معناها السّياقيِّ، ويقول الفخر الرازي(ت٦٠٤هـ) حاكمًا على الأقوال المتقدمة بالفساد :((وذكر صفة النقصان في معرض المدح لا يجوز؛ لأنه على هذا لا يستحق ثوابًا ولا مدحًا)) [٧]

أمّا السيّدُ الطباطبائيُّ فقد أشار إلى المعنى السّياقي لرؤيته النصية الصائبة مبتعدًا عن عرض الآراء مكتفيًا بتعزيز رأيه بالسِّياق اللغوي بقوله:((والحصور هو

(١) الميزان:٣/٢٦٦

(٢) يُنظر: مغني اللبيب عن كُتب الأعاريب، ابن هشام الانصاري(ت٧٦١هـ) ،تحقيق بركات يوسف هبُّود :١/٣٦٣

(٣) قراءة في اللّسانيات النصيّة، جان ميشال آدم ،عرض خولة طالب الإبراهيمي، مجلة اللّغة والأدب، العدد ١٢، شعبان ١٤١٨ هـ، ديسمبر ١٩٩٧، معهد اللّغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر: ١١٨.

(٤) يُنظر: لسان العرب:٤/١٣٨-١٤٠،(حَصَرَ).

(٥) يُنظر: البحر المحيط :٢/٢٦٨.

(٦) يُنظر: المصدر نفسه:٢/٢٦٨.

(٧) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي :٨/ ٣٣.

الـذي لا يـأتي النسـاء والمـراد بـذلك فـي الآيـة بقرينـة السِّـياق الممتنـع عـن ذلـك للإعراض عن مشتهيات النفس زهدًا))[١] .

ويستعين السيّدُ الطباطبائيُّ بالسِّياق اللغوي لإيضاح النصِّ بشرط أنَّ هذا المعنى السياقي يقود إلى انسجام النصِّ القرآني دون الدخول في تقليب المعاني اللغوية الأُخر وإنما يأخذ من المعنى ما يخدم النصّ ويبقيه منسجمًا ،وقد أشار باحث معاصر إلى رأي مماثل لرأي السيّدِ الطباطبائيِّ ،لقد تضمن السِّياق في ثناياه ما يرجح هذا المعنى، فقد طلب زكريا (عليه السلام) من ربه ذرية طيبة، واستجاب الله تعالى له، ولا تكتمل هذه الصفة إذا كان صاحبها يحتمل صفة نقص، وقد جاءه الخبر عن طريق الملائكة وهو يصلي في المحراب، ولا يحسن أنْ يقالَ إنَّ الملائكة نقلت إليه هذا الخبر ـ وهو صفة النقص ـ وزكريا(عليه السلام) على هذه الحالة المباركة، وقد جاء في سياق الآية أيضاً (أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ)،وخاصة أنَّ هذه الصفة (وَحَصُورًا) جاءت في سياق صفات مدح وكمال، فيجب حملها على هذا الكمال، وإبقاء النص كله في سياق واحد [٢] .

ومن إشارات السيّدِ الطباطبائيِّ للسِّياق اللغوي ما جاء في تفسيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر:٧٠] يقول: ((الذي يعطيه سِياق الآيات التالية أنَّ المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه فالأنسب أنْ يكون المراد (بِٱلۡكِتَٰبِ) هو القرآن الكريم، وبقوله تعالى: (وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ) ما جاءت به الرسل (عليهم السلام) من عند الله من كتاب ودين فالوثنية منكرون للنبوة)) [٣].

وهذه الالتفاتة من السيّدِ الطباطبائيِّ تُبيّنُ وضوح الرؤية النصية، وفهمه التام؛ لأهمية الانسجام متخذًا السِّياق اللغوي وسيلة لتحقيق ذلك وهذا ما أكدته الدراسات الحديثة، يقول

---

(١) الميزان:٣/٢٠٥.

(٢) يُنظر: السِّياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني،د، زيد عمر عبد الله ، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢)،٨٣٧-٨٧٧: ٨٦٢.

(٣) الميزان:١٧/٣٥٠.

(أولمان) ــ وهو أحد السِّياقيين المحدثين ــ بأنَّه: ((لو روعي السِّياق بدقة وإطراد لأمكن التخلص من الكثير من الاقتباسات والترجمات والتفسيرات الكثيرة الخاطئة))[١].

ومن الشواهد الاخرى التي ذكرها السيّدُ الطباطبائيُّ للسِّياق اللغوي كلمة (**الزُّور**) في قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢]يقول مستنيراً برأي صاحب مجمع البيان: ((أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنَّه حق ...،فيشمل الكذب وكل لهو باطل كالغناء والفحش والخنا بوجه،... يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه منه))[٢]، ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ بإيضاحاته النصية موظفاً السِّياق اللغوي لهذه المهمة بقوله: ((إنْ كان المراد بالزُّور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان المراد اللهو الباطل كالغناء ونحوه كان مفعولا به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل، وذيل الآية يناسب ثاني المعنيين)) [٣] .

ويُرجح السيّدُ الطباطبائيُّ المعنى الثاني للزُّور معتمدًا السِّياق اللغوي مؤكدًا انسجام النص القرآني بأهم وسيلة من وسائله ،وإنَّ اختلاف طريقة استعمال اللفظة الواحدة في سِياقات مختلفة حتى تتولد لها في جو كل سِّياق دلالة تُغاير الدلالة التي تحققت لها في سِياق آخر، وهذا يتأتى من القرائن اللفظية الكاشفة التي ترافق اللفظة في السِّياقات ونعني بالسّياق اللغوي السِّياق الذي يستند في تحديد المعنى إلى عناصر لغوية[٤] .

والمعنى الأساس للكلمة لا يكون غالبًا هو المقصود من الكلمة وإنَّما قابلية الاستعمال للكلمة في اكثر من سِياق هو الذي يضفي عليها المعنى المقصود لها في كل وجه من وجوه الاستعمال ،وهو ما مال اليه (فندريس) ودعاه (المعنى المؤقت) نظرة منه إلى عدم استقرار السِّياقات اللغوية على حال ،بل هي متواصلة التبدلات مع الوقت وتبعا لها تتبدل

(١) دور الكلمة في اللغة: ٥١.

(٢) الميزان:١٥/ ٢٤٢ ،ومجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي :٢٨٣/٧.

(٣) الميزان:٢٤٢/١٥.

(٤) يُنظر: جدلية السِّياق والدلالة في اللغة العربية النص القرآني أنموذجاً ،د. سيروان عبد الزهرة الجنابي ،م . حيدر جبار عيدان، مركز دراسات الكوفة ، العدد التاسع ، ٢٠٠٨ م: ٤٢.

الدلالات توافقًا [١] ، وبذلك يكون((معنى الكلمة هو مجمل السِّياقات التي يمكن أنْ تنتمي اليها))[٢] .

يؤكدُ السيّدُ الطباطبائيُّ على أنَّ في بعض الآيات ضمائرَ متعددةً في سياقٍ واحدٍ ، وتحتمل في مرجعها أقوالًا متعددة فتوحيد مرجعها وإعادتها إلى شيء واحد أولى لانسجام النص، ومن ذلك عودة الضمائر في قوله تعالى :﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((وأمَّا إرجاع الضميرين إلى يوسف حتى يفيد أنَّ الشيطان أنسى يوسف ذكر الله سبحانه فتعلق بذيل غيره في نجاته من السجن فعوقب على ذلك فلبث في السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم وربما نسب إلى الرواية، فمما يخالف نص الكتاب فإن الله سبحانه نص على كونه (عليه السلام) من المخلصين ونص على أنَّ المخلصين لا سبيل للشيطان إليهم مضافا إلى ما أثنى الله عليه في هذه السورة، والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب فإنَّ ذلك من أعظم الجهل لكونه طمعاً فيما لا مطمع فيه بل إنَّما يوجب ترك الثقة بها والاعتماد عليها وليس في قوله تعالى(اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) ما يشعر بذلك البتة، على أنَّ قوله تعالى بعد آيتين: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[يوسف:٤٥]، قرينة صالحة على أنَّ الناسي هو الساقي دون يوسف)) [٣].

وللمُفسِّرين أقوالٌ في عودة الضمير في قوله (فَأَنسَاهُ) وقوله (رَبِّهِ): فقد ذهب بعضهم إلى((أنَّ الضميرين يعودان على يوسف (عليه السلام) ويكون المعنى: أنسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى، فلبث في السجن بضع سنين عقابًا له على سؤاله غير الله))[٤] ،وذكر بعض المفسرين((أنِّ الضميرين يعودان إلى ساقي الملك، ويكون المعنى: أنسى الشيطان الساقي أنَّ يذكر قصة يوسف للملك، ولهذا لبث يوسف في السجن بضع سنين)) [٥].

---

(١) يُنظر: اللغة (فندريس) :٢٣١-٢٣٢.

(٢) الالسنية علم اللغة الحديث، د. ميشال زكريا: ٢١١.

(٣) الميزان:١١/١٨٥.

(٤) التفسير الكبير:١٨/١١٧،وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي :١٢/٢٤٨.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن غالب ابن عطية الأندلسي:٧/٥١٧.

ويركّزُ السيّدُ الطباطبائيُّ على رؤيته النصية وتتبعه السِّياق اللغوي الذي استند إليه في بيان انسجام النص وتحديده الإحالة النصية في عودة الضميرين إلى الساقي تعد قراءة سياقية بامتياز جاهر بها أحد السِّياقين المعاصرين بعد اعتماده النظريِّةَ السِّياقيةَ الغربيةَ قائلًا : ((إنَّ سِياق الآيات يشهد للمعنى الثاني؛ فإنَّ الاتفاقَ قائمٌ على أنَّ مرجعَ الضمير في قوله (عِندَ رَبِّكَ) يرجع للساقي، فكان المناسب للسِّياق أنْ يكون ما بعده (فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ) [يوسف: ٤٢]عائدًا على الساقي؛ حتى لا تتفرق الضمائر))[(١)]، جاء في سياق القصة قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) [يوسف:٤٥] وهذا شاهد قوي على أنَّ الذي نسي، ثم ذكر بعد عدة سنوات هو الساقي، وبهذا التوجيه ينتظم السِّياق؛ وإنَّ هذا التوجيه نسب إلى الساقي، وأليق بحال يوسف(عليه السلام)، وأقرب إلى شخصية الساقي[(٢)]، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الضميرين يعودان على يوسف والساقي في آنٍ واحد [(٣)].

ومن مواضع توظيف السِّياق اللغوي عنده ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦]، يقول:(((إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ) بدل أو عطف بيان لقوله (أَبَوَيْكَ) وفائدة هذا السِّياق الإشعار بكون النعمة مستمرة موروثة في بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث أتمها الله على إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) وسائر آل يعقوب(عليهم السلام)))[(٤)].

ويؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ ترتيب الكلمات داخل السِّياق لغرض فهم المعنى ، وأغراض الكلام التي تكشف لنا عن جانب مهم من موقف المتكلم ؛ولذلك يؤكد الباحثون((أنَّ التركيب تختبئ في خصائصه وأحواله إشارات ودلالات مختلفة ، وإنَّ السِّياق هو الذي يستخرج من هذه الخصائص مقتضياته ، وكأنَّ التركيب النفيس أشبه بقطعة من معدن نفيس تعطي ألوانا كثيرة كلما أدرتها إدارة جديدة ، والسِّياق هو القوة التي تحرك هذه القطعة لتشع من ألوانه ما

(١) السِّياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني ، د زيد عُمر عبد الله: ٨٧٧

(٢) يُنظر: المصدر نفسه : ٨٧٢.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور :٢٧٨/١٢.

(٤) الميزان : ٨٥/١١.

يراد إشعاعه))[١]، فالسِّياق اللغوي يمثل شبكة من العلاقات النحوية تقوم كل علاقة فيها عند وضوحها على إضاءة المعنى، وقد يعول وضوح المعنى أو إنتاج الدلالة على التآخي والتضافر بين قرائن متعددة تلك هي قرائن السِّياق اللغوي.

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[يوسف:٤٩] معتمدًا السِّياق اللغوي ، في تحديد دلالة الفعل (يُغَاثُ)((يقال: غاثه الله وأغاثه أي: نصره، ويغيثه بفتح الياء وضمها أي: ينصره وهو من الغوث بمعنى النصرة وغاثهم الله يغيثهم من الغيث وهو المطر، فقوله (فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ) إنْ كان من الغوث كان معناه: ينصرون فيه من قبل الله سبحانه بكشف الكربة ورفع الجدب والمجاعة وإنزال النعمة والبركة، وإن كان من الغيث كان معناه: يمطرون فيرتفع الجدب من بينهم، وهذا المعنى الثاني أنسب بالنظر إلى قوله بعده: (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) ولا يصغى إلى قول من يدعي: أنَّ المعنى الأول هو المتبادر من سِياق الآية إلَّا على قراءة (يَعْصِرُونَ) بالبناء للمجهول ومعناه يمطرون)) [٢].

وقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ولا يصغى إلى قول من يدعي: أنَّ المعنى الأول هو المتبادر من سِياق الآية يردُّ هنا على صاحب المنار، والمقصود بالتبادر هو انسياب المعنى إلى الذهن مباشرة عند قراءة اللفظ أو سماعه، والسيّدُ الطباطبائيُّ يؤكد أهمية دلالة اللفظة المقصودة ومناسبتها لسابقاتها ولاحقاتها، وهو يرجح دلالة على أخرى؛ لأنَّه يرى الدلالة الراجحة آثر ملائمة للسِّياق، وأدلُّ على المعنى فهو يجعل السِّياق مدخلًا لفهم المعنى((لأنَّه يكشف عن نسق المعاني ويحدد أجزاءها ويربط جملة بجملة ثم يربط الجملتين أو الجمل بما قبلها))[٣] ،والسيّدُ الطباطبائيُّ يحاول أنَّ يضع يده على جمالية النظم القرآني وسر كماله بالوقوف على سياقات الآيات وما تؤشر من أفكار، وتومئ إليه من معانٍ.

وبعد تقليب الآراء ومناقشتها وخاصة مناقشته صاحب المنار يصل السيّدُ الطباطبائيُّ إلى نتيجة تنسجم مع معطيات النص مستفيدًا من سياق الآيات السابقة وسياق الآية نفسها

(١) النحو والدلالة، د . محمد حماسه عبداللطيف:١١٣.

(٢) الميزان :١١/١٩٤ـ١٩٣ ،ومفردات ألفاظ القرآن:٦١٧.

(٣) الدلالة القرآنية في فكر محمد حسين الطباطبائي(الميزان نموذجًا) :١٣٨.

لتوضيح النص واظهار انسجامه بقوله ((ومما تقدم يظهر أيضا أنَّ الأنسب أنْ يكون المراد بقوله: (يُغَاثُ) وقوله: (يَعْصِرُونَ) الإمطار أو إعشاب الكلاء وحلب المواشي لأنَّ ذلك هو المناسب لما رآه في منامه من البقرات السبع سمانًا وعجافًا فإنَّ هذا هو المعهود، ومنه يظهر وجه تخصيص الغيث والعصر بالذكر في هذه الآية، والله أعلم)) (١)

يركز السيّدُ الطباطبائيُّ على الدور السياقي في ترابط المفردات دون إغفال دور الترابط النحوي وهو على دراية تامة، وقد بدا أنَّ الدور الترابطي في الوسائل النحوية المحققة للانسجام ذات جذور نحوية نظامية ، ومن ثَمَّ يمكن أنْ تعدَّ ظواهر سابقة للنصِّ بها يحقق الاتساق والترابط فيه أمّا الدّور الترابطي في الوحدات المعجمية فإنَّه أمر لاحق لنشأة النص وناتج عنه ،وبالتالي إذا كان من الصحيح أنْ يقال إنَّ اتساقَ النصِّ يحتاج إلى الروابط النحوية لقيامه عليها ،فإنَّه ليس أقل صحة أنْ يقال إنّ الوحدات المعجمية في حاجة إلى النصِّ ليتحدد معناها السِّياقي النصِّي فيه(٢).

ومن الشواهد على دور السِّياق اللغوي في انسجام النصِّ القرآني من وجهة نظر السيّدُ الطباطبائيُّ قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة:٦٠] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية: (فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ)وهي ثمانية، وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية ولازمه أنْ يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر)) (٣) .

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الاختلاف بين معنى المسكين والفقير بقوله:((وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثاني في معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهي أكثرها إلى حجة بينة، والذي يعطيه ظاهر لفظهما أنَّ الفقير هو الذي اتصف بالعدم وفقدان ما يرفع حوائجه الحيوية من المال قبال الغني الذي اتصف بالغنى وهو الجدة واليسار، وأما المسكين فهو الذي حلت به المسكنة والذلة مضافة إلى فقدان المال وذلك إنما

(١) الميزان:١١/١٩٧

(٢) يُنظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحويّة العربية:١/١٤٢-١٤٣ .

(٣) الميزان :٩/٣٢١.

يكون بأنَّ يصل فقره إلى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بدا من أن يبذل ماء وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر وكالأعمى والأعرج فالمسكين أسوأ حالًا من الفقير)) [١].

ويشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى أنَّ اختلاف سياق العد بقوله:((وقد اختلف سياق العد فيما ذكر في الآية من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأول باللام: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ ﴾ ثم غير السِّياق في الأربعة الباقية فقيل: ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة:٦٠] فإن ظاهر السِّياق الخاص بهذه الأربعة أنَّ التقدير: وفي الرقاب وفي الغارمين وفي سبيل الله وفي ابن السبيل، أما الأربعة الأول: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ ﴾ فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فإنَّ الآية بحسب السِّياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها وكانوا يَلمزون النبي(ﷺ) في حرمانهم منها فأجيبوا بالآية أنَّ للصدقات مواضع خاصة تصرف فيها ولا تتعداها، والآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص))[٢].

ويرد السيّدُ الطباطبائيُّ على رأي الزمخشري الذي يقول فيه: ((لِمَ عُدل عن (اللام) في الأربعة الأخيرة إلى (في) للإيذان بأنَّهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأنَّ (في) للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأنَّ توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبًا، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق والأسر، وفي فك الغارمين من الغرم والتخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير (في) في قوله: (وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ) فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين)) [٣].

(١) الميزان:٩/٣٢٢.

(٢) تفسير الكشَّاف:٢/٢٧٤-٢٧٥، ويُنظر الميزان:٩/٣٢٣

(٣) الميزان:٩/٣٢٣

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في تفنيد هذا الرأي ((وفيه أنَّه معارض بكون الأربعة الأول مدخولة للام الملك فإنَّ المملوك أشدُّ لزومًا واتصالًا بالنسبة إلى مالكه من المظروف بالنسبة إلى ظرفه، وهو ظاهر)) [(١)]، ويظهر للباحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يُثبت انسجام النص القرآني من خلال آلية السَّياق الاصغر مناقشًا الزمخشري في رأيه اللغوي مفندًا ذلك رغم تبنيه كثيرًا من آرائه اللغوية .

إنَّ التتابع الدلالي الإسنادي من أبرز العلاقات السياقية التي تكوّن عالم النص، وتتحكّم بأهدافه، فتعمل على سَلْسلتها بأسلوب مترابط متماسك، وتتراءى هذه العلاقات عبر البنية النصية عن طريق ربط جزأي التركيب بعضهما ببعض من جهة ، وربط سلسلة التراكيب النصية بعضها ببعض؛ كونها تدور حول فكرة محوريّة أو دلالة كلية واحدة وثابتة من جهة أخرى ؛ ذلك أنَّ اشتراك التراكيب الإسنادية في المحور الدلالي الثابت هو من أسمى علاقات الربط؛ إذ يعكس الإمكانات الذهنية التنظيمية داخل النص[(٢)].

يُشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الانسجام النصي عند تحليله قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٦١] ((الأذن جارحة السمع المعروفة، وقد أطلقوا عليه (ﷺ)وسموه بها إشارة إلى أنه يصغي لكل ما قيل له ويستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن))[(٣)].

ويحلل السيّدُ الطباطبائيُّ تحليلًا نصيًا ((قوله : (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ) من الإضافة الحقيقية أي سَمَّاع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم،

(١) الميزان :٩/٣٢٣.

(٢) يُنظر: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرت الرابع الهجري ،د.صلاح الدين زرال:٣٣٥.

(٣) الميزان : ٩/ ٣٢٤-٣٢٥.

ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن أنْ يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أي أذن هي خير لكم لأنَّه لا يسمع إلَّا ما ينفعكم ولا يضركم)) [١].

ودرس السيّدُ الطباطبائيُّ الوجه الثاني؛ لأنه الأقرب إلى السِّياق الذي يقود لإنسجام النص القرآني ((والفرق بين الوجهين أنَّ اللازم على الأول أنْ يكون مسموعه خيرًا لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين، واللازم على الثاني أنْ يكون استماعه استماع خير وإنْ لم يكن مسموعه خيرًا كأنْ يستمعَ إلى بعض ما ليس خيرًا لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر، ومن هنا يظهر أنَّ الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنَّ الإيمان هو التصديق، وقد ذكر متعلق الإيمان في قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وأما قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يذكر متعلقه وإنَّما ذكر أنَّ هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام، والتصديق الذي يكون فيه نفع المؤمنين حتى في الخبر الذي يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبري دون الخبري أي فرض أنَّ المخبر صادق بمعنى أنَّه معتقد بصدق خبره وإنْ كان كاذبًا لا يطابق الواقع)) [٢]. ومع أهمية السِّياق الاصغر إلَّا أنَّه غير كافٍ في الرؤية الكلية للمعنى وترابط دلالاته في النص ((وهذا ما يدعونا إلى أنْ نلتزمَ مفهوم كلية النصِّ بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة فيما يسمى بالتتابع أو التوالي الجملي للنصَّ، فإذا كان التوجه إلى الحكم على الدلالة الجزئية في جمل مفردة معزولة عن سياقها ممكنًا ومقبولًا، فإنَّ النصَّ لا يجيز وجودًا مستقلًا تركيبيًا أو دلالة لعناصره حيث لا

(١) الميزان : ٩/ ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه : ٩/٣٢٥.

تكون القيم الجزئية ذات اعتبار كبير إلَّا باشتراكها في القيم الكبرى التي تشكل البنية الكلية للنص)) [١].

وإنَّ دلالة السِّياق الاصغر بمفردها لا تقدم سوى القليل بالنسبة لما يقدمه النصُّ فهي ((لا تحقق ترابط النصُّ ، من جهة أنَّه سلسلة متابعة من الجمل يكون بينها ترابط دلالي)) [٢]، ومن ثَم فنحن بنا حاجة أيضًا إلى الانتباه إلى السِّياق الأكبر وهو سياق النصِّ الأكبر، ليتحقق التكامل في فهم المعنى القرآني.

٢- السِّياق الأكبر:

السِّياق الأكبر هو النسق الذي يتعلق بالنص بأكمله ذلك أنَّ الجملة في النصِّ لا تُفهم في حد ذاتها حسب، وإنما تُسهم الجمل الأخريات في فهمها، وهذا يبين أنَّ الجملة ليست وحدها التركيب الذي نحدد به المعنى، إنما نحدد المعنى أساسًا من خلال النصِّ الكلي الذي تتضامن أجزاؤه وتتآزر [٣].

أعطى السيّدُ الطباطبائيُّ أهميةً خاصةً (لنظرية السِّياق) في معرفةِ معاني آيات القرآن الكريم التي نزلت في مكة ومعاني الآيات التي نزلت في المدينة،ويؤيد ذلك نظرته الثاقبة عند سورة النحل حين ورد قوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل:١-٥]، يقول:((إنَّ صدر السورة مما نزلت في أواخر عهد النبي (ﷺ) بمكة قُبيل الهجرة، وهي أربعون آيةً يذكر الله سبحانه في شطر منها أنواع نِعَمِه السماوية والأرضية مما تقوم به حياة الإنسان وينتفع به في معاشه نظامًا متقنًا وتدبيرًا متصلًا يدل على وحدانيته تعالى في ربوبيته، وقد افتتح سبحانه هذه الآيات بقوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل:١]

(١) ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي، د. سعيد حسن البحيري:٢٤٠.

(٢) نحو النصِّ في ضوء التحليل اللساني للخطاب، مصطفى النحاس:٩.

(٣) يُنظر:علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) د. سعيد حسن البحيري :١٤٠.

... ،مُفرّعًا آيات الاحتجاج على ما فيه من التنزيه والتسبيح ومن ذلك يعلم أنَّ عمدةَ الغرضِ في صدر السورة الإنباء بإشراف الأمر الإلهي، ودنوه منهم ،وقرب نزوله عليهم، وفيه إبعاد للمشركين فقد كانوا يستعجلون النبي(ﷺ) – استهزاء به – لما كانوا يسمعون كلام الله سبحانه يذكر كثيرا نزول أمره تعالى وينذرهم به وفيه مثل قوله للمؤمنين: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾[البقرة:١٠٩] وليس إلَّا أمره تعالى بظهور الحق على الباطل والتوحيد على الشرك والإيمان على الكفر، هذا ما يعطيه التدبر في صدر السورة))[(١)].

والغرض عند السيّدِ الطباطبائيِّ يماثل البنية الكبرى ويقصد به البنية التجريدية الكامنة التي تمثل منطق النص ،وقد استعان السيّدُ الطباطبائيُّ بالسِّياق الأكبر الذي يكون هو خارج اللفظ المراد تفسيره ، ويبتعد عنه فيكون من السورة نفسها أو من سور أُخريات لكنه يرتبط معه دلاليًا ، والسِّياق الأكبر من الآليات التي تساعد في انسجام النص ،والانتباه إلى السِّياق الأكبر أو الكلي للنص يحقق لنا الكثير من الدلالات المهمة منها بيان دقيق أو تخصيص نص مطلق أو تبيان ما أشكل فيه الغرض والقصد.

وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى التفريع في بيان غرض السورة والمقصود بالتفريع وهو نوع من الربط بين صورتين من صور المعلومات في علاقة تدرج أي: أنَّ تحقّقَ أحدهما يتوقف على حدوث الأخرى، وبذلك يمكن النظر إلى الروابط التفريعية أنها عُرى لعلاقات مفهومية[(٢)].

ويشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى أنَّ عمدةَ الغرضِ الإنباء بإشراف الأمر الإلهي ودنوه من المشركين معتمدًا على نظمِ الآيةِ وسياقِها؛ لأنَّ ما ورد في ختامِها دال على أنَّ الأمرَ منصرف إلى العذاب والهلاك ،والسِّياق بقرائنه اللفظية يقوم بتحديد الألفاظ وتوضيح معانيها النهائية، خاصة في القرآن الكريم((فالكلمات في التركيب تكتسب قيمتها من مقابلتها لما يسبقها أو يلحقها من كلمات))[(٣)].

---

(١) الميزان:١٢/٢٠١.

(٢) يُنظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والاجراء:٦١ –٦٢.

(٣) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب:٢٣٠.

ويضيفُ السيّدُ الطباطبائيُّ لتوضيح نظرته السّياقية قائلًا:((وأمَّا ذيلها وهي ثمان وثمانون آية من قوله:﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ﴾[النحل:٤١]إلى آخر السورة على ما بينها من الاتصال والارتباط فسياق الآيات فيه يشبه أنْ تكون مما نزلت في أوائل عهد النبي (ﷺ) بالمدينة بعيد الهجرة ـ فصدر السورة وذيلها متقاربا النزول ـ وذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلَّا على بعض الحوادث الواقعة بُعَيْد الهجرة كقوله تعالى:(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ) [النحل:٤١] وقوله:﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ ﴾ [النحل:١٠٣]النازلة على قول في سلمان الفارسي وقد آمن بالمدينة، وقوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ ﴾ [النحل:١٠٦]النازلة في عمار....، وكذا الآيات النازلة في اليهود والآيات النازلة في الأحكام كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنية))[(١)].

وإنِّ إشارات السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الاتصال والارتباط تماثل الترابط النصي عند المحدثين ، وتعدُّ من أهم الظواهر التي تتجاوز إطار الجملة المفردة ،التي تقوم على التصور الذي يجمع عناصر نحوية تقليدية مع عناصر مستقاة من علوم متداخلة مع النحو، فالربط النحوي يقوم على فهم كلِّ جملةٍ في النص من خلال فهم الجمل الاخرى، ومن العوامل التي تحقق الترابط في المستوى السطحي ما يعرف بالمؤثرات اللغوية مثل علامات العطف والوصل والفصل وأسماء الاشارة وغيرها، فلها وظيفة مشتركة تتمثل في إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواه الخطي وهذا يقودنا إلى الانسجام الذي يعني الوحدة والاستمرار والتشابك فيقوم على انسجام في البنية العميقة التي تعتمد بعض المفاهيم في اكتشافها[(٣)].

وما يتعلق بمعرفة المكي والمدني، فقد ذهب الكثيرون من أهل التفسير إلى القول بأنَّ السبيل الوحيد إلى ذلك هو ما ورد عن الصحابة في ذلك[(٤)].

وهذا الرأي يرى فيه السيّدُ الطباطبائيُّ مزيدًا من التحير والمتاهة لما هي عليه الروايات من تعارض فيما بينها، وأكد أنَّ الطريق المتعين للتحقق من ذلك هو

(١) الميزان:١٢/٢٠٢.

(٢) يُنظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والاجراء:٥٨.

(٣) يُنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني:١/١٩٦.

التدبر في سياق الآيات، والاعتماد على الروايات القطعية لمعرفة ذلك، دون أنْ يعني ذلك مجانبة العقل والاجتهاد، كونه من غيرِ الممكنِ تفسير أي آية من دون الاستعانة بالبراهين العقلية، وسند حجيّة هذا العقل هو القرآن الكريم، لكون القرآن الكريم نفسه يُقيم الأدلة القاطعة لبيان المعارف الإلهية(١).

إنَّ أهم مقياس وضعه السيّدُ الطباطبائيُّ للعلم بالمكي والمدني هو السِّياق القرآني، بحيث يتم التعرف بأنَّ مضامين هذه الآية أو تلك تناسب ما كان عليه الحال في مكة، فتكون مكية، أو تناسب ما كان عليه الحال في المدينة، فتكون مدنية.

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[النحل:٤١]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:١٠١] إلى تمام آيتين أو خمس آيات، وقوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل ١٠٦] وعدة آيات تتلوها ، وقوله تعالى﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٦-١٢٨] ((ومع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها مدنية...، لشهادة سياقها بذلك، والباقي أشبه بالمكية منها بالمدنية، وهذا وإنْ لم يوافق شيئا من المأثور لكن السِّياق يشهد به وهو أولى بالإتباع))(٢).

(١) يُنظر: أُسس الفلسفة والمذهب الواقعي ،السيّد الطباطبائيّ ،تعريب محمد الخاقاني:٢ /٥٢.

(٢) الميزان:١٢/٢٠٢.

وبذلك يُثبت السيّدُ الطباطبائيُّ دور السِّياق اللغوي في تحقيق الانسجام النصي، فتكون بالنهاية وحدة منسجمة، وإنَّ انسجام النص مبدأ كلي إنْ لم يَبْنِ نفسه فإنه علينا أن نبنيه(١).

وفي ضوء ذلك يحدد السيّدُ الطباطبائيُّ نقطة في غاية الأهمية ألَا وهي أنَّ السِّياق هو المقدّم وإنْ خالف المأثور من الروايات ، وأنَّه يقدر العقل ويرى له الدور الكبير في الكشف عن الحقائق والمعارف القرآنية، وإذا كان له موقف سلبي من منهج التفسير العقلي الذي اعتمده الفلاسفة، فهو لم يتخذ موقفه من العقل وإنَّما من طريقة اعتماده، على اعتبار أنَّ الفلاسفة ومعهم المعتزلة قد حملوا ما لديهم من أفكار وقبليات فلسفية على الآيات، وهذا ما رأى فيه السيّدُ الطباطبائيُّ خروجًا عن العقل الذي يحترمه القرآن الكريم(٢).

وبعد أنْ أثبت أنَّ الجزءَ الأول منها (٤٠آية) مكية وباقي الآيات مدينة معتمدًا السِّياق اللغوي في تحديد ذلك دون الالتفات إلى الروايات، عاد ليُبينَ دور السِّياق اللغوي في انسجام النصِّ بتحليلاته النصيّة مناقشًا الآراء التي قيلت في تفسير الآيات((وإليه يعود أيضا ضمير (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) على ما يفيده السِّياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق وقربه من الظهور، وهذا شائع في الكلام يقال لمن ينتظر ورود الامير: هذا الامير جاء وقد دنا مجيئه ولم يجيء بعد)) (٣)

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ ((وعلى هذا أيضا يكون قوله: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) من قبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشارة إلى أنَّهم ينبغي أنْ يعرضَ عن مخاطبتهم ومشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم ولم يستعجلوا نزول الأمر إلَّا لشركهم استهزاء وسخرية))(٤) .

(١) يُنظر: دينامية النص:٧٠.

(٢) يُنظر: علوم القرآن عند العلامة آية الله السيد محمد حسين الطباطبائيِّ (دراسة مقارنة): ٥١ .

(٣) الميزان:٢٠٣/١٢.

(٤) المصدر نفسه:٢٠٣/١٢.

ويـردُّ السـيّدُ الطباطبـائيُّ علـى مَـن يـذهب مـن المُفسِّـرين إلـى أنَّ الضـمير فـي قولـه تعـالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ يعـود علـى المـؤمنين أيضًـا بقولـه:((ينـدفع مـا ذكـره بعضـهم أنَّ الخطـاب فـي الآيـة للمـؤمنين أو للمـؤمنين والمشـركين جميعـا فـإنَّ السِّـياق لا يلائمه)) [(١)].

اسـتعان السـيّدُ الطباطبـائيُّ بالسِّـياقِ اللغـويِّ لتعـين معـاني بعـض الألفـاظ الـواردة فـي قولـه تعـالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يـونس:٣٧] يقـول السـيّدُ الطباطبـائيُّ:((نفـي لشـأنية الإفتـراء عـن القـرآن كمـا قيـل وهـو أبلـغ مـن نفـي فعليتـه، والمعنـى لـيس مـن شـأن هـذا القـرآن ولا فـي صـلاحيته أنْ يكـون افتـراء مـن دون الله يفتريـه علـى الله تعـالى، فهنـاك فـرق بـين أنْ تقـولَ: مـا كـان زيـد ليقـوم، وأنْ تقـولَ: لـم يقـم أو مـا قـام زيـد، إذ الأول يـدل علـى أنَّ القيـامَ لـم يكـن مـن شـأن زيـد ولا اسـتعدَّ لـه اسـتعدادًا، والثـاني ينفـي القيـام عنـه فحسـب، وفـي القـرآن مثلـه كثيـر، كقولـه تعـالى:﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يـونس:٧٤] وقولـه:﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشـورى: ٥٢] ، وقولـه تعـالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبـوت:٤٠]))[(٢)]، فالسِّـياق يرشـد إلـى الشـأنية ولـيس إلـى الفعليـة وهـذا قلمـا التفـت إليـه أحـد مـن المُفسِّـرين ، مـا يجعـل للسـيّد الطباطبـائيّ الفـرادة فـي اسـتفادة المعنـى الحقيقـي للآيـة مـن خـلال السِّـياقِ اللغويِّ، سواء من خلال الارتباط الحاصل بين الألفاظ، أو العبارات، أو الجمل[(٣)].

وفـي قولـه تعـالى:﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]

(١) الميزان:١٢/٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه:١٠/٦٠.

(٣) يُنظر:علوم القرآن عند العلامة آية الله السيد محمد حسين الطباطبائيِّ (دراسة مقارنة):٣٧.

واختلف المُفسِّرون في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾، قال بعضهم: أصلح الله تعالى خُلُقَها ودينها ؛ لأنَّها كانت سيئة الخُلُق[١].

وقال بعضهم: أصلح الله لها لسانها؛ لأنَّها كانت بذيئة الكلام[٢]،ويستنطق السيّدُ الطباطبائيُّ السِّياق اللغويَّ دون الدخول في عرض آراء المُفسِّرين مرشحًا المعنى السِّياقي وعارضًا عن مناقشة بعض الآراء التي يراها غير سديدة مستنيرًا بمنهج تفسير القرآن بالقرآن فيقول : ((ظاهر الكلام أنَّ المرادَ بإصلاح زوجه أي: زوج زكريا له جعلها شابة ولوداً بعد ما كانت عاقراً كما يصرح به في دعائه﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم:٨]وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠] ظاهر السِّياق أنَّ ضمير الجمع لبيت زكريا، وكأنَّه تعليل لمقدر معلوم من سابق الكلام والتقدير نحو من قولنا: أنعمنا عليهم لأنَّهم كانوا يسارعون في الخيرات،... والمعنى أنعمنا عليهم لأنَّهم كانوا يسارعون في الخيرات من الأعمال ويدعوننا رغبة في رحمتنا أو ثوابنا رهبة من غضبنا أو عقابنا أو يدعوننا راغبين راهبين وكانوا لنا خاشعين بقلوبهم))[٣].

والسِّياق نفسه قد تضمن المدح ومن ثُمَّ لا يستقيم هذا مع القول بأنَّها كانت سيئة الخُلُق بذيئة اللسان ،ولا شك أنَّ في زوج زكريا داخلة ضمن هؤلاء الذين دلَّ السِّياق على أنَّهم كانوا على خير صلاح قبل الدعوة، والاستجابة لها ، ففي القرآن نظام لغوي فريد ، يختار اللفظ بحسب مقتضيات السِّياق ويؤثر في اللغة بحسب البناء السِّياقي الذي يغلب على نسق الآيات العام والخاص[٤].

ومن الشواهد الأُخريات تفسيره قوله تعالى :﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي(ت٦٧١هـ):٣٣٦/١١، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن(ت٧٤١هـ):٢٧٥/٣.

(٢) يُنظر: التفسير الكبير :٢٣٦/٢١، وفتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي:٣٦٨/٤ ،

(٣) الميزان:٣١٧/١٤.

(٤) السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني : ٨٧١ .

[الكهف:٢٣، ٢٤] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ : ((اتصال الآية واشتراكها مع ما قبلها في سياق التكليف يقضي أنْ يكون المراد من النسيان نسيان الاستثناء، وعليه يكون المراد من ذكر ربه ذكره بمقامه الذي كان الالتفات إليه الموجب للاستثناء ،وهو أنَّه القائم على كلِّ نفس بما كسبت الذي ملكه الفعل وأقدره عليه وهو المالك لما ملكه، والقادر على ما عليه أقدره والمعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت أنَّك نسيته فاذكر ربك متى كان ذلك بما لو كنت ذاكرًا لذكرته به وهو تسليم الملك والقدرة إليه وتقييد الأفعال بإذنه ومشيته))[١] .

فالسِّياق ـ هنا ـ هو الذي حدَّدَ المعنى ، خرج لفظة(النسيان) عن معنى النسيان المطلق إلى نسيان الاستثناء ،وكذلك لفظة(الذكر) من ذكر ربه ذكره بمقامه الذي كان الالتفات إليه الموجب للاستثناء، وينكرُ السيّدُ الطباطبائيُّ الآراء التي قيلت في أنَّ الآية مستقلة عما قبلها إلى أنَّ المراد بالنسيان نسيانه تعالى أو مطلق النسيان ، مستفيدًا من السِّياق اللغوي في ربط الآية بالآية التي قبلها ، ويرى أنَّ السِّياق يؤيد الذي ذكره متعجبًا من آراء بعض المُفسِّرين التي رآها غير سديدة .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣]يقول:((حديث الاتصال والاشتراك في سياق التكليف بين جمل الآية يقضي هنا أيضًا أنْ تكون الإشارة بقوله (هَٰذَا)إلى الذكر بعد النسيان ، والمعنى وارج أنْ يهديك ربك إلى أمر هو أقرب رشدًا من النسيان ثُمَ الذكر وهو الذكر الدائم من غير نسيان فيكون من قبيل الآيات الداعية له (ﷺ) إلى دوام الذكر كقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]))[٢].

ويصل السيّدُ الطباطبائيُّ إلى انسجام النص عن طريق السِّياق اللغوي مستفيدًا من توظيف السِّياق الأكبر لاستجلاء المعنى المطلوب، وبذلك يُعدّ التتابع الدلالي الإسنادي من أبرز العلاقات السِّياقية التي تكوّن عالم النص، وتتحكّم بأهدافه، فتعمل على سَلْسلتها بأسلوب مترابط متماسك، وتتراءى هذه العلاقات عبر البنية النصية عن طريق ربط جزأي

(١) الميزان :١٣/٢٧١.

(٢) المصدر نفسه:١٣/٢٧١

التركيب بعضهما ببعض من جهة ، وربط سلسلة التراكيب النصية بعضها ببعض؛ كونها تدور حول فكرة محوريّة أو دلالة كلية واحدة وثابتة من جهة أخرى [١] .

لقد اعتمد السيّدُ الطباطبائيُّ منهج تفسير القرآن بالقرآن في تفسيره ،وجعله قاعدته الأساس، وعدَّه من وسائل إثبات أنَّ القرآن كُلهُ كالسورة الواحدة مترابط المعنى ، وإنْ تباعدت أجزاؤه من ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى :﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]إذ يرى المُفسر ((أنَّ المراد بالحجارة في قوله تعالى (وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ) الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ويستشهد بقوله تعالى:﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨]))[٢].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ بتحليلاته النصية مشيرًا إلى المعنى المعجمي ودور السِّياق في أحلال اللفظ الاقرب إلى انسجام النص بقوله: ((وإنَّ الوقود ما توقد به النار وقد نصت الآية على أنَّه نفس الإنسان فالإنسان وقود موقود عليه كما في قوله تعالى :﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢] وقوله تعالى:﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة:٦-٧] ، فالإنسان معذَّب بنار توقده نفسه)) [٣]،وهذا الارتباط المتناسق بين السور كما هو بين الآيات، في السورة الواحدة، ويكون حتى بين أحرف الكلمة الواحدة ((نجد في تراكيب حروف الآيات وتآلفها، تناسقًا عجيبًا وتناسبًا وطيدًا شديدًا، كتناسق الآيات وتناسبها وترابط السور وانسجامها وتكاملها))[٤].

ويظهر أثر السِّياق اللغوي جليًا في الآيات التي تحتمل أكثر من معنى، وربما كان بعض المعاني أقرب إلى الصواب من بعضها الآخر، وليس ثَمَّ دليل في سياقها الخارجي من آية أخرى، أو حديث، أو إجماع يُستند إليه في اختيار واحد منها، فيُحسن بهذه الحالة أنْ يتوجه إلى السِّياق اللغوي بغية استنطاقه بما يتضمنه من إشارات ترجح معنى على آخر،

---

(١) يُنظر: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري :٤٣٢

(٢) الميزان :٢٧١/١٣..

(٣) يُنظر: المصدر نفسه:٩٢/١.

(٤) علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات:١٣٤

ينبغي أخذها بالحسبان؛ لأنَّه ((إذا احتمل الكلام معنيين، وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسِّياق؛ كان الحمل عليه أولى)) [١].

واستند السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الانسجام في الترجيح والموازنة بين الأقوال وآراء السابقين وفي الوقت نفسه اعتمده أساسًا في قبول الروايات ورفضها ،ومن الانسجام الذي عُني به السيّدُ الطباطبائيُّ بآلية السِّياق اللغوي ما جاء في تفسير قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠]، وقوله تعالى(وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ) يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان الانسجام:((الآية في نفسها عامة ومستقلة لكنها بحسب دخولها في سياق الكلام في بني إسرائيل معتنية بشأنهم والمراد بالكتاب بهذا النظر التوراة أو الإنجيل))[٢]، ويستدل السيّدُ الطباطبائيُّ على أنَّ المقصود بالكتاب في الآية ليس القرآن وإنَّما التوراة أو الإنجيل؛ لأنَّ سِياق الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، ويرى أنَّ انسجام كلمة كتاب مع التوراة أو الانجيل أكثر من انسجامها مع القرآن؛ لأنَّ الحديث عن اليهود وبذلك استطاع السيّدُ الطباطبائيُّ أنْ يصلَ إلى فهم النصِّ عن طريق أحد الوسائل الرئيسة للانسجام ألا وهو السِّياق اللغوي ،ثُمَّ إنَّ التمسك بالكتاب السماوي وإقامة الصلاة هدف الرسالات السماوية.

ويعتمدُ السيّدُ الطباطبائيُّ الانسجامَ لتفسيره قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢]، بقوله:((والمراد بالكتاب في الآية على ما يعطيه السِّياق هو القرآن الكريم وقوله في الآية السابقة:﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [فاطر:٣١] اللام في الكتاب للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول: إنَّ اللام للجنس والمراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوي المنزل على الأنبياء، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ويقرب من معنى الاختيار والفرق أنَّ الاختيار أخذ الشيء من بين الأشياء بما أنه خيرها والاصطفاء أخذه من بينها بما أنَّه صفوتها وخالصها))[٣].

---

(١) دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم :٢٨٨.

(٢) الميزان:٦/٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه :١٧/٤٥.

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في إثبات الانسجام مُقلبًا آراء المُفسِّرين عند قوله تعالى:(مِنۡ عِبَادِنَا) يقول:((يحتمل أنْ يكون(مِنْ) للتبيين، أو للابتداء ،أو للتبعيض، الأقرب إلى الذهن أنْ تكون بيانية وقد قال تعالى:﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩]))[١].

وهنا نجده يقلب المعنى المعجمي معتمدًا السِّياق اللغوي في ترجيحه المعنى المراد ويذكر آراء المُفسرين في معنى الاصطفاء بعد أن ميّز لغويّا بين الاصطفاء والاختيار واستعان بالتأويل المحلي وقف ما يُسميه محمد خطابي إلى أنَّ هذا التأويل المحلي يقوم على ما يُقيمه السيّدُ الطباطبائيُّ من التّشابه بين ما تقدّم ذكره وما حصل لديه من تجارب سابقة فيكون التأويل المحلي ملائما لهذين الجانبين: المتقدم بالذكر والمعارف السابقة وأنَّ هذه النقطة تتحدث عن مكون آخر من محققات الانسجام، ومبدأ التشابه الذي نستنبطه من تحليل السيّدُ الطباطبائيّ يعتمد المعارف السابقة له بوصفه أصوليا متفوها وفقيها عارفا بخبايا النص القرآني ومتكلمًا ضليعًا وفيلسوفًا بارعًا فهذه الأدوات المعرفية لها دورٌ في حصول الفهم والتفسير بالنسبة إلى النصِّ الذي فسَّره السيّدُ الطباطبائيُّ ، ينظرُ إلى النصِّ الراهن أمامه في علاقته مع نصوص سابقة تشابهه ،أو بتعبير اصطلاحي انطلاقا من مبدأ التشابه[٢].

وقوله تعالى:(فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ) يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ هناك احتمالية في الضمير الوارد بلفظة(وَمِنۡهُمۡ) ((يحتمل أنْ يكون الضمير (وَمِنۡهُمۡ) راجعًا إلى(ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا) فيكون الطوائف الثلاث الظالم لنفسه ، والمقتصد، والسابق بالخيرات شركاء في الوراثة وإنْ كان الوارث الحقيقي العالم بالكتاب والحافظ له هو السابق بالخيرات، ويحتمل أنْ يكون راجعًا إلى (عِبَادِنَا) من غير إفادة الإضافة للتشريف فيكون قوله(فَمِنۡهُمۡ) مفيدًا للتعليل والمعنى إنَّما أورثنا الكتاب بعض عبادنا وهم المصطفون لا جميع العباد لأنَّ من عبادنا من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ولا يصلح الكل للوراثة))[٣].

---

(١) الميزان :١٧/٤٧.

(٢) يُنظر:أصول تحليل الخطاب في النّظريّة النّحويّة العربيّة:١/١٦٩.

(٣) الميزان:١٧/٤٦.

يحدد السيّدُ الطباطبائيُّ إحالة الضمير على عبادنا المصطفين دون جميع العباد مستفيدًا من السِّياق اللغوي رغم تقارب الاتساق والسِّياق اللغوي هنا ،وهذا ما دعا المُفسِّرين إلى الاختلاف في إحالة الضمير المسبوق بحرف الجر (من).

وهذه الإشارات النصية التي يُشيرُ لها السيّدُ الطباطبائيُّ ومحورها السِّياق اللغوي ودوره في انسجام النص ؛لأنَّ السيّاق يُسهم في توفير عناصر الانسجام والترابط بين عناصر النصِّ وما ينشئ النص هو النصية أو قواعد صياغة النصِّ بوصفها جانبًا من نظام اللغة ، وبوصفِ الانسجام جزءًا منه، والمكون النصي من حيث هو كل مجموع الوسائل اللغوية التي تتمثل وظيفتها الدلالية في التعبير عن علاقة الإنسان بالمحيط وما يميز النص كونه في سِياق ما(١).

ومن الشواهد الأُخر ما جاء في قوله تعالى:﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٨] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((الكيد الحيلة والمراد احتيالهم إلى إهلاكه وإحراقه بالنار،وقوله تعالى: (فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ) كناية عن جعل إبراهيم فوقهم لا يؤثر فيه كيدهم شيئًا إذ قال سبحانه: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]))(٢).

ويذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى أنَّ إبراهيم (عليه السلام)لم تحرقه النار ؛لأنَّه رُفِعَ ((ونجد أنَّ السِّياق هنا تحدث عن بنيان مرتفع من النار أعدّوه لكي يلقوا النبي إبراهيم (عليه السلام) فيه فرفعه الله فوقهم ونجاه منهم وجعلهم الأسفلين وكأنَّهم هم الذين أسقطوا في النار))(٣).

وأمَّا السيّدُ الطباطبائيُّ فيرى أنَّ إبراهيم لم يرفع بل شُوهِدَ من الجميع في النار وهو ما ذُكرَ سابقاً فهو يُصيّرُ السِّياق خدمة لانسجام النص القرآني ويعترض على مَنْ يذهب إلى أنَّ النص القرآني نصٌّ غير منسجم لتعدد موضوعاته وعدم نزوله دفعةً واحدةً .

ومن التفاتات السيّدُ الطباطبائيُّ لانسجام النصِّ القرآني ما ذكره بخصوص لفظة المبطلين في سورة غافر عند تفسيره قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ

(١) يُنظر: أصول تحليل الخطاب في النّظريّة النّحويّة العربيّة : ١/١٥٠.

(٢) الميزان:١٧/١٥١-١٥٢، ومفردات ألفاظ القرآن :العلّامة الراغب الأصفهاني:٧٢٨(كَيَد).

(٣) جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية النص القرآني أنموذجًا :٣٩.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[غافر:٧٨] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((بيان لكيفية النصر المذكور في الآية السابقة قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧]أنَّ آية النصر التي جرت سُنَّة الله على إنزالها للقضاء بين كلِّ رسول وأمته وإظهار الحق على الباطل كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٤٧] لم يفوضْ أمرها إلى رسولٍ من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله، وحالك حالهم، فمن الممكن أنْ نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم، ومن الممكن أنْ نتوفاك فلا نريك غير أنَّ أمر الله إذا جاء قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون هذا ما يفيده السِّياق... ،أي: فإذا جاء أمر الله بالعذاب قضي بالحق فأُظهر الحق وأُزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل في دنياهم بالهلاك وفي آخرتهم بالعذاب الدائم)) (١) .

والسِّياق كان يجري عملية جدال ما بين المتمسكين بالحق والمتمسكين بالباطل فجاء استعمالُ لفظةِ المبطلين أما في موضع آخر من السورة نفسها فقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥]يقول السيّدُ الطباطبائيُّ مُستضِيئًا بالسِّياق اللغويِّ: ((أنَّ سِياق الآيات أصدق شاهد على أنها سيقت لبيان حال الكفار بعد إتيان رسلهم بالبينات وكيف آلت إلى نزول العذاب ولم ينفعهم الإيمان بعد مشاهدة البأس؟ ...،وذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ إلى الاختيار، أي سنها الله سنة ماضية في عباده أنْ لا تقبل توبة بعد رؤية البأس)) (٢).

والسيّدُ الطباطبائيُّ يعي تكامل الوظائف اللغوية؛ فنجده يبني نصه على حضور تلك الأدوات، ويوظفها بوصفها جملة من الأدوات المتكاملة؛ التي تفضي إلى تشكيل لغوي يضفي على النص تكاملاً تتضح فيه العلاقة بين أجزاء النص، وحاجة كل جزء منه إلى الآخر وعليه لا توجد دلالة ثابتة لكل مقطع؛ لأنَّ دلالة المقطع تتشكل وفق تضافره مع المقاطع الأخرى، ووفق تتابع المقاطع في السِّياق الكلي للنص، ولا توجد دلالة منعزلة عن السّياق؛ لأنَّ الانسجام مظهر خطابي، يوحّد مختلف المستويات في النصِّ، ولا يفرق بينها

(١) الميزان :١٧/٣٥٢-٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه:١٧/ ٣٥٦-٣٥٧.

ولاشك في أنَّ السِّياق يقوم بدور أساس في الانسجام بين عناصر النص ، ولذا فإنَّ المكونات الدلالية لأي نصٍّ لا تظهر إلَّا من خلال السِّياق وبناء عليه فقد عدّ السِّياق من الآليات التي تحقق الانسجام في النصوص[١] .

ويمكن تنوع دلالة المفردات حسب موقعها من السِّياق الأكبر ولنأخذ مثالًا على ذلك الفعل (يَأْكُلُ) يُفسِّرُ السيّدُ الطباطبائيُّ سِياقيًا عن طريق السِّياقات القرآنية الآتية قال تعالى:﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:٧] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((المرادُ أنَّ الرسالةَ لا تجامع أكل الطعام والمشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنها اتصال غيبي لا يجامع التعلقات المادية، وليست إلَّا من شؤون الملائكة وقالوا في غير موضع على ما حكاه الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون:٢٤]))[٢]،وهنا يوضح السيّدُ الطباطبائيُّ الجذر اللغوي لـ(أَكَلَ) بمعنى التغذية للإنسان أما في قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[يوسف:١٣] فقد فسَّر السيّدُ الطباطبائيُّ ((واعتذر إليهم في ذلك بقوله: (وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ) [يوسف:١٣]وهو عذر موجه فإنَّ الصحاري ذوات المراتع التي تأوي إليها المواشي وترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعًا من ذئاب أو سباع تقصدها وتكمن فيها للافتراس والاصطياد فمن الجائز أنْ يقبلوا على بعض شأنهم ويغفلوا عنه فيأكله الذئب))[٣] .

وتعددت آراء السيّدِ الطباطبائيِّ بشأن الجذر اللغوي لـ(أَكَل) فتارة يأتي بمعنى التغذية وتارة يأتي بمعنى الافتراس وتارة بمعنى الغيبة وذلك في قوله تعالى :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجُرات:١٢]وفي ذلك يقول السيّد الطباطبائي : ((وقد أتي بالاستفهام الإنكاري ونسب الحبُّ المنفي إلى أحدهم ولم يقل: بعضكم ونحو ذلك ليكون

(١) من الصوت إلى النص نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري،: د. مراد عبدالرحمن مبروك ٥٥.
(٢) الميزان:١٥/١٨٣.
(٣) المصدر نفسه :١١/١٠١.

النفي أوضح استيعابًا وشمولًا ؛ولذا أكده بقوله بعد: **(فَكَرِهْتُمُوهُ)** فنسب الكراهة إلى الجميع ولم يقل: فكرهه وبالجملة محصله أنَّ اغتياب المؤمن بمنزلة أنْ يأكلَ الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتا، وإنَّما كان لحم أخيه؛ لأنَّه من أفراد المجتمع الإسلامي المؤلف من المؤمنين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرات:١٠] وإنَّما كان ميتًا لأنَّه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه))[١] .

ومن موازنتنا لأنواع المعاني المختلفة للجذر اللغوي **(أَكَلَ)** يتضح أنَّ المعنى هو ما يفهم من السِّياق وهذا ما درج عليه السيّدُ الطباطبائيُّ في تطبيقه السِّياق خدمةً لانسجام النص القرآني ،وإنَّ مبدأ التأويل أو التأويل المحلي كما يُسميه محمد خطابي يعدُّ تقييدًا للطاقة التأويلية عند المتلقي باعتماده خصائص السِّياق اللغوي التي من شأنها حصر التأويلات الممكنة للنص، والتأويل المحلي يعتمد التجارب السابقة في مواجهة النصِّ[٢].

والسيّدُ الطباطبائيُّ حين يُفسِّر النصّ القرآنيّ يحاول أنْ يربطَ شيئًا معطى مع آخر غير ظاهرٍ مستندًا إلى تجاربه السابقة فيراكم عادات تحليلية وفهمية وعمليات متعددة لمواجهة النصوص بغية اكتشاف الثوابت والمتغيرات النصية التي تمكنه من الوصول إلى فَهْمِ النصِّ وخصائصه النوعية ،فسلامة التأويل ومناسبته هي شكل من أشكال إنتاج المعنى المناسب وهذا لا يتأتى إلَّا بتوفر وسائل أخرى تعضّده كالتشابه الذي يرِد بنسب متفاوتة، فإذا كانت التعابير مختلفة والمضامين مثلها في النصوص، فإنَّه ليس بالضرورة أنْ تتغير الخصائص النوعية لهذه النصوص بل نادرًا ما يلحقها التغيير ،ومنه مبدأ التشابه والتأويل المحلي ، اللذان يكوّنان فرضية الانسجام[٣] .

يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى السِّياق اللغوي عند قوله تعالى:﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧] بقوله ((ذكروا أنَّ **(تَزْرَعُونَ)** خبر في معنى الإنشاء، وكثيرًا ما يؤتى بالأمر في صورة الخبر مبالغة في وجوب الامتثال كأنَّه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١١]، والدليل عليه قوله

(١) الميزان :١٨/ ٣٢٨.

(٢) يُنظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب:٥٧.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه :٥٧-٥٩.

تعالى (دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ) قيل: وإنما أمر بوضعه تركه في سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس و لا يهلك وإن بقي مدة من الزمان، وإذا ديس وصفي أسرع إليه الهلاك... وعليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سباع ضارية تكر على الناس لافتراسهم وأكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله وتنصرف عنهم)) [١].

وهنا يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى صرفِ دلالةِ الخبرِ إلى الانشاءِ معتمدًا السِّياق اللغوي في إيضاحِ دلالةِ النصِّ، وإنَّ السِّياق النحوي هو الذي يدرس البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحوية في كلِّ نسقٍ، وأنَّ الكلماتِ في الجملِ تتوالى على نسقٍ مرتب وتخضع في ترتيبها إلى أنساقٍ تركيبيةٍ مطردةٍ وعلاقات داخلية معينة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي على وفق مقتضى السِّياق ، فالسِّياق ينتج المعنى الذي تؤديه المنظومة القواعدية التي يتكون منها النص من وجهة نظر نحوية، فالقواعد التي يبنى عليها النص اللغوي يجب أنْ يتحققَ فيها الانسجام مع دلالة السِّياق[٢].

وهذا التحليل السِّياقي يُسهِمُ في إظهار الانسجام النصي، وإنَّ معانيَ الآياتِ لنْ تُسفرَ عن وجهها حتى تقرأَ في سِياقها وموقعها وبيئتها وتُدرك العلاقة بين الآية والقرآن الكريم، ونظم متفرد واحد، تسري فيه روحٌ واحدةٌ تحوله إلى كائن حي يُخاطبك كفاحًا ويشتبك معك في جدل شامل يُجيب به عن أسئلتك[٣].

إنَّ المطلع على كتب التفسير يلحظ أنَّ السِّياق اللغوي لم يلق عناية كافية من بعض المُفسِّرين، مع أنَّ الأصل في القرآن الكريم أنَّه منسجم، وأنَّ المنهج السياقي في التفسير يمنع التأويلات الباطنية التي تجعل النص خاضعًا للقناعات والأحكام الأيديولوجية المسبقة لا مؤسسًا لها [٤].

(١) الميزان:١١/١٩٣.

(٢) يُنظر:جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية النص القرآني أنموذجًا: ٤٢ .

(٣) يُنظر:الوحدة البنائية للقرآن المجيد، د.طه جابر العلواني:١١-٢٠.

(٤) يُنظر: المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير:٤٠ .

المبحث الثاني: السِّياق غير اللغويِّ في تفسير الميزان:

إنَّ فكرةَ السِّياقِ غيرِ اللغويِّ هي المركزُ الذي يدورُ حولَه علمُ الدلالةِ والأساسُ الذي تُبنى عليه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال [١] ، وعلى الرغمِ من أنَّ علمَ الدلالةِ المعاصر يتناولُ جوانب أخرى غير نظريةِ السِّياقِ أو فكرة المقام ، إلَّا إنَّ نظريةَ السِّياقِ تشكلُ ركنًا مهمًا من أركانِ الدلالةِ؛ لأنَّ التحليلَ اللغويَّ للنصِّ أو الكلام لا يعطينا إلَّا المعنى الحرفي للنصِّ وهو معنى فارغ من محتواه الاجتماعي والتاريخي ،ومنعزل عن كل ما يحيط به النص من القرائن التي تحدد المعنى[٢]، ولما كان السِّياق في التعبيرِ القرآنيِّ له خصوصيةٌ متفردةٌ؛ ذلك بأنَّ النصَّ القرآنيَّ حمّال أوجه إذ تتعدد عنده الوجوه بتعدد السِّياقات مما يكون له أثر في توجيه الدلالة وتنويعها .

والنصُّ القرآنيُّ غني بمدلولاته ،ومرن مرونة متفاعلة مع الواقع تفاعل تخلية أو تحلية ،ولا يقيد مرونته أو يجدب غناه إلَّا البعد عن السِّياق ،ولما كان القرآن حمَّال أوجه فلا نستغرب تعدد سياقاته غير اللغوية، ويشمل السِّياق غير اللغوي سياقات متعددة منها : السَّياق الاجتماعي ، والسِّياق التاريخي ، وسِّياق الحال ، وسِّياق الموقف [٣]،ويراد بالسِّياق غير اللغويِّ:((هو ظروف النصِّ التي سماها علماء البلاغة: سياق الحال، أو المقام، وقالوا:(لكل مقام مقال) وسماه بعضهم سِياق الموقفِ إذ تتوالى الأحداث التي تصاحب الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال، ويشمل ذلك الزمان والمكان وحال الأشخاص: المتكلمين والمخاطبين ... وهذا النوع يشتمل على القرائن الحالية التي تسهم في الكشف عن المراد ،وهو يدخل فيما سماه المعاصرون سِياق الحالِ الذي يمثله العالم الخارج عن اللغة بما له

---

(١) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها:٢٠-٢١، و المقام في البلاغة العربية (دراسة تداولية) : شكري الطوانسي مجلة عالم الفكر: العدد ١ المجلد ١٢ -٢٠١٣م:٦٢.

(٢) يُنظر: المنهج السِّياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير:٢٣.

(٣) يُنظر: السِّياق غير اللغوي في النصِّ القرآنيِّ، د. خليل خلف بشير، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية ،المجلد/١٥، العدد / ٤ ،٢٠٠٨ م:١٢٩٥.

صلة بالحديث اللغوي ويتمثل في الظروف الاجتماعية والثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام» [١].

ويعرّف عبد القادر عبد الجليل السِّياق غير اللغوي أنَّه((مجموعة الظروف التي تحيط بالحدث الكلامي ابتداء من المرسل والوسط وحتى المرسل إليه بموصفاتهم وتفصيلاتهم المتناهية في الصغر)) [٢]،فمن أجل فهم نص ما يجب معرفة كل القرائن والظروف التي تحيط به، كونها تساعد بشكل كبير في إزالة اللبس والغموض عن النصّ.

وإذا كان (السِّياق غير اللغوي) يمثل عند اللغويين الجوانب غير اللفظية المصاحبة للحدث الكلامي من الظروف والملابسات، فإنَّ هذه الظروف الخارجية المصاحبة للنص تمثل عند الاصوليين والمُفسِّرين طرقًا قويةً في الكشف عن دلالات النص القرآني ، ولا سيما ما عرف عندهم بـ(أسباب النزول) [٣].

١- موقفُ السيّدِ الطباطبائيِّ من روايات أسبابِ النزول:

يرى علماءُ التفسيرِ أنَّ علمَ أسباب النزولِ مِنْ العلومِ القرآنيةِ التي لا يُستغنى عنها، لِما لها من فوائدَ اتفقَ العلماءُ عليها، فمن دونها لا سبيل إلى معرفةِ الأحكام الشرعية فالسيّدُ الطباطبائيُّ يرى أنَّ الحوادثَ والأحداثَ التي وقعتْ أيامَ الدعوةِ، فضلًا عن الحاجات الضرورية من الأحكام والقوانين الإسلامية، هي التي تسببت في نزولِ كثير من السور والآيات، ومعرفة هذه الأسباب يساعد إلى حد كبير في معرفة الآية المباركة، وما فيها من المعاني[٤].

إنَّ ما يعنينا في هذه الدراسة، هو موقف السيّدِ الطباطبائيِّ من أسبابِ النزولِ، والآثارِ التي تركها هذا العِلْم على منهجِه وأسلوبهِ في تفسيره الآياتِ والرواياتِ ، انصبَّ جهد السيّد الطباطبائيّ في علم أسباب النزول على تمييزِ

(١) المنهج السِّياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير:٤١ .
(٢) علم اللسانيات الحديثة عبد القادر عبد الجليل : ٥٤٣.
(٣) يُنظر : البحث الدلالي في تفسير(من وحي القرآن) للسيد حسين فضل الله ،د جابر محيسن عليوي :٢٣٥.
(٤) يُنظر: علوم القرآن عند العلامة آية الله السيد محمد حسين الطباطبائيّ (دراسة مقارنة): ٤٦/٢.

الرواياتِ بعد موافقتها الآيات والنصوص القطعية، قناعةً منه أنَّ النصَّ القرآنيَّ بات محكومًا بكثير من الرواياتِ والآراءِ التي تحولت من كونها آراءً نظريةً لتكون أسبابَ نزول، وعن طريق منهجه القرآني استطاع تفنيدُ الكثير من الروايات، فأسقطها عن درجة الاعتبار ؛ لكونها روايات اجتهادية في جانب، وسياسية في جانب آخر، وهذا ما عبر عنه بقوله:((ليتبصر الباحث المتأمل أنَّ ما ذكروه من أسبابِ النزولِ كلها أو جلّها نظرية، بمعنى أنَّهم يروون غالبًا الحوادث التاريخية، ثم يشفعونها بما يقبل الانطباق عليها من الآيات الكريمة، فيعدونها أسباب النزول، وربما أدى ذلك إلى تجزئة آية واحدة، أو آيات ذات سياق واحد، ثم نسبة كل جزء إلى تنزيل واحد مستقل، وإنْ أوجب ذلك اختلال نظم الآيات وبطلان سياقها وهذا أحد أسباب الوهن في نوع الروايات الواردة في أسباب النزول. وأضف إلى ذلك...، أنَّ لاختلاف المذاهب تأثيرًا في لحن هذه الروايات وسوقها إلى ما يوجه به المذاهب الخاصة، والأجواء السياسية ،على أنَّ للأجواء السياسية والبيئات الحاكمة في كل زمان أثرًا قويًا في الحقائق، من حيث إخفاؤها أو إبهامها))[١].

وإنَّ كثيرًا من السور والآيات ترتبط بالحوادث التي وقعت أيام الدعوة، كسورة البقرة والحشر والعاديات، أو نزلت لحاجات ضرورية من الأحكام والقوانين الإسلامية، كسورة النساء والانفال والطلاق وأشباهها [٢] ، ويقول السيّدُ الطباطبائيُّ إنَّ ((هذه القضايا التي سبّبت نزول السورة أو الآية هي المسمّاة (أسبابُ النزولِ)، ومعرفتها تساعد إلى حدٍّ كبير على معرفة الآية المباركة وفيها من المعاني والأسرار))[٣].

ويضيف في إيضاح موقفه من أسباب النزول بقوله: ((هذه الأحاديث عن طريق أهل السُنة كثيرة جدًا، ربّما تبلغ آلافًا من الأحاديث، وأمّا من طريق الشيعة فهي قليلة، وربّما لا تبلغ إلَّا مِئات ، ويلحظ : أنَّ كلَّ هذه الأحاديث ليْسَتْ مُسندةً

(١) الميزان:٤/٧٦.

(٢) يُنظر: القرآن في الإسلام ، السيد محمد حسين السيّد الطباطبائي:١٣٣ .

(٣) المصدر نفسه:١٣٤.

(٤) المصدر نفسه:١٣٤.

وصحيحةً، بل فيها المرسل الضعيف أيضا، والنظر والتأمّل فيها يدعو الإنسان إلى الشك فيها ؛لأنَّها

أوّلًا: سياق كثير منها يدلُّ على أنَّ الراوي لا ينقل السبب من طريق المشافهة والتحمّل والحفظ ،بل ينقل قصّة ما ويحمل الآيات عليها حملًا ويربطها بها ربطًا ، وفي الحقيقة سبب النزول الذي يذكره إنّما هو سبب اجتهادي نظري، وليس بسبب شاهده بالعيان))[١].

ويقول:((والشاهدُ على ما نقولُ التناقض الكثير في هذه الأحاديث، ونعني به أنَّ الآيةَ الواحدةَ يُذْكرُ فيها أحاديث عدّة في أسبابِ النزولِ يناقضُ بعضها بعضًا، ولا يمكن جمعها بشكلٍ من الأشكالِ، حتّى إنَّه في بعضِ الآياتِ يذكُر عن شخص واحد ـ كابن عباس مثلًا ـ أسباب نزول لا يمكن الجمع بينها)) [٢] .

ويقول رأيه بكلِّ جرأةٍ وعلميةٍ: ((إنَّ ورودَ هذه الأحاديث المتناقضة المتهافتة لا يمكن حمله إلاّ على أحدِ محملين : إما أنْ نقولَ إنّ هذه الأسباب نظريّة اجتهادية وليست بنقليّة وكان كلُّ محدثٍ يحاول أنْ يربطَ بين قصّة ما والآية ربطًا لا حقيقية له في الخارج، أو نقول :إنّ هذه الأحاديث كلّها أوجلّها ،مدسوسة ليس لهل ظلّ من الواقع)) [٣].

ويؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ((الحديث يحتاج إلى تأييد قرآني ،وعلى هذا يجب عرض الحديث على القرآن، كما ورد في أحاديث عن الرسول وأهل بيته (عليهم السلام) وعليه فسبب النزول الوارد حول آية من الآيات إذا لم يكن متواترًا أو قطعي الصدور يجب عرضه على القرآن ،فما وافق مضمونه مضمون آية يؤخذ به ويعمل عليه، ومعنى هذا أنَّ الحديث هو الذي يعرض دائمًا على القرآن الكريم لا القرآن الكريم يعرض على الحديث، وهذه الطريقة تسقط أكثر أحاديث أسباب النزول عن الاعتبار إلَّا أنَّ الباقي منها يكسب كل الاعتبار والوثوق))[٤] .

---

(١) القرآن في الإسلام :١٣٤.

(٢) المصدر نفسه :١٣٤.

(٣) المصدر نفسه :١٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٥-١٣٦.

ومن شواهد ذلك ما جاء في بيان قوله تعالى :﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ [عبس:١-٦] يقف السيّدُ الطباطبائيُّ مترددًا في قبول أسباب النزول التي أوردها المُفسِّرين؛ لأنَّها لا تناسب مقام الرسول لِمَا فيها من عتبٍ شديدٍ له قائلًا:((وردت الروايات من طرق أهل السُنَّةِ أنَّ الآيات نزلت في قصة ابن أم مكتوم الأعمى دخل على النبي (ﷺ) وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام فعبس النبي (ﷺ)عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة إلى ذلك،وفي بعض روايات الشيعة أنَّ العابس المتولي رجل من بني أمية كان عند النبي (ﷺ) فدخل عليه ابن أم مكتوم فعبس الرجل وقبض وجهه فنزلت الآيات))[١].

ويذكر السيّدُ الطباطبائيُّ أسباب النزول ويقف أمامها لكثرة الروايات التي تذهب إلى هذا الرأي ويستعين بمعرفته لأسباب النزول انطلاقًا من مكتسباته المعرفية المخزونة في الذاكرة ،ويميلُ إلى الرواية التي تذهب إلى أنَّ العابسَ شخص من بني أمية إذ يقول معللًا في دفاعه عن الرسول الأعظم(ﷺ) : ((على أنَّ قبح ترجيح غنى الغني وليس ملّاكًا لشيء من الفضل على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض عن الفقير والإقبال على الغني لغناه قبح عقلي مناف لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج في لزوم التجنب عنه إلى نهي لفظي)) [٢].

ويُسْتَشفُ من كلامِ السيّدِ الطباطبائيِّ أنَّ كثيرًا من أفعال التلفظ لا يمكن تفسيرها إذا كنا نعرف فقط الملفوظ المستعمل ونجهل كل شيء عن المقام، هذا المقام الذي يحدد مرجع التعابير المستعملة ويمنحنا الاختيار بين التفسيرات المختلفة لملفوظ غامض[٣] ،ولمّا كانت قابليّة التفسير هي المحققة للانسجام فإنَّ السِّياق يكتسب دورًا رئيسيًا في تحقيق ظاهرة الانسجام((فالسِّياق يجعل القول الواحد متى ظهر في مقامين مختلفين ذا تفسيرين مختلفين، وهذا يحتّم الاعتداد بدور السِّياق في تحقيق انسجام النص)) [٤].

---

(١) الميزان :٢١٨/٢٠.

(٢) المصدر نفسه :٢٠/ ٢٢٤.

(٣) يُنظر: النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة :٣٣.

(٤) أُصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية:١٥٩/١.

ولا يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ العابس النبي محمد (ﷺ) مستدلًا بدلالةِ الآيات نفسها بقوله:((و ليست الآيات ظاهرة الدلالة على أن المراد بها هو النبي (ﷺ) بل خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه بل فيها ما يدل على أن المعنى بها غيره لأن العبوس ليس من صفات النبي (ﷺ) مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين،ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى رحمه الله، وقد عظم الله خلقه (ﷺ) إذ قال – وهو قبل نزول هذه السورة –: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] والآية واقعة في سورة (ن) التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في أول بعثته و يطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية و يذمه بمثل التصدي للأغنياء وإنْ كفروا والتلهي عن الفقراء وإنْ آمنوا و استرشدوا))[(١)].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في دفاعه عن الرسول الاعظم(ﷺ) معتمدًا السِّياق بقوله :((وقد عظَّم الله خُلقه (ﷺ) ....، والخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها ،والآية وإنْ كانت في نفسها تمدح حسن خلقه (ﷺ) وتعظمه غير أنَّها بالنظر إلى خصوص السِّياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والتواضع وغير ذلك))[(٢)].

ويعضد السيّدُ الطباطبائيُّ رأيه بحديث للإمام الصادق (عليه السلام)((أنَّها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي(ﷺ) فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه)) [(٣)].

ومن الشواهد الأُخريات على أثر السِّياق غير اللغوي في بيان انسجام النصِّ القرآنيِّ ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ : ((

(١) الميزان:٢٠/٢٢٤.

(٢) المصدرنفسه:١٩/ ٣٨٥.

(٣) المصدرنفسه:٢٠/٢٢٤.

(*) الآيات من(١١-٢٦).

الآيات(*) تُشير إلى حديث الإفك، وقد روى أهل السُنَّة أنَّ المقذوفةَ في قصةِ الإفكِ هي أم المؤمنين عائشة، وروت الشيعة أنَّها مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي (ﷺ)، وكل الحديثين لا يخلو من شيء ،فالأحرى أنْ نبحث عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعًا غير أنَّ من المسلم أنَّ الإفك المذكور فيها كان راجعًا إلى بعض أهل النبي (ﷺ) إمّا زوجه وإمَّا أم ولده وربما لوح إليه قوله تعالى:﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]،وكذا ما يستفاد من الآيات أنَّ الحديث كان قد شاع بينهم وأفاضوا فيه وسائر ما يومي إليه من الآيات))(١) .

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح النصِّ القرآني برؤيته النصية موظفًا السِّياق غير اللغوي لخدمة الانسجام ((والمستفاد من الآيات أنَّهم رموا بعض أهل النبي (ﷺ) بالفحشاء، وكان الرامُون عصبةً من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاك، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث حبًا منهم أنَّ تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا فأنزل الله الآيات ودافع عن نبيه (ﷺ)))(٢).

بعد أنْ حدد السيّدُ الطباطبائيُّ البنية الكبرى البنية التجريدية الكامنة التي تمثل منطق النص ، يردُّ على الرأي الذاهب إلى أنَّ الخطابَ في الآيات إلى النبي (ﷺ) وزوجته عائشة بقوله:((الخطاب في الآية وما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق ومن في قلبه مرض، وأمَّا قول بعضهم: إنَّ المخاطَب بالخطاباتِ الأربعة الأول أو الثاني والثالث والرابع النبي(ﷺ)والمقذوفة والمقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الأول وهي نيف وعشرون خطابًا أكثرها لعامة المؤمنين))(٣).

يؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ المخاطَب ليس الرسول (ﷺ) ولا إحدى زوجاته، بل إنَّ المخاطبين عامة المؤمنين الذين يحملون الايمان شكلًا لا جوهرًا ،والمنافقين ،ومن في قلبه مرض، ويفرق السيّدُ الطباطبائيُّ بين المنافقين الذين هم مَن يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أما

---

(١) الميزان:١٥/٩٠.

(٢) المصدر نفسه :١٥/٩٠.

(٣) المصدر نفسه :١٥/٩٠.

الذين في قلوبهم مرض فهم الذين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر، ويُشير السيّد الطباطبائيُّ إلى مبدأ أساس من مبادئ تحليل الخطاب، يرتبط بالعلاقات بين الجمل، وهو مبدأ ركناه الرئيسان :الأول وضع الجمل في سياق الجمل المرتبطة بها، لبيان السبب في أنَّ نحوها ومعناها، لا يمكن أنْ يُفسَّرا تفسيرًا كاملًا ،إلَّا إذا أخذ في الاعتبار سياقها الأكبر، والثاني :أنَّه لابد من العناية بالكشف عن منظومة الجمل المترابطة حال كونها كلًا واحدًا، دون تركيز على جمل بعينها داخل الفصل الدلالي تركيزًا خاصًّا، والمقصود بالجمل المترابطة، الجمل الأكثر تشابهًا في موقعيتها داخل الخطاب[١].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله النصي((إنَّ الذين أتوا بهذا الكذب ـ واللام في الإفك للعهد ـ جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ هناك تواطؤًا منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به نزاهة بيت النبي(ﷺ) ويفضحوه بين الناس، وهذا هو فائدة الخبر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ لا تسلية النبي (ﷺ) أو تسليته وتسلية من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإنَّ السِّياق لا يساعد عليه))[٢].

والاحالة بـ (ال العهدية)، التي تُشيرُ إلى مرجعٍ معينٍ معهودٍ للمتكلِم والمخاطَبِ، وتتوقف قدرة المخاطَب على تحديدِ المرجعِ المقصود، وهذا الفهم محكوم بما يسميه الأصوليون مبدأ (التبادر) الذي ينزع السامع بمقتضاه إلى حمل كلام المتكلم في ضوء المعرفة المتبادلة بينه وبين مخاطبه، وتفاعلاتهم السابقة، والمقام الحالي الذي وقع فيه التخاطب[٣]،ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى السِّياق غير اللغوي(السياق الاجتماعي)الذي أسهم في انسجام القرآني عند تفسيره قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ بقوله: ((مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أنْ يكون المراد بنفي كونه شرًا لهم وإثبات كونه خيرًا أنَّ المجتمع الصالح من سعادته أنْ يتميزَ فيه أهل الزيغ والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم وينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم، وخاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل

(١) يُنظر: المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، د. محمد العبد:٣٥ـ ٣٦ .

(٢) الميزان:١٥/٩١ .

(٣) يُنظر: المباحث الأصولية، الشيخ محمد اسحاق الفياض:٢/٣٠٠ .

عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم ويذكّرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم ويتفطنوا لما يهمّهم)) [١].

ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية في استنباط دليل من النصِّ القرآني لتأييد رأيه ((والدليل على ما ذكرناه قوله بعد:﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾فإنَّ الإثم هو الأثر السيئ الذي يبقى للإنسان عن اقتراف المعصية فظاهر الجملة أنَّ أهلَ الإفك الجائين به يعرفون بإثمه ويتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أنْ يفضحوا النبي(ﷺ)))[٢]،هناك مجموعة من المعطيات يأخذ بها السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان انسجام النصِّ القرآني عن طريق السِّياق غير اللغوي منها استعانته بمعرفته العالم انطلاقًا من مكتسباته المعرفية على المستوى اللغوي والعرفاني والفلسفي المخزونة في ذاكرته، ويوظف السيّدُ الطباطبائيُّ أسبابَ النزول بما يوافق مضمونها مضمون الآيات في توضيح قصد النصِّ وتطويعه دائرة الافهام من دون الانجرار وراء الروايات التي تكاثرت من دون أسانيد معتبرة وهو يضبط مقومات السِّياق ولا يثني العزائم عن الخوض في قضاياه ولا يُنشئ سياقاً أكبر ممّا يحتاجه من أجل الوصول إلى تفسير يخدم النص ويبقيه في متطلباته.

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ الروايات على تقاربها في سردِ القصّةِ فيها إشكالٌ من وجوهٍ ؛ لأنَّها لا تنسجمُ مع النصِ، وقد أشرتُ سابقًا موقفه من الروايات التي يراها بعيدة عن انسجام النص وأنَّه يطرحها جميعا ويناقش بعضها ويعارض بعضها بروايات أُخريات ولا يعتمدها إلاَّ بعد عرضها على النص القرآني والتأكد من مطابقتها له قائلًا : ((وبالجملة دلالة عامة الروايات على كون النبي (ﷺ) في ريب من أمرها[*] إلى نزول العذر مما لا ريب فيه، وهذا مما يجلُّ عنه مقامه (ﷺ) وهو سبحانه يقول﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾[النور:١٢]، فيوبّخ المؤمنين والمؤمنات على إساءتهم الظن كعدم ردّهم ما سمعوه من الإفك فمن لوازم الإيمان حسن الظن بالمؤمنين، والنبي (ﷺ) أحق من يتصف بذلك ويتحرّز من الظّن الذي من الإثم وله من مقام النبوة والعصمة الإلهية))[٣]، ويكتفي السيّدُ الطباطبائيُّ بالسِّياقِ غيرِ اللغويِّ بقدر فائدته في توضيح النصِّ القرآني وإبقائه

(١) الميزان:٩١/١٥.

(٢) المصدر نفسه:٩١/١٥.

(*) يعني أم المؤمنين عائشة.

متماسكًا ومنسجمًا مستعينًا بعناصر الانسجام التي يستنطقها من النصِّ بمساعدة محيطه الذي أسهم بشكل وآخر في إيضاحه وتوصيفه .

ومن الواضح أنَّ تأثير النصِ على المقام الاجتماعي وكذلك تأثير المقام الاجتماعي على النص يمارسان بواسطة الاستعداد الادراكي للمستعمل وذلك بأنَّ التفسير الأخير للواقع الاجتماعي ،مهما كان اصطلاحيًا هو الذي يمارس تأثيرًا على توجيه الإنتاج النصي وفهم النص، عن طريق آرائه ومواقفه ورغباته ومصالحه(١)،

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح رؤيته النصية في روايات أسباب النزول قائلًا: ((وإنّ الذي تدل عليه الروايات أنَّ حديث الإفك كان جاريًا بين الناسِ منذ بدأ به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدهم أكثر من شهر وقد كان حكم القذف مع عدم قيام الشهادة معلومًا وهو جلد القاذف وتبرئة المقذوف شرعًا فما معنى توقف النبي (ﷺ) عن حد أصحاب الإفك هذه المدة الطويلة وانتظاره الوحي في أمرها حتى يشيع بين الناس وتتلقاه الألسن وتسير به الركبان ويتسع الخرق على الراتق؟ وما أتى به الوحي من العذر لا يزيد على ما تعينه آية القذف من براءة المقذوف حكماً شرعياً ظاهرياً ،والحق أنَّ لا مناص عن هذا الاشكال إلَّا بالقول بأنَّ آيةَ القذفِ لم تكن نازلة قبل حديث الإفك وإنما نزلت بعده)) (٢).

وهنا يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى قضية في غاية الاهمية إما الروايات التي سُردت غير صحيحة ومعظمها موضوعة لهدف سياسي وإما ترتيب آيات المصحف المتداول بيننا اليوم غير توقيفي وهذا ما تبناه السيّدُ الطباطبائيُّ وسوف نتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الفصل القادم إن شاء الله.

٢-من الآياتِ التي أسهم السِّياق غير اللغوي في بيان معناها .

من الشواهد التي استحضرها السيّدُ الطباطبائيُّ ما جاء في قوله تعالى﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩] جاء القرآن الكريم بتعاليم خاصة بمناسك الحج وهذه التعاليم لا يمكن معرفتها إلَّا بالاطلاع على طريقة الحج التي كانت متبعة في الثقافة الجاهلية يقول السيّدُ الطباطبائيُّ إنَّ:((ظاهره إيجاب الإفاضة على ما كان من دأب الناس وإلحاق المخاطبين في هذا الشأن بهم فينطبق على ما

(١) يُنظر: السياق والنص الشعري من البنية الى القراءة:٨٧.

(٢) الميزان:١٠٣/١٥ .

نقل أنَّ قريشًا وحلفاءها وهم الحمس كانوا لا يقفون بعرفات بل بالمزدلفة وكانوا يقولون: نحن أهل حرم الله لا نفارق الحرم فأمرهم الله سبحانه بالإفاضة من حيث أفاض الناس وهو عرفات))[(١)]، وسبب نزولها أنَّ قريشًا كانوا يقفون يوم عرفة بالمزدلفة ، ويقولون : نحن قطان بيت الله ، ولا ينبغي لنا أنْ نخرج من الحرم ؛ لأنَّ عرفات خارج عن الحرم وعامة الناس يقفون بعرفات ، فأمر الله النبي (ﷺ) والمسلمين ، أنْ يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وهو عرفات لا من المزدلفة كفعل قريش [(٢)] .

ونزل القرآن الكريم باللغة العربية؛ واللغة في حد ذاتها هي أهم عنصر في ثقافة المجتمعات ، وعلى هذا الأساس يجب معرفة ثقافة العرب في المدة التاريخية لنزول القرآن حتى يمكن الوصول إلى دقائق هذه اللغة، فمعرفة القواعد اللغوية، ومشتقات الكلمات والاصطلاحات في اللغة العربية في الوسط الثقافي لعصر النزول؛ من الأمور المهمة والضرورية لفهم النص[(٣)].

ولما كانت أسباب النزول جزء من السِّياق غير اللغوي الذي اعتمده السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان انسجام النصِّ القرآني، ويتبين أنَّ المتلقي لديه تجربة فيما يخص نوع الخطاب، ومن ثم شكل الخطاب وزمانه ومكانه وقد يوحيان للمتلقي إنْ كانت عنده تجربة سابقة مع هذا الخطاب ،وبذلك استطاع السيّدُ الطباطبائيُّ الاستفادة من السِّياق غير اللغوي في إيضاح الانسجام النصي، والخطاب موجّه إلى مخاطبين معينين لا إلى عامة الناس، ويثبت أنَّ السِّياق مسألة ضرورية وحاسمة في مجال اللغة، تسمح بالحديث عن الأشياء بدقة ووضوح، وبالنتيجة الحصول على نص منسجم بأهم وسيلة من وسائله ألا وهو السِّياق غير اللغوي.

وفي قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:٢٠٠] يستعين المُفسرُ بالسِّياق غير اللغوي لبيان معنى النص القرآني قائلًا:((دعوة إلى ذكر الله والبلاغ فيه بأنْ يذكره الناسك كذكره آبائه وأشد منه؛ لأنَّ نعمته في

(١) الميزان:٨١/٢ .

(٢) يُنظر: المصدر نفسه :٨١/٢

(٣) يُنظر: فهم النص في سياقه التاريخي، آية الله السيد حيدر علوى نجاد ،مجلة البصائر العدد (٣٩) السنة ١٧ – ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م: :٣٢.

حقه وهي نعمة الهداية كما ذكره بقوله تعالى:﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٨]أعظم من حق آبائه عليه، وقد قيل: وإنَّ العرب كانت في الجاهلية إذا فرغت من الحج مكثت حينًا في منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم والنثر...))[١]

ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية لتوضيح انسجام النص القرآني فالذي يتبادر عند قراءة الآية هو التساؤل عن علاقة ذكر الآباء هنا بالحج، ولكن الرواية السابقة تزيل هذا الغموض والتساؤل ،ويبدو للباحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يعِدُّ أسباب النزول جزءًا من السِّياقِ غيرِ اللغويِّ مع العلم أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يرى أنَّ أسباب النزول واحدة من مصاديق الآية والآية تُشير إلى سياق ثقافي كان جاريًا قبل الاسلام بعد الحج فأشارتْ إليه .

وقد تكفّلت أسباب النزول في تبيان معنى الآيات واستنباط ما فيها من دلالات وأحكام، معتمدًا في ذلك القرائن التي تتجلى عن طريق السِّياق غير اللغوي.

ومن الشواهد الأُخر ما جاء في بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٣٧] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ بعد عرضه المعنى المعجمي والتدرج في إيضاحه :((... وقد يطلق النسيء على الشهر الذي أخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنَّهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره وأما أنَّه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المُفسرين كأهل التأريخ والذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنَّه كانت لهم فيما بينهم سنة جاهلية في أمر الأشهر الحرم وهي المسماة بالنسيء، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرمة الذي بعده، وأنَّهم إنما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أنْ يتحفظوا على سُنّة قومية ورثوها عن أسلافهم عن إبراهيم ... ،وهذا النوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدس ؛ ولذا عده الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر))[٢].

(١) الميزان:٢/٨١.

(٢) المصدر نفسه:٩/٢٨٠.

ويرد السيّدُ الطباطبائيُّ على ما ذكره بعض المفسِّرين ((... أنَّ النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام للتوسّل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها...وأما ما ذكره بعضهم أنَّ النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتة ...)) [١] .

ويستعين السيّدُ الطباطبائيُّ بأسباب النزول في بيان الانسجام النصي الذي توصل إليه من خلال رؤيته الثاقبة في التحليل بقوله:((وهذا كله يؤيد ما ذكروه أنَّ العرب كانت تحرم هذه الأشهر الحرم، و كان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أنْ يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يعود التحريم إلى المحرم، ولا يفعلون ذلك أي إنساء حرمة المحرم إلى صفر إلّا في ذي الحجة)) [٢].

وهذا التحليل النصي للسيّدِ الطباطبائيِّ، واعتماده السِّياق غير اللغوي في بيان الانسجام يقارب رؤية باحث معاصر في اللسانيات النصية أنَّه لا يمكن الاستغناء عن السِّياق غير اللغوي؛ لأنَّه يقوم بدور فعّال في تواصلية الخطاب وانسجامه، ويرتكز على الاستمداد من النص القرآني التي تتوافق وسياقه غير اللغوي ومقاصدَه العُليا والسيّدُ الطباطبائيُّ لا يُحمّل النص وجوها من الفهم وأفكارًا بعيدةً لا يُؤيدُها السِّياق غير اللغوي ولا الخطاب العلمي الذي رافقه وبين منهج فهم هو تنزيله والاستنباط منه[٣].

وعلى الرغم من أنَّ القرآن الكريم يضع بعين الاعتبار الثقافة التي كانت سائدة في عصر النزول ويستفيد منها لتوضيح مفاهيمه، وعلى الرغم من أنَّه جاء في قالب ثقافي ولغوي معين إلّا أنَّه ليس نتاجًا لتلك الثقافة، ولم ينطلق من قواعدها، فالمعلقات السبع على سبيل المثال هي نتاج ثقافة ولغة المجتمع الجاهلي ولا يمكن فصلها عن هذا القالب قطُّ ، لكن القرآن الكريم وعلى الرغم من أنَّه اختار

---

(١) الميزان :٩/٢٨٠-٢٨١.

(٢) المصدر نفسه:٩/٢٨١.

(٣) يُنظر: المنهج السِّياقي واثره في تطوير دراسات التفسير: ٢٨.

ثقافة ولغة عصره لكنه كتاب سماوي ليس من نتاج الثقافة الجاهلية التي كانت سائدة، والتي كانت تحكم ذلك العصر [١].

ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ أسباب النزول ويوظفها في إظهار انسجام النصِّ القرآني لقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[التكاثر:١-٨] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((المعنى على ما يعطيه السِّياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها والتسابق في تكثير العدة والعدة عما يهمكم وهو ذكر الله حتى لقيتم الموت فعمتكم الغفلة مدى حياتكم، وقيل: المعنى شغلكم التباهي والتباري بكثرة الرجال بأنَّ يقول هؤلاء: نحن أكثر رجالا، وهؤلاء: نحن أكثر حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعددتم الأموات من رجالكم فتكاثرتم بأمواتكم، وهذا المعنى مبني على ما ورد في أسباب النزول أنَّ قبيلتين من الأنصار تفاخرتا بالأحياء ثم بالأموات، وفي بعضها أنَّ ذلك كان بمكة بين بني عبد مناف وبني سهم فنزلت السورة)) [٢].

فالسيدُ الطباطبائيُّ ـ هنا ـ يربط النص بسياقه الاجتماعي، ويلاحظ عادات العرب وتقاليدها في عصر النزول، وهو أمر أهتمت به الدراسات اللغوية الحديثة ، فاللغة نشاط اجتماعي بارز،وهي تتأثر بكل الظواهر الاجتماعية تأثيرًا كبيرًا [٣]،والانسجام لا يتحقق على مستوى الجمل والنصوص المنجزة حسب،إنما ينبغي أنْ نبحث عن الانسجام بين النصوص وما يحيط بِها، في الخارج وهذا يقتضي البحث في العلاقة بين النصِّ والسِّياق غير اللغوي ، فالعلاقات بين الجمل في متتالية نصية تشمل العلاقات الداخلية، وامتداداتِها الخارجية [٤].

يعتمد السيّدُ الطباطبائيُّ السِّياق غير اللغوي في تفسيره النص القرآني، ويعدّه عنصرًا دلاليًا وقرينة لفهم الكلام، فهو حين يقف عند قوله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟

(١) يُنظر: فهم النص في سياقه التاريخي : ٢٣.

(٢) الميزان:٢٠/٤٠٤.

(٣) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها، :٣٤٢

(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٢٦٠.

﴿ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[البقرة:١٨٩]نراه يقول:((ثبت بالنقل أنَّ جماعة من عرب الجاهلية كانوا إذا أحرموا للحج لم يدخلوا بيوتهم عند الحاجة من الباب بل اتخذوا نقبًا من ظهورها ودخلوا منه فنهى عن ذلك الإسلام وأمرهم بدخول البيوت من أبوابها، ونزول الآية يقبل الانطباق على هذا الشأن، وبذلك يصح الاعتماد على ما نقل من شأن نزول الآية))[٤].

وتعدُّ أسباب النزول قرينة دلالية تحيط بالنص من الخارج يستعان بها في فهم المعنى وتوجيه، وبذلك يُعدُّ المجتمع الموضح للنص والمتلقي له، إذ له أهمية بالغة في تحديد المعنى .

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح الانسجام ((والأمر في قوله تعالى: **﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾** [البقرة:١٨٩]، ليس أمرًا مولويًا وإنما هو إرشاد إلى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجري على العادة المألوفة المستحسنة الموافقة للغرض العقلائي في بناء البيوت ووضع الباب مدخلا ومخرجا فيها، فإن الكلام واقع موقع الردع عن عادة سيئة لا وجه لها إلا خرق العادة الجارية الموافقة للغرض العقلائي...))[٢]، نلمح من كلام السيّدِ الطباطبائيِّ أنَّه لا يمكن تفسير القرآن الكريم دون الالتفات إلى الثقافة السائدة في المجتمع، لأنَّ القرآن الكريم تعامل مع تلك الثقافة وقام بتغييرها بشكل تدريجي ، والفرق بين الأمر المولوي والأمر الارشادي ،أنَّ ((الأمر المولوي وهو ما يستتبع الثواب على امتثاله والعقاب على مخالفته، أمّا الإرشادي فلا يترتب على موافقته أو مخالفته الثواب والعقاب))[٣]، أي: أنَّ الأول فائدته وملاكه آخروية والثاني ملاكه ومصلحته دنيوية وسياق الآية يؤيد ذلك؛ لأنَّ تسور الباب من منافيات الآداب.

ولا يخفى على ذي لب أنَّ القرآن الكريم قد راعى هذا السَّياق من خلال تشريعاته السمحاء فيما يتعلق بأمور الزواج والطلاق والميراث فضلًا عن نهيه عن عادات اجتماعية سيئة كانت سائدة في الجاهلية مثل وأد البنات قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ

(١) الميزان:٢/٥٧.

(٢) المصدر نفسه :٢/٥٨.

(٣) المحكم في أصول الفقه ، السيد محمد سعيد الحكيم: ٤ / ١٣٤.

﴿قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((الموءودة البنت التي تدفن حية وكانت العرب تَئِدَ البناتِ خوفًا من لحوق العار بهم كما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل:٥٨-٥٩]،والمسؤول بالحقيقة عن قتل الموءودة أبوها الوائد لها لتنتصفَ منه وتنتقم لكن عُدَّ المسؤول في الآية هي الموءودة نفسها فسُئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض والتوبيخ لقاتلها وتوطئة ؛لأنْ تسألَ الله الانتصاف لها من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه))[١] .

ومن الشواهد القرآنية الأُخر على أثر السِّياق غير اللغوي في بيان انسجام النص القرآني ما جاء قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ [المجادلة:١،٢]،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ((الظهار كان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلية كان الرجلُ يقولُ لامرأتهِ: أنتِ مني كظهرِ أمي فتنفصل عنه وتحرم عليه مؤبدة وقد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته إلى رسول الله (ﷺ) تسائله فيه لعلها تجد طريقا إلى رجوعه إليها وتجادله (ﷺ) في ذلك وتشتكي إلى الله فنزلت الآيات))[٢]،وفي هذا السِّياق لايمكن فهم الآيات بمجرد الأدوات اللغوية ولابد من الإحاطة بجوانبها الاجتماعية والوقوف على تفاصيلها الحقيقية[٣].

وجاءت النصوص القرآنية على وفق الأحداث المكية والمدنية التي مرّ بها الرسول (ﷺ)، وكانت تعالج موضوعات متنوعة وعلى اتجاهات مختلفة منها سياسية ومنها اجتماعية ومنها أخلاقية وأخرى إدارية وعلى هذا الأساس كان لازمًا على النصّ بمستويات جلية مشرقة مرة ومرة خفية مستورة وأنَّ هناك لكلِّ نصّ

(١) الميزان:٢٠/٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه:١٩/١٨٦.

(٣) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د.عودة خليل أبو عودة:٥٠٧، ومفهوم التماسك وأهميته في الدراسات النصية: د. جمعان عبد الكريم ، مجلة علامات، ٢٠٠٧ مج ٦١: ٤٣.

قرآني مناسبة نزول مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتلازم وانسجام النصّ ،وكذلك هناك علاقات خارجية ما بين دلالات النصّ وأخرى داخلية ؛لأن النصّ القرآني يقدم نفسه بوصفه نصوصًا متداخلة في أطار واحد ،فضلا عن كونه يقدم نفسه بوصفه نصًّا واحدًا في أطار السور المتعددة[١].

ومن الشواهد القرآنية على أثر السِّياق غير اللغوي في بيان انسجام النص القرآني ما جاء في قو قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤] يقولُ السيّد الطباطبائي : ((الظاهر أنَّ فاعل (زُيِّنَ) غيره تعالى وهو الشيطان أو النفس... فلأنَّ المقام مقام ذم الكفار بركونهم إلى هذه المشتهيات من المال والأولاد واستغنائهم بتزينها لهم عن الله سبحانه، والأليق بمثل هذه الزينة الصارفة عن الله الشاغلة عن ذكره أنْ لا ينسبَ إليه تعالى))[٢] .

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ((كون التزيين هو المنسوب إلى الله سبحانه لا يلائم قوله تعالى في آخر الآية: (ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) وقوله تعالى في الآية التي بعدها ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥] ، فإن ظاهره أنَّه كلامٌ موضوعٌ لصرفهم عن هذه الشهوات الدنيوية وتوجيه نفوسهم إلى ما عند الله من الجنان والأزواج والرضوان ؛ ولا معنى للصرف عن المقدمة إلى ذي المقدمة ، فإنَّ في ذلك مناقضة ظاهرة وإبطالًا للأمرين معًا كالذي يريد الشبع ويمتنع عن الأكل))[٣] .

ويردُّ السيِّد الطباطبائيُّ على مَنْ يذهب ((إلى أنَّ هنا تماثلًا بين هذه الآية وقوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الاعراف:٣٢]،ولازم

(١) يُنظر: دلالة السِّياق في القصص القرآني : د محمد عبد الله علي سيف العبيدي:٢٠١.
(٢) الميزان:١١٨/٣.
(٣) المصدرنفسه:٣/ ١١٩.

انطباق المعنى أنْ يكون فاعل التزيين في هذه الآية أيضًا هو الله سبحانه قلت: بين الآيتين فرق من حيث المقام: فإنَّ المقامَ فيما نحن فيه: مقامُ ذم هذه الشهوات المحبوبة للناس لصرفها وإلهائها الناس عما لهم عند الله، وحثهم على الإعراض عنها والتوجه إلى ما عند الله سبحانه بخلاف تلك الآية فإنَّها مسوقة لبيان أنَّ هذه النعم زينت للإنسان وأنَّها للمؤمنين في هذه الدنيا بالاشتراك في الدنيا وبالاختصاص في الآخرة، ولذلك بدل لفظ الناس هناك بلفظ العباد، وعدت هذه الزينة رزقًا طيبًا)) [١].

وقد أشرتُ سابقًا إلى أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يستعمل المقام كدأبِ البلاغيين عند تناوله السّياق غير اللغوي، ويؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ على أنَّ النصَّ هو سياق المعنى ،وهناك أنواع من النصوص تُخلَق في ثقافات لا تعرفها ثقافات أُخريات، وهناك نصوص لا يمكن فهم روابطها إلّا ضمن موقف اجتماعي معين، وإنَّ مقدار فهم الملفوظات الواردة في حوار تتناسب طرديًا في السِّياق[٢].

إنَّ خلاصة ما أفاده السيّدُ الطباطبائيُّ، أنَّ السِّياقَ غيرَ اللغويَّ هو من الأهمية بحيث لا يمكن أنْ تفهم الأحكام الشرعية من دونه لما له من فائدة في إظهار الحقائق والأحكام، ولكن السيّد الطباطبائيّ تبقى له مزيته ؛لأنَّه استطاع عن طريق علم النزول وأسبابه أنْ يحدثَ نقلة نوعية في إطارِ المنهجِ والرؤيةِ القرآنيةِ، لأنَّه لم يستندْ إلى الروايةِ وما تفيده من معنى إلَّابعد عرضها على القرآن الكريم والتعرف إلى سياقها، فإذا لم يقبلها السِّياق القرآني طرحها جانبًا، وهذا ما جعل منهجه متميزًا لجهة التفسير والرواية معًا، ولم يسبق لأحد من المفسرين أنَّ خلص إلى نتائج مهمة كالتي خلص إليها السيّدُ الطباطبائيُّ في تفسيره [٣] .

(١) الميزان:١١٩/٣

(٢) يُنظر: إشكالات النص دراسة لسانية نصية د. جمعان عبد الكريم:٤٠٦.

(٣) يُنظر: علوم القرآن عند العلّامة آية الله السيد محمّد حسين الطباطبائي (دراسة مقارنة) : ٣٥ .

المناسبةُ :

إنَّ علمَ المناسبةِ أساسٌ في التفسير؛ لأنَّه يسهل فهم الآيات ويرجح بين الآراء وهذا ما يعينُ المفسرَ على الأخذِ بالمعنى الراجحِ الذي يربط بين الآياتِ ويدرأ التأويلات المتعارضة دلاليًا مع النصوص القرآنية وجعل أقربها إلى الصواب أكثرها انسجامًا مع سياق النص ، والمناسبةُ تثبتُ تلاحمُ المكي والمدني في السورةِ الواحدةِ .

وقد تنبه المُفسِّرون إلى ظاهرةِ الترابطِ والانسجام في النصِّ القرآنيِّ يقول السِّيوطيُّ(ت٩١١هـ):((المناسبةُ في اللغةِ كالمشاكلةِ والمقاربةِ ،ومرجعها في الآيات ونحوهما إلى رابط بينهما عام أو خاص أو عقلي أو حسّي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصبحُ التأليف حالته حال البِنَاء المحْكَمِ المتلائم الأجزاء)) [١].

وقال في موضع آخر: ((أمّا تناسق الآيات داخل السورة نفسها وداخل القرآن كله، فيعرف بطريق النظر الى الغرض الذي سيقت له السورة ،وما يحتاج اليه ذلك الغرض من مقدمات ....فهذا هو الأمر الكلّي المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن)) [٢].

ومن الذين صنّفوا في هذا العلم، أبو جعفر إبراهيم بن الزبير الغرناطي الأندلسي (ت٧٠٨هـ) في كتاب سمّاه (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)، ثم جاء بعده كمال الدين بن الزملكاني (ت٧٢٧هـ)، صاحب (البرهان في إعجاز القرآن)، الذي اهتَمَّ اهتمامًا كبيرًا بترتيب المصحف وبَيَّنَ أسراره، فقال: ((عند التأمل يظهر أنَّ القرآن كلَّه كالكلمة الواحدة)) [٣]، وأَفْرَدَ السيوطي (ت٩١١هـ) لهذا العلم كتابيْنِ أسماهما: (تناسق الدّرر في تناسب السور)، و(أسرار التنزيل))).

ومن أوسع المراجع في هذا العلم كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات السور) لبرهان الدين البقاعي المتوفي (٨٨٥هـ) حيث ذكر المناسبات بين آيات القرآن الكريم سورة سورة،

(١) الاتقان في علوم القرآن:١٠٨/١.

(٢) معترك الاقران في إعجاز القرآن:٦٢/٢.

(٣) أبجد العلوم، المجلد الثاني، باب علم معرفة مناسبات الآيات والسور، صديق بن حسن القنوجي : ٥١٠/٢.

ولديه ولع في استعمال التفسير الإشاري، واستعمال حساب الجمل، وإيراد ما في التوراة والإنجيل، وقد أُخِذ عليه ذلك[١].

المناسبةُ لغةً:

المناسبةُ في اللغةِ: مصدر من ناسب يناسب مناسبة، ومادة (النون، والسين، والباء) تدور حول معنى:(اتصال شيء بشيء)،ومنه النسب، سمي لاتصاله والاتصال به[٢] والمناسبة (تعني المشاكلة والمقاربة)[٣]،والمشاكلة بمعنى :((المماثلة تقول: هذا شكل هذا أي: مثله، وهي مأخوذة من الفعل (نَسَبَ):يعني اتصال الشيء بالشيء ،ومنه (النسب) أي: القرابة))[٤]، والمصدر (نسبًا)،والجمع(مناسبات) [٥].

ويتضح من هذه التحديدات المعجمية أنَّ كلمة (المناسبة) ترادف الملائمة والموافقة والمشاركة والاتصال مما ينم عن ملائمة العناصر واتصالها في بنية النص أو تلميح إلى وسائل يتحقق بها الانسجام.

المناسبةُ اصطلاحًا:

المناسبةُ: ((هي علمٌ تعرفُ منه علل الترتيب وثمرتها الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه للترتيب أجزاؤه ، وهو سر البلاغة ، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال))[٦].

وتعرَّف أيضًا ((بأنَّها هي مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض))[٧].

---

(١) يُنظر: علم المناسبات في السور والآيات، د حمد بن عمر بازمول :٦٢.

(٢) يُنظر: مقاييس اللغة: ٤٢٣/٥، (نَسَبَ).

(٣) يُنظر: القاموس المحيط ، الفيروز آبادي : ١٢٧،(نَسَبَ).

(٤) المعجم الوسيط،: ٢ /٩١٦ ،(نَسَبَ).

(٥) يُنظر: المعجم العربي الاساسي، تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب: ١١٨٨،(نَسَبَ).

(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي:٥/١.

(٧) أبجد العلوم:٤٣/١-٤٤.

ويُعرِّفُها الدكتور مصطفى مسلم بأنَّها((الرابطة بين شيئين أي: وجه من الوجوه وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وبعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها))[١].

ويظهر أنسب تعريفات للمناسبة التعريف الأخير؛ لأنَّه يشمل على المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة والمناسبة بين السور في القرآن الكريم فضلًا عن أنَّه يطابق رؤية السيّدِ الطباطبائيِّ في مفهوم المناسبة ولكنه يقيّدها بالآيات المتحدة النزول والآيات التي بينها ارتباط ظاهر، ويمكن أنْ نستنتجَ تعريفًا في ضوءِ ما سبق بأنَّ المناسبةَ: هي دراسةُ العلاقاتِ داخل النص وكشف الروابط بين الكلام من أجل بيان انسجام النص وإبراز وحدة النص القرآني بوصفه بناءً محكمًا متلائم الأجزاء وبيان الروابط التي تُكَوّن الصورة المثلى للمعنى.

وإنَّ هناك تداخل كبير بين مفهوم السِّياق ومفهوم المناسبة ، مرجع ذلك إلى اشتراكهما في كثير من الخصائص التي تميز كل واحد منهما ،ولكن إنْ رجعْنا إلى الامتدادِ المفهومي لكليهما وجدنا الفرق الذي يكمن ما بينهما ، ((أمَّا عن الفرق بين السِّياق والمناسبة... فوظيفة المناسبات الكشف عن وجوه الربط بين الآيات والمقاطع التي تظهر- لأول وهلة- وجهة ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ولا يتم الربط إلّا بعد معرفة المعاني التي احتوتها الآيات السابقة واللاحقة ،وهذه وظيفة السِّياق ،وذلك من خلال الكشف عن معاينه المتتابعة، فإنَّ الذي يشخّص المعاني ويشكّلها ويحدّد بدايتها ونهايتها سياقها فالسِّياق خادم لعلم المناسبات، ولا يتم استجلاء المناسبات إلاّ بعد معرفة سياق المقاطع القرآنية وحينئذ يتحدد الموضوع ،وعليه يكون ابراز المناسبة في غاية الوضوح))[٢].

فإنَّ المناسبة إذن، تحقّق الربط بين الآية وما تسبقها من آيات ومن ثم فهى تحقق الانسجام بين هذه الآيات، والمناسبة في القرآن الكريم أنواع عديدة سوف نتطرق لها بعد أنْ نُبينْ موقف السيّد الطباطبائيّ من الترتيب التوقيفي بين الآيات في السورة الواحدة .

(١) مباحث في التفسير الموضوعي،د. مصطفى مسلم محمد:٥٨.

(٢) نظريّةُ السِّياق القرآني، د. مثنى عبد الفتاح محمود،:١٩.

المبحث الأول : موقفُ السيّدِ الطباطبائيِّ من الترتيبِ التوقيفي بين الآياتِ في السورةِ الواحدةِ:

إنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ لا يؤمن بترتيب الآيات ترتيبًا توقيفيًا إلَّا ما دلَّ عليه الدليل أنَّه ترتيب توقيفي ويقول في ذلك: ((إنَّ وقوع بعض الآيات القرآنية التي نزلت متفرقة موقعها الذي هي فيه الآن لم يخل عن مداخلة من الصحابة بالاجتهاد)) (١).

ويبرهن السيّدُ الطباطبائيُّ على ما يتبناه بمناقشته للرواية التي اعتمدها أصحاب الاتجاه التوفيقي ((وأما رواية عثمان بن أبي العاص عن النبي (θ): أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠] فلا تدلُّ على أزيدِ من فعله (θ) في بعض الآيات في الجملة لا بالجملة، وعلى تقدير التسليم لا دلالة لما بأيدينا من الروايات المتقدمة على مطابقة ترتيب الصحابة ترتيبه (θ)، ومجرد حسن الظن بهم لا يسمح للروايات بدلالة تدلُّ بها على ذلك وإنما يفيد أنَّهم ما كانوا ليعمدوا إلى مخالفة ترتيبه (θ) فيما علموه لا فيما جهلوه ،وفي روايات الجمع الاول المتقدمة أوضح الشواهد على أنهم ما كانو على علم بمواضع جميع الآيات ولا بنفسها)) (٢).

ويضيفُ السيّدُ الطباطبائيُّ قائلًا:((... إنَّ الآياتَ كانت مرتبةً عند النبي (θ) بحسب ترتيب النزول فكانت المكياتُ في السورةِ المكيةِ والمدنياتِ في السورةِ المدنيةِ اللهم إلَّا أنْ يفرضَ سورةٌ نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة، ولا يتحققُ هذا الفرض إلَّا في سورةٍ واحدةٍ، ولازم ذلك أنْ يكونَ ما نشاهده من اختلاف مواضع الآيات مستندا إلى اجتهادٍ من الصحابةِ)) (٣).

ويستمرُ السيّدُ الطباطبائيُّ في توضيحِ ذلك بقوله :((إنَّ هناك ما لا يحصى من رواياتِ أسباب النزولِ يدلُّ على كونِ آياتٍ كثيرةٍ في السورِ المدنيةِ نازلة بمكة وبالعكس وعلى كون آياتٍ من القرآن نازلة مثلًا في أواخرِ عهد النبي (θ) وهي واقعة في سور نازلة في أوائل الهجرة وقد نزلت بين الوقتين سور أخرى كثيرة، وذلك كسورةِ البقرةِ التي نزلت في السنة الأولى من الهجرة وفيها آيات الربا وقد وردت الروايات على أنَّها من آخر ما نزلت على

(١) الميزان:١٢/١٢٥.
(٢) المصدر نفسه :١٢/١٢٥.
(٣) المصدر نفسه :١٢/١٢٦.

النبي (θ) حتى ورد عن عمر أنَّه قال: مات رسول الله (θ)ولم يبين لنا آيات الربا، وفيها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] ، وقد ورد أنَّها آخر ما نزل من القرآن على النبي (θ)))[١]، ويضيفُ السيّدُ الطباطبائيُّ قائلًا :((فهذه الآيات النازلة مفرقة الموضوع في سور لا تجانسها في المكية والمدنية موضوعة في غير موضعها بحسب ترتيب النزول وليس إلَّا عن اجتهادٍ من الصحابةِ))[٢].

ويثبتُ السيّدُ الطباطبائيُّ برواياتِ الجمهورِ لا توقيف في ترتيب الآيات ولكن هنا إصرارًا ((على أنَّ ترتيبَ الآياتِ توقيفي فآيات المصحف الدائر اليوم وهو المصحف العثماني مرتبة على ما رتبها عليه النبي (θ) بإشارة من جبريل، وأولوا ظاهر الروايات بأنَّ جمعَ الصحابةِ لم يكن جمع ترتيبٍ وإنما كان جمعًا لما كانوا يعلمونه ويحفظونه عن النبي (θ) من السور وآياتها المرتبة، بين دفتين وفي مكان واحد))[٣] .

ويؤكّدُ السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ كيفية الجمع الأول الذي تدلُّ عليها الروايات تدفع هذه الدعوى دفعًا صريحًا[٤]، ويضيف ((وربما استدل عليه بما ادعاه بعضهم من الإجماع على ذلك فقد نقل السِّيوطيُّ في الإتقان عن الزركشي دعوى الإجماع عليه وعن أبي جعفر بن الزبيرنفي الخلاف فيه بين المسلمين، وهو إجماع منقول لا يعتمد عليه))[٥].

ويستمرُ السيّدُ الطباطبائيُّ في مناقشةِ الآراء التي تتبنى الترتيب التوقيفي بقوله: ((وربما استدل عليه بالتواتر ويوجد ذلك في كلام كثير منهم ادعوا تواتر الترتيب الموجود عن النبي (θ) وهو عجيب وقد نقل في الإتقان، بعد نقله ما رواه البخاري وغيره بعدة طرق عن أنس أنَّه قال: مات النبي (θ) ولم يجمع القرآن غير أربعة. أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، وفي رواية: (أُبَيْ بن كعب) بدل أبي الدرداء ...))[٦].

---

(١) الميزان :١٢٦/١٢.

(٢) المصدر نفسه:١٢٦/١٢.

(٣) المصدر نفسه:١٢٧/١٢.

(٤) يُنظر: المصدر نفسه:١٢ /١١٦ –١١٩.

(٥) المصدر نفسه:١٢٧/١٢.

(٦) المصدر نفسه :١٢٧/١٢.

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في مناقشته لمباني الترتيب التوقيفي ((ونظيره ما في الإتقان،... بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال: مات (أبو بكر) ولم يجمع القرآن وقتل عمر ولم يجمع القرآن))[١].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ بتفنيد الأقوال((وأما قول بعضهم إنَّه يكفي في تحقق التواتر أنْ يحفظَ الكلُّ كلَّ القرآنِ على سبيل التوزيع فمغالطة واضحة؛ لأنَّه إنما يفيد كون مجموع القرآن من حيث المجموع منقولًا بالتواتر وأما كون كل واحدة من الآيات القرآنية محفوظة من حيث محلها وموضعها بالتواتر فلا وهو ظاهر))[٢].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في نقل الروايات((وكان رسول الله (θ) يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أنَّ هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا))[٣].

وينقلُ السيّدُ الطباطبائيُّ الاقوالَ بكلِّ أمانةٍ علميةٍ ويناقشُها ويُشركُ القارئ في تتبع هذه الآراء دون توجه مذهبي كما عهدناه ((أمّا قولهم: إنَّ الصحابةَ إنما كتبوا المصحف على الترتيب الذي أخذوه عن النبي (θ) من غير أنْ يخالفوه في شيء فيما لا يدلُّ عليه شيء من الروايات المتقدمة، وإنَّما المسلم من دلالتها أنَّهم إنَّما أثبتوا ما قامت عيه البينة من متن الآيات ولا إشارة في ذلك إلى كيفية ترتيب الآيات النازلة مفرقة وهو ظاهرٌ نعم في رواية ابن عباس المتقدمة عن عثمان ما يشير إلى ذلك غير أنَّ الذي فيه أنَّه كان (θ) يأمر بعض كتاب الوحي بذلك وهو غير إعلامه جميع الصحابة ذلك على أنَّ الرواية معارضة بروايات الجمع الأول وأخبار نزول بسم الله وغيرها))[٤] .

ويتبين من كلام السيّدِ الطباطبائيِّ أنَّه يرى أنَّ العبورَ من المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن يتم عن طريق التحليل والتأمل بقوله:((وأما قولهم: إنَّ القرآن مكتوب على هذا الترتيب في اللوح المحفوظ أنزله الله إلى السماء الدنيا ثم أنزله الله مفرقا عند الحاجة ، فإشارة إلى ما روي مستفيضًا من طرق الشيعة وأهل السُنة من نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى

(١) الميزان :١٢٨/١٢.
(٢) المصدر نفسه:١٢٨/١٢.
(٣) المصدر نفسه :١٢٨/١٢.
(٤) الميزان :١٢٩/١٢.

السماء الدنيا ثم نزوله منها نجومًا إلى النبي (θ) لكن الروايات ليس فيها أدنى دلالة على كون القرآن مكتوبًا في اللوح المحفوظ منظمًا في السماء الدنيا على الترتيب الموجود في المصحف الذي عندنا وهو ظاهر))[١].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليلاته النصية للروايات ومناقشتها علميًا((وأما قولهم: إنَّه قد حصل اليقين بالنقل المتواتر عن رسول الله (θ) بهذا الترتيب الموجود في المصاحف فقد عرفت أنَّه دعوى خالية عن الدليل وأنَّ هذا التواتر لا خبر عنه بالنسبة إلى كلِّ آيةٍ آيةٍ))[٢].

ويخرج السيّدُ الطباطبائيُّ بمحصلةٍ نهائيةٍ من أقوالهم ورواياتهم مطبقًا الانسجام النصي على ما نُقل عند أئمة القوم دون تجريح ،أو تقليل من فكرةٍ معينةٍ ،ولكن بمنهج علمي موضوعي((ثبت أنَّ سعي الصحابةِ كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فإنَّ القرآنَ مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظِ على هذا الترتيبِ أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقًا عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة))[٣].

وبعدها يتبنى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ ترتيبَ الآيات ليس توقيفيًا ماخلا الآيات النازلة مرة واحدة ((ولعل المراد ضم بعض الآيات النازلة نجوما إلى بعض السور أو إلحاق بعض السور إلى بعضها مما يتماثل صنفًا كالطوال والمئين والمفصلات، فقد ورد لها ذكر في الأحاديث النبوية، وإلَّا فتأليف القرآن وجمعه مصحفًا واحدًا إنَّما كان بعد ما قبض النبي (θ) بلا إشكال، وعلى مثل هذا ينبغي أنْ يحمل ما يأتي))[٤].

وللسيّدِ الطباطبائيِّ موقفٌ من قضية الإجماع إذ يرى أنَّ الإجماعَ لا يمثلُ على أبعدِ تقديرٍ أكثر من الحجة الظنية ،ومن ثمَّ أنَّ الإجماع لن يكونَ له قيمةٌ ما لم تكنْ ثمةُ مبررات نصية لهذا الإجماعِ ، ومن هنا عدَّ السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ الالتباس الديني لفكرة الإجماع جاء عن طريق مدرسة الخلافة وأهل السُنَّة وذلك بواسطة صنع أحاديث برروا فيها قيمة إجماع الأمة من قبيل الحديث المعروف (لا تجتمع أمتي على ضلالة)، وهذا الموقف من الإجماع

(١) الميزان:١٢/١٢٩. والإتقان في علوم القرآن: السيوطي:١/ ١٩٩

(٢) المصدر نفسه:١٢/-١٣٠١٢٩.

(٣) المصدر نفسه:١٢/١٢٨. ويُنظر: شجرة النور المالكية، في طبقات المالكية، الشيخ محمد بن محمد مخلوف :١١٣/١

(٤) الميزان:١٢/١٢٩.

يردفه بنقطة حساسة في غاية الأهمية،فالإجماع قد تحول إلى وسيلة لرد كل دليل قرآني أو عقلي أو من السُنَّة [١].

ومن الجدير بالذكر أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يرى عن طريق البحوث الكلامية بأنَّ حجة المدَّعي تتم عن طريق القرآن أو السنة أو العقل ، بيد أنَّها ترد ويُعرض عنها لكونها مخالفة لإجماع علماء ذلك المذهب ومفكريهم، وهذا الموقف الذي يقفه السيّدُ الطباطبائيُّ من الإجماع يكاد أنْ يقفَهُ من رواة الحديث، الذي يراه السيّدُ الطباطبائيُّ بعد احترامه لموقعية الحديث الشريف عن المعصومين (عليهم السلام) أنَّ ثمةَ علاقة معينة بين الممارسات القمعية للسلطة وبين تعاظم دور الحديث والمحدثين لدى الصحابة والتابعين، وبعد ذلك القضاء على تيار الاعتزال الذي يراه السيّدُ الطباطبائيُّ الاستثناء الوحيد على ما يبدو في عالم الجمود، كل ذلك يُسهم في تعزيز موقعية الحديث وتحوّل الصحابة ومن بعدهم من المحدثين إلى مصادر للعلم والتربية، ولا يرى السيّدُ الطباطبائيُّ مشكلةً في أساس مرجعية الحديث والمحدثين بيد أنَّ لُبَّ المشكلةِ عنده هو في مجموعة عوامل أحاطت بالحديث (الذي أصبح هو والمحدثون به مرجعية) وضعت الفكر الإسلامي عمومًا في مأزق، إذ أنَّ شيوع ظاهرة الحديث ومرجعية المحدّث صاحبته سلسلة من الأمور المقلقة التي تقف على رأسها ظاهرة افتقاد الصحابة وبشكل عام على حد تعبير السيّدُ الطباطبائيُّ لروح البحث التحقيقي [٢].

وتمثل بعضها في انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وكيف توقّف النمو في علوم المسلمين بعد أنَّ أصبحت المعارف حكرًا على أشخاصٍ بعينهم ألبستهم نظرة الجهل ثوبًا فضفاضًا من القداسة الوهمية الزائفة [٣].

وحتى نتأكد أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ انسجم مع نفسه في خطابه المنهجي هذا ، لابد من العودة إلى نتاجه الفكري(تفسير الميزان) لمعرفة هل كان العقل عنده أساسًا للنشاط الفكري الديني أو لم يكن؟ وهل طبق السيّدُ الطباطبائيُّ ما نَظَّر إليه منهجيًا من المرجعية المطلقة للعقل واستبعاد هاجس النص (موافقة الشرع) في عملية البحث والاستدلال؟

---

(١) يُنظرُ: (علم الكلام عند السيّد محمد حسين الطباطبائي، قراءة في جدل العقل والنص) ، حيدر حب الله ، مجلّة الكلمة، العدد ٣٦، ٢٠٠٢م:٦٣

(٢) يُنظرُ: علم الكلام عند العلامة الطباطبائي قراءة في جدل العقل والنص :٩.

(٣) يُنظر: العلّامة الطباطبائي ملامح من سيرته الذاتية ومنهجه العلمي السيد كمال الحيدري:١١٧.

انتهج السيّدُ الطباطبائيُّ في تفسير الميزان منهجًا مهمًا في التعامل ،مع النصوص المتصلة بالنص القرآني سواءٌ منها نصوص أسباب النزول أو بعض النصوص التفسيرية، والشيء الذي نَلْحَظُهُ في الميزان أنَّ السيّدَ الطباطائيَّ لم يحضرْ النصَّ في بحثه التفسيري، بل تعامل بروح أكاديمية صرفة مع تفسير النص مخضعًا عمله لقواعد التفسير نفسها، وعندما كان يأتي للبحث الروائي الذي كان يعقده في أواخر كلِّ فصلٍ تفسيري كان يكتفي بمجرد عرض النصوص دون أنْ يوحيَ لنا بأنَّه يركز نظره عليها كثيرًا ما لم تكن القضية من حيث اساسها روائية، انطلاقًا من ذلك لم يكن السيّدُ الطباطبائيُّ ليخشى النصَّ الروائي بل كان يتعامل معه بروح فوقية ـ بالمعنى غير السلبي للكلمة ـ،ولهذا لم يكن ليتحفظ عن الاسراع في استبعاد نص روائي أحيانًا أو تجاهل آخر أحيانًا[١].

ومن النقاط الأخرى التي ركّزَ عليها السيّدُ الطباطبائيُّ إلحاحه الكبير على ضرورةِ استئناف الفكر الاجتماعي ،وأنْ يحلَّ هذا الأخير محل الفكر الفردي الذي ورثناه من الوضع العام الذي تحكم بتاريخ المسلمين[٢].

(١) يُنظر علم الكلام عند العلامة الطباطبائي قراءة في جدل العقل والنص :٩-١٠.

(٢) يُنظر الشيعة نص الحوار مع المستشرق كوربان، مقدّمة المترجم السيد أحمد الحسيني:٧.

المبحث الثاني: المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة(المناسبة الداخلية) :

اعتمدت بعض التفاسير علم المناسبة بين الآيات فدرست العلاقات الدلالية والانسجام من هذا الجانب، دون أنْ تشيرَ إلى ذلك صراحة، واعتمدت ذلك على مصطلحاتٍ تقتربُ مما تناولته الدراسات الغربية، فتشترك معها في نقاطٍ ، وتختلفُ معها في أُخريات، كمفهوم المناسبة الذي يختلف عن الرَّابطية ؛لأنَّ الرَّابطية تحمل خصائص تداولية تتعلق بفعل التواصل مع المتلقي ، بينما كان مفهوم المناسبة في التراث العربي الإسلامي مفهومًا ضيقًا يرتبط بالعلاقات الدلالية الخاصة(١)، ويقترب مفهوم المناسبة بين الآيات والسور من مفهوم الانسجام ،والمناسبة كما يرى إبراهيم الفقيِّ هي من أهم العوامل التي تُسهم في تحقيق الانسجام(٢).

وبعبارة أخرى فإنَّ البحثَ في انسجام النص القرآني يضطلعُ به علم المناسبة الذي يجعل للعرب والمسلمين السبق في إدراك علم النص، وفي تحليل النص على مستوى يتجاوز حدوده الجملة الضيقة(٣).

١- مناسبة اسم السورة لمضمونها:

دائمًا ما يكون الاسم هو الرمز الأول الذي يعطي انطباعًا عامًا عن موضوع هذا المسمى ، فنجد تناسبًا كبيرًا بين المضمون والاسم الذي عنون به ، أو رمز به ،وهذا ما نجده في أسماء سور القرآن ؛ إنَّ العقل المتدبر الواعي يدرك أنَّ هذه الأسماء ناسب كل اسم منها السورة التي وضع لها ، حيث اختيرت أسماؤها تكشف عن تناسب شديد يربط بين مضمون السورة واسمها ، عُدَّ العنوان من عوامل الانسجام النصي، وأولت الدراسات الدلالية الحديثة اهتمامًا واسعًا بالعنوانِ في النصوصِ الأدبيةِ بعدّه علامة إجرائية ناجحة في مقاربة النص بغية استقرائه وتأويله فهو أي:(العنوان) يعدُّ مفتاحًا إجرائيًا في التعاملِ مع النصِ في

(١) يُنظر : الانسجام في القرآن الكريم (سورة النور أنموذجًا) ، أطروحة دكتوراه ، نوال لخلف ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الجزائر:٢٠٠٦-٢٠٠٧م:١٢١.

(٢) يُنظرُ: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق:١٠١/٢.

(٣) الانسجام في القرآن الكريم (سورة النور أنموذجًا):١٢٣.

بعده الدلالي، وتعدُّ العنونة للنصوصِ كالتسمية للأشياء فيه يعرف وبفضله يتداول[١] ،وترتبط دلالة العنوان بالنص بوصفه رسمًا وبوصفه أثرًا أو علامةً، وفي هذا الحال يتداخل عنصران متضافران، أولهما: المعنى الحرفي الذي تقدمه الألفاظ للعنوان ،وثانيهما: السِّياق الثقافي والاجتماعي العام الذي يؤطِّر النص[٢].

وتجدرُ الإشارة هنا إلى أنَّ علماءَ التفسير أولوا اهتمامًا كبيرًا بالعنونةِ في تفسير النص القرآني وعلاقة النص بالعنوان[٣]،ونحاول هنا أنْ نُبينَ رؤية السيّدِ الطباطبائيِّ للانسجام الواقع بين اسم السورة ومضمونها.

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ:((تقسيم القرآن الكريم إلى سورٍ تقسيم قرآني كتقسيم الآيات ، وقد صرّح تعالى في مواضع بلفظة (السورة) ومن ذلك قوله تعالى ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾[النور:١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾[التوبة:٨٦]، قوله تعالى : ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة:٢٣] ، وتسمية السور تناسب موضوع ذكر فيها أو جاء الاسم نفسه فيها كسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الإسراء وسورة التوحيد ، وفي نسخ القرآن القديمة كثيرًا ما كانوا يكتبون سورة تذكر فيها البقرة ، وسورة يذكر فيها آل عمران))[٤].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ ((وربّما تكون جملة من سورة معرّفًا لها كسورةِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١] وسورة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾[القدر:١] ...،وأحياناً يكون وصف السورة معرّفًا لها مثل سورة فاتحة الكتاب ، وهذه الأسماء والنعوت كانت موجودة في الصدر الأول من الإسلام بشهادة الآثار والتاريخ ، وحتى أسماء بعض السور جاءت في الأحاديث النبوية كسورةِ البقرةِ، وسورة آل عمران ، وسورة هود ، وسورة الواقعة))[٥].

---

(١) يُنظر: العنوان وسيموطيفيا والاتصال، د. محمد فكري الجزار:٧.

(٢) يُنظر: الخطاب الروائي في الكويت: أنماط العنونة ومستويات الصوت السردي، مرسل فالح العجمي ، مجلة العلوم الإنسانية ، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٩٢، خريف ٢٠٠٥م: ١٤.

(٣) يُنظر :لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب : ٥٩.

(٤) القرآن في الإسلام : ١٦٣-١٦٤.

(٥) يُنظر: القرآن في الاسلام:١٦٤

ويؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ أسماءَ السورِ أيضًا غير توقيفية ((وإنَّ كثيرًا من هذه الأسماءِ عينها الرسول (θ) نتيجة لكثرةِ الاستعمالِ، وليس شيء منها توقيفيًا شرعيًا))[١].

إنَّ هذا الاتجاه في التحليل اللغوي عند السيّدِ الطباطبائيِّ الذي يبحث عن المعنى من النصِّ القرآنيِّ بأكمله، يُعدُّ تطورًا في الدراسات اللغوية العربية ،وهو جدير بالإعجاب والثناء ويسجل له السبق في ميدان الدلالة.

ولعل الفضل فيه يعود إلى النصِّ القرآنيِّ نفسه ، الذي كان ومازال غاية الدرس اللغوي العربي ، فقد انفردت الحضارة العربية الإسلامية بنص خالد به تميزت من سواها فوسمت بأنَّها حضارة النص ، بمعنى أنَّها أثبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس ،لا يمكن تجاهل النص فيه[٢].

وخيرُ ما يوضّح المناسبة بين اسم السورة ومضمونها سورة الحمد يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] ، الناسُ ربما يعملون عملًا أو يبتدئون في عملٍ ويقرنونه باسمِ عزيزٍ من أعزتهم أو كبير من كبرائهم، ليكون عملهم ذاك مباركًا بذلك متشرفًا، أو ليكون ذكرى يذكرهم به، ومثل ذلك موجود أيضًا في باب التسمية فربما يسمون المولود الجديد من الإنسان، أو شيئا مما صنعوه أو عملوه كدار بنوها أو مؤسسة أسسوها باسم من يحبونه أو يعظمونه))[٣].

يوضّحُ ـ هنا ـ السيّدُ الطباطبائيُّ دور العنوان في انسجام النص ابتدأ الكلام باسمه عز اسمه ليكون أدبًا يؤدّبُ به العباد في الأعمال والأفعال والأقوال، فيبتدؤون باسمه ويعملون به، فيكون منعوتًا بنعته تعالى مقصودًا لأجله سبحانه فلا يكون العمل هالكًا باطلًا مبترًا لأنَّه باسم الله الذي لا سبيل للهلاك والبطلان إليه، والغرض الذي يدل عليه سرد الكلام في هذه السورة هو حمد الله بإظهار العبودية له، فهو كلام يتكلم به الله سبحانه نيابة عن

(١) يُنظر: القرآن في الاسلام:١٦٤

(٢) يُنظر: السِّياق في كتب التفسير (تفسير الكشاف وابن كثير إنموذجا) رسالة ماجستير ، محمد المهدي حمامي رفاعي ،إشراف مصطفى عثمان، كلية الآداب ،والعلوم الانسانية ،جامعة حلب ٢٠٠٦م :١٧٠

(٣) الميزان:١/٢٠

العبد، ليكون متأدبًا في مقام إظهار العبودية بما أدبه الله به ،فالمُفسِّر لم يقف عند حدّ التناسق الشكلي للنص، بل ذكر الانسجام لما بين الالفاظ من الاتساق العجيب [١].

ويؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ البسملةَ جزءٌ من سورة الحمدِ وهي جزء من كلِّ سورةٍ باستثناء سورة التوبة التي جاءت بدون بسملة، وهذا خلاف أشار له المُفسِّرون ونكتفي برأي ابن عاشور لكونه يجمع الآراء ويخرج بنتيجة قالها السيّدُ الطباطبائيُّ((لا خلاف بين المسلمين في أنَّ لفظ (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) هو لفظ قرآني لأنَّه جزء آية من قوله تعالى﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠] كما أنَّهم لم يختلفوا في أنَّ الافتتاح بالتسمية في الأمور المهمة ذوات البال ورد في الإسلام ، وروي فيه حديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع لم يروه أصحاب السنن ولا المستدركات ، وقد وصف بأنه حسن، وقال الجمهور: إنَّ البسملة رسمها الذين كتبوا المصاحف في أوائل السور ما عدا سورة براءة ،ولم يختلفوا في أنَّها كتبت في المصحف في أول سورة الفاتحة وذلك ليس موضع فصل السورة عما قبلها، وإنَّما اختلفوا في أنَّ البسملةَ هل هي آية من سورة الفاتحة ومن أوائل السور غير براءة ، بمعنى أنَّ الاختلاف بينهم ليس في كونها قرآنًا ، ولكنه في تكرر قرآنيتها كما أشار إليه ابن رشد الحفيد في البداية ، فذهب مالك والأوزاعي وفقهاء المدينة والشام والبصرة وقيل باستثناء عبد الله بن عمرو وابن شهاب من فقهاء المدينة إلى أنَّها ليست بآية من أوائل السور لكنها جزء آية من سورة النمل ، وذهب الشافعي في أحد قوليه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وفقهاء مكة والكوفة غير أبي حنيفة ، إلى أنَّها آية في أول سورة الفاتحة خاصة ، وذهب عبد الله بن مبارك والشافعي في أحد قوليه وهو الأصح عنه إلى أنها آية من كل سورة))[٢].

وهذه المناسبة كثيرة في السور المكية؛ تبدأ السور بذكر اسم السورة، منها (سورة القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج) وتندرج تحت هذا النوع من المناسبة عدة محاور هي: الانسجام بين اسم السورة وحدث مذكور فيها، الانسجام بين اسم السورة وقصة مذكورة فيها، الانسجام بين اسم السورة والسورة كلها، الانسجام بين اسم السورة والسورة عبر

(١) يُنظر: الميزان:١/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير:١/١٣٩ .

الآية الأولى، ويتمثل المحور الأول في سورة الأنعام، بمعالجة قضية الألوهية والعبودية بشكل واسع، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((غرض السورة هو توحيده تعالى بمعناه الأعم أعني أنَّ للإنسان ربًا هو ربُّ العالمين جميعًا منه يبدأُ كلَّ شيءٍ وإليه ينتهي ويعودُ كلُّ شيءٍ، أرسلَ رسلًا مبشرين ومنذرين يهدي بهم عباده المربوبين إلى دينه الحق ؛ ولذلك نزلت معظم آياتها في صورة الحجاج على المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة، واشتملت على إجمال الوظائف الشرعية والمحرمات الدينية وسياقها ـ على ما يعطيه التدبر ـ سياق واحد متصل لا دليل فيه على فصل يؤدي إلى نزولها نجوما))[1].

والمناسبة تكمن في ذكر لفظ الأنعام في الآيات ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:١٣٧-١٤٢] [2]

(١) الميزان :٧/٥.

(٢) الميزان :٧/٣٧٠.

ويتحقق الانسجام بذكر أنواع الأنعام مثل الضأن والماعز والإبل والبقر وتسمى هذه بالإحالة المعجمية وهي مظهرٌ من مظاهر انسجام النص القرآني[١].

وكذلك سورة الأعراف حيث ذكر في مضمونها قصة أصحاب الأعراف قال تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف:٤٦] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن ذكر المناسبة بين اسم السورة وحدث مذكور فيها (الاعراف): ((والسورة تتضمن طُرقًا عاليةً من المعارف الإلهية منها وصف إبليس وقبيله، ووصف الساعة والميزان والأعراف وعالم الذر والميثاق ووصف الذاكرين لله، وذكر العرش، وذكر التجلي، وذكر الأسماء الحسنى، وذكر أنَّ للقرآن تأويلا إلى غير ذلك))[٢].

وبعد عرض تحليل السيّدُ الطباطبائيُّ للنصِّ القرآنيِّ اتضح لنا أنّ تحليله لايختلف عمّا تقوله اللسانيات النصية((العنوان يقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد انتاج نفسه، فهو إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد))[٣].

ومن إشاراته إلى أوجه المناسبة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ [الحج :٢٦-٢٧] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ أوجه المناسبة بين اسم سورة الحج ومضمونها يرجع إلى فريضة الحج ((تشير إلى تشريع حج البيت لأول مرة لإبراهيم (ع) وأمره بتأذين الحج في الناس وجملة من أحكام الحج))[٤].

---

(١) يُنظر: ظاهرة المناسبة واتساق النص القرآني، د. نوح الأول جنيد، جامعة لاغوس، نيجيريا.مجلة حوليات التراث الحادي عشر – ٢٠١١م: ١٢٠.

(٢) الميزان:٨/٧.

(٣) مقاربة أولية لنص شعري : د محمد مفتاح ،مجلة الفصول الأربعة العدد ٢٩ السنة الثامنة يونيو ١٩٨٥ : ٢٧٦.

(٤) الميزان :١٤/ ٣٦٧.

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج :٢٦] قائلًا: (بوء له مكانا كذا أي جعله مباءة ومرجعًا له يرجع إليه ويقصده، والمكان ما يستقر عليه الشيء فمكان البيت القطعة من الأرض التي بني فيها، والمراد بالقائمين على ما يعطيه السِّياق هم الناصبون أنفسهم للعبادة والصلاة، وتبوئته تعالى مكان البيت لإبراهيم(ع) هي جعل مكانه مباءة مرجعًا لعبادته لا لأنَّ يتخذه بيت سكنى يسكن فيه، ويلوح إليه قوله بعد﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ بإضافة البيت إلى نفسه، ولا ريب أنَّ هذا الجعل كان وحيًا لإبراهيم (ع)فقوله: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾في معنى قولنا: أوحينا إلى إبراهيم(ع) أنْ اتخذ هذا المكان مباءة ومرجعًا لعبادتي وإنْ شئت فقل: أوحينا إليه أنْ اقصد هذا المكان لعبادتي، وبعبارة أخرى أنْ اعبدني في هذا المكان »[١].

وجاء المحور الثاني مكملًا للنمط المذكور سابقًا، فالحدث أو الموقف الذي ناسب فيه اسم السورة نفسها، لم يستغرقْ السورة كلها، بل هو جزءٌ منها ، كسورةِ هود يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن المناسبة فيها:((وسورة هود تبين أنَّ المعارف القرآنية ترجعُ بالتحليلِ إلى التوحيدِ الخالصِ كما أنَّ التوحيدَ يعودُ بحسب التركيبِ إلى تفاصيلِ المعارفِ الأصلية والفرعيةِ والسورة ـ على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها ـ مكية نازلة دفعة واحدة))[٢] ،وقارب إبراهيم الفقي هذا الرأي عن المناسبة في سورة هود قائلًا:((ومرجعية الآيات كلها سابقة؛ إذ كلها ترجع إلى هود صراحة في القصة، وفي القصص الأخرى ترجع إليه ضمنيا))[٣].

والشيء نفسه يقال في سورة الكهف، يذكرُ السيّدُ الطباطبائيُّ غرض سورة الكهف فوجه الكلام فيها إلى الوثنيين القائلين ببنوة الملائكة والجن والمصلحين من البشر والنصارى القائلين ببنوة المسيح (ع) ولعل اليهود يشاركونهم فيه حيث يذكر القرآن عنهم أنهم قالوا: عُزير بن الله وغير بعيد أنْ يقال إنَّ الغرضَ من نزول السورة ذكر القصص الثلاث العجيبة التي لم تذكر في القرآن الكريم إلَّا في هذه السورة وهي قصة أصحاب الكهف وقصة موسى

(١) الميزان :١٤/ ٣٦٨.

(٢) المصدر نفسه :١٠/١٣.

(٣) يُنظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق:٢/١١٦.

وفتاه في مسيرهما إلى مجمع البحرين وقصة ذي القرنين ثم استفيد منها ما استفرغ في السورة من الكلام في نفي الشريك والحث على تقوى الله سبحانه[١].

والمحور الثالث إحالة اسم السورة إلى موضوعها كله، ويستغرق ويتخلل الاسم السورة كلها، ولا يحتاج إثبات الانسجام النصي بين اسم السورة والسورة هنا إلى تأويلات كثيرة[٢]، ونماذجه كثيرة منها المناسبة في سور(يوسف، الحاقة ، الجن، الانفطار، القارعة، الفيل، قريش)،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن المناسبة بين اسم سورة يوسف والسورة كلها :((ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصة من القصص باستقصائها من أولها إلى آخرها غير قصته (γ)، وقد خصت السورة بها من غير شركة ما من غيرها))[٣].

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ عن مناسبةِ اسم سورة الجن والسورة كلها ((تشير السورة إلى قصة نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وأقروا بأصول معارفه، ونخلص منها إلى تسجيل نبوة النبي (θ)، والإشارة إلى وحدانيته تعالى في ربوبيته وإلى المعاد، والسورة مكية بشهادة سياقها))[٤] .

المناسبة في المحور الرابع يتجسد في سور (الإسراء، طه، المؤمنون، الفرقان، يس، الصافات، ص، ق، الذاريات، الطور، النجم، القمر، الواقعة) ، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن الانسجام بين اسم السورة والسورة عبر الآية الأولى في سورة الإسراء:((السورةُ تتعرضُ لأمرِ توحيدِه تعالى عن الشريك مطلقًا ومع ذلك يغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد كما بدأت به فقيل: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ﴾ [الاسراء:١]، وكرر ذلك فيها مرة بعد مرة كقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الاسراء :٤٣] : وقوله: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الاسراء:٩٣] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾[الاسراء:١٠٨]))[٥] .

---

(١) يُنظر: الميزان :١٣/٢٣٢-٢٣٣.

(٢) يُنظر: ظاهرة المناسبة واتساق النص القرآني :١٢٠.

(٣) الميزان:١١/٧٥.

(٤) المصدر نفسه:٢٠/٤٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٣/٥.

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الانسجام في سورة النجم بين اسم السورة والآية الأولى من السورة ((وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النحم:١]ظاهرُ الآيةِ أنَّ المراد بالنجم هو مطلق الجرم السماوي المضيء وقد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه ومنها عدة من الأجرام السماوية كالشمس والقمر وسائر السيارات، وعلى هذا فالمراد بهوى النجم سقوطه للغروب))[١].

وأشار المُفسِّرُ إلى الانسجام في سورة المؤمنين بين اسم السورة والآية الأولى المتمثلة بقوله تعالى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون :١]فنجدُ السيّدَ الطباطبائيَّ يقول :((في السورة دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وتمييز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبودية وما لأولئك من رذائل الأخلاق، وتعقيب ذلك بالتبشير والإنذار، وقد تضمن الإنذار ذكر عذاب الآخرة وما غشي الأمم المكذبين للدعوة الحقة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة آخذاً من زمن نوح إلى زمن المسيح عيسى بن مريم (عليهما السلام) والسورة مكية، وسياق آياتها يشهد بذلك))[٢].

٢- المناسبةُ بين آياتِ السّورةِ الواحدةِ :

إنَّ طريقةَ معرفةُ المناسباتِ والربط بين الآيات تعتمد اجتهاد السيّد الطباطبائي ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى، منسجمة مع السِّياق، متفقة مع الأصول اللغوية في علوم العربية، كانت مقبولة لطيفة ، ولا يعني هذا أنْ يلتمسَ السيّد الطباطبائيُّ لكلِّ آيةٍ مناسبة، فإنَّ القرآن الكريم نزل مُنَجَّمًا حسب الوقائع والأحداث، وقد يدرك السيّدُ الطباطبائيُّ ارتباط آياته وقد لا يدركها ، وهذا ما نجده حاضرًا عند السيّدِ الطباطبائيِّ في بيان قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان:١٢-١٣] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((... إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة ونبذة من حكمه ومواعظه لابنه ولم يذكر في القرآن إلَّا في هذه

(١) الميزان:١٩/٢٧.

(٢) المصدر نفسه :١٥/٥.

السورة ويناسب المورد من حيث مقابلة قصته الممتلئة حكمة وموعظة لما قص من حديث مَنْ كان يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا))[١].

إنَّ من مَظاهرِ الانسجامِ الجمعُ بينَ غرَضيْنِ مُختلفيْنِ، وهذا ما أشار إليه السيّدُ الطباطبائيُّ من خلال مقابلته بين قصة مَن كان يشتري لهو الحديث التي ذُكِرَتْ في الآية السابقة وقصة لقمان الممتلئة حكمة التي تُشير إلى عبادة الله وتحث على الابتعاد عن الشِرْكِ وأنّ الشِركَ ظُلم عظيم ، نجد هناك مَن يشتري بأمواله اللهو ليمنع الناس من الاستماع للقرآن الكريم، وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى معنى اللهو ((وإنَّ لهو الحديث ما يشغلك عما يهمك، الحديث الذي يلهي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية والقصص الداعية إلى الفساد والفجور، أو بما يقارنه كالتغني بالشعر أو بالملاهي والمزامير والمعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديث)) [٢].

وينظرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى العلاقات المتكونة من الانسجام الحاصل بعد معرفة سياقها وهو بذلك يتقارب مع رأي النصيين المحدثين، ويقارب ما يقوله محمد خطابي : ((ينظر عادة إلى العلاقات التي تجمع أطراف النصِّ أو تربط بين متواليات دون وسائل شكلية تعتمد في ذلك على أنَّها علاقات دلالية))[٣].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ ونزول قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [لقمان:٦] ((...في النضر بن الحارث كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشًا ويقول لهم: إنَّ محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن)) [٤].

وهذه العلاقات الدلالية المتواجدة عبر مساحة النصِّ تُحقق تماسكًا دلاليًا بين بنياته، كما لها دور الإخبار من أجل تحقيق درجة معينة من التواصل ؛لأنَّ بنيته الدلالية التي تربط النص قائمة عبر هذه العلاقات المعنوية، والمناسبة توصل إلى العلاقة وهذه العلاقة بدورها

---

(١) الميزان: ٢١٩/١٦.

(٢) المصدر نفسه :٢١٤/١٦.

(٣) لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب: ٢٢٩.

(٤) الميزان :٢١٧/١٦ ،وأسباب النزول:١٩٨ .

تقتضي مرجعية من أحد المتناسبين إلى الآخر وتحققت هذه المرجعية التي أشار إليها السيّدُ الطباطبائيُّ بالمقابلة التي تحقق الانسجام بينهما ، وهنا تظهر العلاقة القائمة بين المناسبة والانسجام . المناسبة ← العلاقة ←المرجعية ←الانسجام[1] .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٣] ، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((الرؤية هاهُنا بمعنى العلم، عبر بذلك لدعوى ظهوره بحيث يعد فيه العلم رؤية فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ ﴾ [إبراهيم:١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح:١٥] [2] .

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى(فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) ((الأمر تكويني ولا ينافي كون موتهم واقعًا عن مجرى طبيعي كما ورد في الروايات: أنَّ ذلك كان بالطاعون، وإنَّما عبر بالأمر، دون أنْ يقال: فأماتهم الله ثم أحياهم ليكون أدل على نفوذ القدرة وغلبة الأمر، فإنَّ التعبير بالإنشاء في التكوينيات أقوى وأكثر تأكيدًا من التعبير بالإخبار كما أنَّ التعبيرَ بصورة الإخبار الدال على الوقوع في التشريعيات أقوى وأكثر تأكيدًا من الإنشاء، ولا يخلو قوله تعالى:(ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) عن الدلالة على أنَّ الله أحياهم ليعيشوا فعاشوا بعد حياتهم، إذ لو كان إحياؤهم لعبرة يعتبر بها غيرهم أو لإتمام حجة أو لبيان حقيقة لذكر ذلك على ما هو دأب القرآن في بلاغته كما في قصة أصحاب الكهف، على أنَّ قوله تعالى :(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) يشعر بذلك أيضا))[3].

يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى بلاغةِ الخطاب القرآني وإنَّ تضافر أكثر من عامل يؤدي إلى الانسجام وليس عاملًا واحدًا، فوحدة الفكرة والظروف وطبيعة المنتج والوسط الناقل للنص، والمتلقي وطبيعته، كل ذلك بما تنطوي عليه التفصيلات ، يؤدي إلى انسجام النص ، ((فالتماسك النصي ليس مجرد خاصية تجريدية للأقوال، ينبغي أنْ نعالجها في علم الدلالة أو

(١) يُنظرُ: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب:٢٠٢.

(٢) الميزان :٢/٢٨٥.

(٣) المصدر نفسه :٢/٢٨٥.

في نظرية الخطاب أوفي نحو النص، ولكنه ظاهرة تأويلية ديناميكية من الفهم المعرفي، تتدخل فيها أنواع عديدة من المعارف الذاتية))[١].

إنَّ انسجامَ النصِّ وترابطَ أجزائهِ يعتمدُ أولًا الناحية الدلالية، ثم اللغوية بأدواتِها المختلفةِ، إذ تعمل علوم البلاغة على ربط ما يبدو غير منسجم منطقيًا، مرورًا بالجانب الصوتي والصرفي والنحوي ، فالتركيب النحوي نظام من معاني العلاقات التي لا تجد تعبيرًا شكليًا عنها إلَّا فيما يقدمه الصرف من خلال المباني والقرائن اللفظية[٢].

وبعد أنَّ فسَّرَ السيّدُ الطباطبائيُّ قوله تعالى:﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وضَّح لنا الانسجام بقوله: ((الإظهار في موضع الإضمار أعني تكرار لفظ الناس ثانيًا لما فيه من الدلالة على انخفاضِ سطح أفكارهم، على أنَّ هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بالإحياء طائفة خاصة، وليس المراد كون الأكثر منهم بعينهم غير شاكرين بل الأكثر من جميع الناس، وهذه الآية لا تخلو عن مناسبة ما مع ما بعدها من الآيات المتعرضة لفرض القتال، لِما في الجهاد من إحياء الملة بعد موتها))[٣].

والأصلُ في الأسماءِ أنْ تكونَ ظاهرةً ، والأصل في المسند إليه كذلك ،فإذا ذُكر ثانية ذكر مضمرًا ؛ لأنَّه أوجزُ ،والاستغناء عن إظهاره بالظاهر السابق ،لكن المتكلم قد يؤثر الإظهار في موضع الإضمار ، لخروج المتكلم عن خلاف الأصل[٤].

وقد ذكر السَّكَّاكِي(ت٦٢٦هـ) فائدة هذا الفن بقوله ((يوضع المظهر موضع المضمر إذا أريد تمكين نفسه زيادة تمكين))[٥]،وذكر ابن الأثير(ت٦٣٧هـ)أنَّ ((هذا إنما يعمدُ إليه لفائدة، وهي تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المضمر أولاً))[٦].

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى علاقةٍ أخرى هي علاقةٌ منطقيةٌ بين إحيائهم بعد الموت بقدرته وإحياء الملة، وتقتضي المناسبة وجود علاقة بين المتناسبين في النص القرآني، وقد

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٣٤٠.

(٢) يُنظرُ :اللغة العربية معناها ومبناها:١٣٥.

(٣) الميزان:٢/٢٨٥.

(٤) يُنظر: البرهان في علوم القرآن، :٢ / ٤٨٤ – ٤٨٥

(٥) مفتاح العلوم، ابو يعقوب يوسف السكاكي ، ضبطهُ وعلق عليه نعيم زرزور :١/ ١٩٨.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ٢٤.

تكون العلاقة ظاهرة أو غير ظاهرة، والعلاقة تقتضي مرجعية من أحدِ المتناسبين إلى الآخر، ويؤدي تفاعل العلاقات إلى تحقيق تماسك النص القرآني(١).

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ أَنَّ هناك مناسبة قادت إلى الانسجام بين الآيات لا يحتاج إلى تكلف كما أشار أحد المُفسَّرين وإنَّ الآية الكريمة مثل ضربه الله لحال الأمة في تأخرها وموتها باستخزاء الأجانب إياها ببسط السلطة والسيطرة عليها، ثم حياتها بنهضتها ودفاعها عن حقوقها الحيوية واستقلالها في حكومتها على نفسها(٢).

ويظهر للباحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ كثيرًا ما يردُّ على صاحب المنار، وإنَّ عبارة (فافهم ذلك)في تفسير الميزان أين ما وجدت المقصود بها صاحب المنار ، وفي هذا الأتجاه يقول صاحب تفسير المنار:((وبالجملة فهؤلاء يموتون بالخزي وتمكن الأعداء منهم ويبقون أمواتا، ثم أحياهم الله بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحق فيهم، فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلوا في أمرهم، وهؤلاء الذين أحياهم الله وإنْ كانوا بحسب الأشخاص غير الذين أماتهم الله إلّا أنَّ الجميع أمة واحدة ماتت في حين وحييت في حين بعد حين، وقد عد الله تعالى القوم واحدًا مع اختلاف الأشخاص كقوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٤١] وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٦] ، ولولا ما ذكرناه من كون الآية مسوقًا للتمثيل لم يستقم ارتباط الآية بما يتلوها من آيات القتال وهو ظاهر))(٣).

ويرد السيّد الطباطبائيُّ على هذا الرأي بمنهج تفسير القرآن بالقرآن قائلًا: ((وهذا الكلام كما ترى مبني على إنكار المعجزات وخوارق العادات أو بعضها كإحياء الموتى وقد مرَّ إثباتها، على أنَّ ظهورَ القرآنِ الكريم في إثبات خرق العادة بإحياء الموتى ونحو ذلك مما لا يمكن إنكاره ، وفيه أنَّ جميع الآيات الدالة على إحياء الموتى كما في قصص إبراهيم وموسى وعيسى وعُزير، بحيث لا تدفع دلالتها، يكفي في رد ما ذكره، على أنَّ الحياة الدنيا

(١) يُنظرُ: ظاهرة المناسبة واتساق النص القرآني، :١١٦

(٢) يُنظر: الميزان :٢٨٥/٢.

(٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا :٤٥٧/٢.

لا تصير بتخلل الموت حياتين كما يستفاد أحسن الاستفادة من قصة عُزير، حيث لم يتنبه لموته الممتد، والمراد بما أورده من الآيات الدالة على نوع الحياة))[١].

ويقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((وللآية نظائر في القرآن كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج:٧] ، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١]))[٢] وبعد عرضه نظائر للآيات التي يستحضر انسجامها أمَّا عن طريق اتساقها أو عن طريق المناسبة بين مضامينها بقوله:((إنَّ الآية لو لم تحمل على التمثيل لم ترتبط بما بعدها من الآيات بحسب المعنى، وأنت تعلم أنَّ نزول القرآن نجوما يغني عن كل تكلف بارد في ربط الآيات بعضها ببعض إلَّا ما كان منها ظاهر الارتباط، بَيّنُ الاتصال على ما هو شأن الكلام البليغ ،فالحق أنَّ الآية كما هو ظاهرها مسوقة لبيان القصة ، وليت شعري أي بلاغة في أن يلقي الله سبحانه للناس كلامًا لا يرى أكثر الناظرين فيه إلَّا أنَّه قصة من قصص الماضين، وهو في الحقيقة تمثيل مبني على التخييل من غير حقيقة))[٣].

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ ((القرآن الكريم كلام كسائر ما يتكلّم به الناس، ويدلُّ دلالة واضحة على معانيه المقصودة ، وليس فيه خفاء على المستمعين، ولم نجد دليلًا على أنَّه يقصد من كلماته غير المعاني التي ندركها من ألفاظه وجمله ،أمّا وضوحه في دلالته؛ فلأنَّ أي انسان عارف باللغة العربية بإمكانه أنْ يدرك الآيات الكريمة كما يدرك معنى كلّ قول عربي))[٤].

وبذلك تتضح لنا رؤية السيّدُ الطباطبائيُّ النصيّة مبرّزًا الانسجام النصي ،ويقترب بهذه الرؤية من الدراسات النصية الحديثة،وإنَّ دراسةَ الانسجامِ النصي القائم على أساسِ العلاقةِ بين الوحداتِ النصيةِ بقطعِ النظر عن تتابعها المكاني تصبح أكثر ضرورة في الحالات التي قد يبدو فيها النص مفككًا أو متعارضًا في الظاهر ، لكن سرعان ما ينكشف لمحلل النص أو قارئه أنَّ وراء ذلك بينة محكمة منسجمة تتضمن تماسك النص

(١) الميزان :٢/٢٨٥.
(٢) المصدر نفسه:٢/٢٨٥.
(٣) المصدر نفسه :٢/٢٨٥.
(٤) القرآن في الإسلام:٢٧.

وانسجامه[١]،وهذه إشارة واضحة إلى المناسبةِ ولكن بشرطِ عدم الالتزام بالترتيب التوقيفي الذي التزم به المُفسِّرون ؛لأنَّه يؤدي إلى التأويل والسيّدُ الطباطبائيُّ له رأي مختلف في معنى التأويل فهو عنده تصيير الآيات إلى مرجع تؤول إليه[٢].

يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ التأويلَ لا يعني صرف الظاهر عن معناه إلى معنىً آخر، كما هو شائع لدى اتجاه كبير من اتجاهات البحث التفسيري لا سيما بين المتأخرين، وإنَّما التأويل هو المرجع والمصير، ومن ثم فإن تأويل الآيات يعني تصييرها إلى مرجع تؤول إليه، ويؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ على أنَّ القرآن الكريم هو الذي رسم هذا المعنى وحدّده للتأويل، بما يترتب عليه من أنَّ التأويل سيغدو حقيقة خارجية لها واقع، وليس هو من قبيل المفاهيم والمعاني اللفظية، بل هو أمور عينية وحقائق متعالية،((إنَّ الحقَّ في تفسيرِ التأويلِ أنَّه الحقيقةُ الواقعيةُ التي تُستندُ إليها البياناتُ القرآنيةُ من حكم أو موعظة أو حكمة، وأنَّه موجودٌ لجميعِ الآياتِ القرآنيةِ محكمها ومتشابها، وأنَّه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هي من الأمور العينيّة المتعالية من أنْ يُحيطَ بها شبكات الألفاظ، وإنّما قيدها الله تعالى بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب فهي كالأمثال تُضربُ ليقربَ بها المقاصد وتوضح بحسب ما يناسب فهم السامع...، ولم يستعمل القرآن لفظ التأويل... إلّا في المعنى الذي ذكرناه))[٣].

ويقول رأيه في التأويل: ((إنَّ ظواهر الآيات تكون كأمثال بالنسبة إلى البواطن، ويعني بالنسبة إلى المعارف الإلهية التي هي أعلى مستوى من أفهام العامة، فتكون تلك الظواهر كأمثال تقرّب المعارف المذكورة إلى الأفهام، يقول جلّ جلاله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الأسراء:٨٩]))[٤].

(١) يُنظرُ: البحث الدلالي في تفسير (من وحي القرآن) :١٩٣.
(٢) يُنظر: الميزان :٣/٥١.
(٣) الميزان:٣/ ٥٧.
(٤) القرآن في الإسلام :٣/ ٥٧.

ومن أهم القضايا التي ذكرها السيّدُ الطباطبائيُّ في الميزان قضية انسجام النصِّ القرآنيِّ دون الالتفات إلى الترتيب التوقيفي للآيات الذي التزم به علماء المسلمين ونظر إلى الآيات المتباعدة نظرة موحدة متآلفة ، وَإنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يؤيدُ في مناسبات عدَّةٍ وجودَ المناسبةِ بين الآيات، وفي أحيان أُخر لا يرى مناسبةً بين الآيةِ والآياتِ التي قبلها والتي بعدها ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة:٦٧] يقول السيّد الطباطبائي :((معنى الآية في نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول (θ) بالتبليغ في صورة التهديد، ووعده (θ) بالعصمة من الناس، غير أنَّ التدبّرَ في الآيةِ من حيث وقوعها موقعها الذي وقعت فيه، وقد حففتها الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب وذمهم وتوبيخهم بماكانوا يتعاورونه من أقسام التعدي إلى محارم الله و الكفر بآياته))[(١)].

ويستمرُ السيّدُ الطباطبائيُّ باحثًا عن الترابط بين هذه الآية والآيات التي قبلها والتي بعدها((وقد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعني قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾[المائدة:٦٦] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨] متسائلًا عن مناسبةِ الآيةِ مع ما قبلها وما بعدها بقوله:((ثُمَّ الإمعان في التدبَّر في نفس الآية وارتباط الجمل المنضودة فيها يزيد الإنسان عجبًا على عجب ،فلو كانت الآية متصلة بما قبلها وما بعدها في سياق واحد في أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبي (θ) أشد الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه في أمر أهل الكتاب، وتعين بحسب السِّياق أنَّ المرادَ بما أنزل إليه من ربه هو ما يأمره بتبليغه في قوله ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ [المائدة:٦٨]، وسِياقُ الآيةِ يأباه فإنَّ قولَهُ تعالى: (وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ) [المائدة: ٦٧] يدلُّ على أنَّ هذا الحكم المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافة الخطر على نفس النبي (θ) أو على دين الله تعالى من حيث نجاح

(١) الميزان:٦/٤٢.

تبليغه، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبي (θ) أنْ يتوجَه إليه من ناحيتِهم خطرٌ يسوّغُ له (θ) أنْ يمسكَ عن التبليغِ أو يؤخرَهُ إلى حين فيبلغ الأمر إلى حيث يحتاج إلى أنْ يعده الله بالعصمة منهم إنْ بلّغ ما أمر به فيهم حتى في أوائل هجرته (θ) إلى المدينة وعنده حدة اليهود وشدتهم حتى انتهى إلى وقائع خيبر وغيرها)) [١].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله للنص القرآني ((على أنَّ الآيةَ لا تتضمن أمرًا شديدًا ولا قولًا حادًا، وقد تقدم عليه تبليغ ما هو أشدُّ وأحدُّ وأمرُّ من ذلك على اليهودِ، وقد أمرَ النبي (θ) بتبليغ ما هو أشدُّ من ذلك كتبليغ التوحيد ونفي الوثنية إلى كفار قريش ومشركي العرب وهم أغلظُ جانبًا وأشدُّ بطشًا وأسفكُ للدماء، وأفتكُ من اليهود وسائر أهل الكتاب، ولم يهددْهُ الله في أمرِ تبليغهم ولا آمنه بالعصمة منهم)) [٢].

ويستحضر السيّدُ الطباطبائيُّ السِّياق الأكبر في ايضاح ما أشارَ إليه بقوله :((على أنَّ الآياتَ المتعرضةَ لحالِ أهلِ الكتابِ معظمُ أجزاءِ سورة المائدةِ فهي نازلة فيها قطعًا، واليهود كانت عند نزول هذه السورة قد كسرت سورتهم، وخمدت نيرانهم، وشملتهم اللعنة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله فلا معنى لخوفِ رسولُ الله (θ) منهم في دين الله، وقد دخلوا يومئذ في السلم في حظيرة الإسلام وقبلوا هم والنصارى الجزية)) [٣].

ويصل السيّدُ الطباطبائيُّ إلى نتيجةٍ مفادها ((فلا ينبغي الارتياب في أنَّ الآية لا تشارك الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في سياقها، ولا تتصل بها في سردها، وإنَّما هي آية مفردة نزلت وحدها))[٤]، ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ إلى النتيجةِ التي توصل إليها دون اعتماده الرواية مستعينًا بمنهج تفسير القرآن بالقرآن في تعزيز ما يقوله ((والآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبي (θ)(إما مجموع الدين أو بعض أجزائه) وكان النبي(θ) يخاف الناس من تبليغه ويؤخره إلى حين يناسبه، ولولا مخافته وإمساكه لم يحتج إلى تهديده بقوله:

---

(١) الميزان :٤٢/٦.

(٢) المصدر نفسه :٤٢/٦.

(٣) المصدر نفسه :٤٣/٦.

(٤) المصدر نفسه :٤٣/٦.

(وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ) كما وقع في آيات أول البعثة الخالية عن التهديد كقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق:١]إلى آخر سورة العلق، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[المدثر:١]وقوله :﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [السجدة:٦]، إلى غير ذلك))[(١)].يؤكدُ السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ هذه الآية نازلة ضمن سورة المائدةِ غير مكترث بأسباب النزول التي تذهب إلى أنَّ نزولها في بداية الدعوة، وهذا الرأي يعضده ابن عاشور إذ أشار إلى ذلك بقوله : ((إنَّ موضع هذه الآية في هذه السورة معضل ، فإن سورة المائدة من آخر السور نزولًا إن لم تكن آخرها نزولًا ، وقد بلغ رسول (θ) الشريعة وجميع ما أنزل إليه يوم نزولها ، فلو أنَّ هذه الآية نزلت في أول مدة البعثة لقلنا هي تثبيت للرسول وتخفيف لأعباء الوحي عنه ،... فأما وهذه السورة من آخر السور نزولا وقد أدى رسول الله(θ) الرسالة وأكمل الدين فليس في الحال ما يقتضي أنْ يؤمرَ بتبليغ ، فنحن إذن بين احتمالين أحدهما أنْ تكون هذه الآية نزلت بسبب خاص اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيء مما يثقل عليه تبليغه ،وثانيهما أنْ تكون هذه الآية نزلت من قبل نزول هذه السورة ، وهو الذي تواطأت عليه أخبار في سبب نزولها ،فأما هذا الاحتمال الثاني فلا ينبغي اعتباره لاقتضائه أنْ تكون هذه الآية بقيت سنين غير ملحقة بسورة ، ولا جائز أنْ تكون مقروءة بمفردها ، وبذلك تندحض جميع الأخبار الواردة في أسباب النزول التي تذكر حوادث كلها حصلت في أزمان قبل زمن نزول هذه السورة))[(١)].

والسيّدُ الطباطبائيُّ مؤمنٌ بالادلة التي يستقيها من النصِّ القرآنيَّ وإنَّ الآية غير متصلة بما بعدها ولا قبلها؛ لأنَّها وضعت في غير موضعها لأسباب سياسية وأنَّ الآية نزلت في أمر ولاية علي(γ) بعد رسول الله (θ) ،وإنَّ انسجام هذه السورة بارزًا وظاهرًا للعيان باستثناء هذه الآية ((وهذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أنَّ الآية نزلت في أمر ولاية علي (γ) ، وأنَّ الله أمر بتبليغها وكان النبي (θ) يخاف أنْ يتهموه في ابن عمه، ويؤخر تبليغها وقتًا إلى وقت حتى نزلت الآية فبلغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا علي مولاه))[(٢)].

(١) الميزان :٤٣/٦.

(٢) التحرير والتنوير:٢٥٦/٦.

(٣) الميزان:٤٨/٦.

وهذا التحليل النصي الذي يعرضه السيّدُ الطباطبائيُّ ينمُّ عن قراءة نصية واعية تتماثل مع ما يذكره علماءُ النص المحدثون في معيار الانسجام يقول (فان ديك): ((إنَّ النصَّ لكي يشكلَ وحدة لا بد أنْ يكونَ منسجمًا))[١] ، فهو يرى أنْ التماسكَ يتجسدُ في خاصية الانسجام التي تولد النظرة الكلية للنص دون الفصل بين أجزائه مما يجعله يظهر كنسيج واحد وبنية كلية ،وهذه الرؤية النصية لسيّد الطباطبائيِّ نجدها عند مناقشته الآراء التي قيلت في تفسير الآية مُستعينًا بالسِّياق في استيضاح مكنون الآية تماثل ما يقوله النصّيون:((إنَّ التحليل النصي يعتمد على السِّياق في الكشف عن اتساق النص وانسجامه وتماسكه، وتزداد أهمية السِّياق في التحليل النصي عند خفاء الروابط أو غيابِها، فقد يكون النص خاليًا من الأدوات الشكلية المعروفة لتحقيق التماسك النصي حتى يكاد المتلقي يصل إلى درجة اليأس من فهم هذا النص، فيستعين بالسِّياق المحيط بالنص لصنع علاقات ضمنية غير محسوسة بين أجزاء النص ومن ثَم يتماسك النص أمامه كما لو كانت أدواته الشكلية موجودة))[٢].

والنصُّ ينتج معناه بحركة جدلية أو تفاعل مستمر بين أجزائه ومن ثم ينظر إلى الانسجام الداخلي بين الدلالات فينزاح الستار عن ذلك التساوق بين المضامين في إطار بنية كلية ذات مضمون أشمل[٣]، وهذا ما استثمره السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليلاته المستفيضة في مناقشة الآراء التي قيلت في مناسبة الآية مع الآيات التي قبلها والتي بعدها من سورة المائدة .

ويردُّ السيّدُ الطباطبائيُّ على مَن يقول : لماذا لم يرتبْ الإمام علي (ع) القرآن الكريم على ترتيب النزول في مدة حكمه وقد دامت اربع سنوات ؟ فنجده يقول :((يمكننا القول بجرأة أنَّ سكوت الأمام علي (ع) الذي كان مصحفه يخالف في الترتيب المصحف المنتشر الآن ، لأنَّ ترتيب النزول لم يكن ذا أهمية في

(١) النص بناه ووظائفه (نظرية الأدب) عبد القادر بو زيدة ، مجلة اللغة والأدب، ع١١، ١٩٩٧، الجزائر :١١.

(٢) التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة ، د.بخولة بن الدين ،عود الند مجلة شهرية ثقافية العدد ٨٠ / ٢٠١٣ :٥.

(٣) يُنظرُ: علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات). :٧٥.

تفسير القرآن بالقرآن الذي يهتم به أهل البيت (عليهم السلام) بل المهم فيه هو ملاحظة مجموع الآيات ومقارنة بعضها ببعض ؛ لأنَّ القرآن الذي هو الكتاب الدائم لكل الأزمان والعصور والأقوام والشعوب لا يمكن حصر مقاصده في خصوصية زمنية أو مكانية أو حوادث النزول))[1].

ومن إشاراتِ السيّدِ الطباطبائيِّ للمناسبةِ تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣] ((وكان مقتضى الظاهر أن يقال: من إله غير الله يأتيكم بنهار على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكن العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل الإلزام في الحجة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدعى الخصم أتمَّ الظهور كأنَّه قيل: لو كان غيره تعالى إله يدبر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمدًا فليقدر أنْ يأتيَ بالنهار، تنزلنا عن ذلك فليقدر أنْ يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشيء على ذلك إن القدرة كلها لله سبحانه))[2].

ويستحضرُ السيّدُ الطباطبائيُّ المناسبةَ عند قوله تعالى:﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ بقوله ((أي سمع تفهّم وتفكّر حتى تتفكروا فتفهموا أنَّ لا إله غيره تعالى)) [3]، وكذلك عند قوله تعالى﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ [القصص: ٧٢] أي: تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للمعاش ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي :إبصار تفهُّم وتذكُّر وإذ لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عميٌّ صمٌّ، ومن اللطيفِ تذييلِ الآيتين بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ولعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه))[4].

---

(١) القرآن في الاسلام:١٤٦.

(٢) الميزان:١٦/٧١.

(٣) المصدر نفسه :١٦/٧١.

(٤) الميزان :١٦/٧١ـ٧٢.

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الانسجام مستعينًا بالتذييل، وهو يدخل في باب المناسبة وهو باب من أبواب البديع، وضرب من التعقيب على ما سَبق في الآية؛ وهو أنْ يُؤتى بعد تمام الكلام بكلام مُستقل في معنى الاول لتحقيق الدلالة منطوق الاول أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند مَن لا يَفهم ويكمل عند مَن فهم ، فالمُلاحظُ أنَّ بين مضمون التذييل انسجاما وتأليفا وتناسبا(١) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان الانسجام النصيِّ ((الآية بمنزلة نتيجة الحجة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائي لثبوته من غير معارض))(٢) .

والانسجامُ يدخلُ فيه التُرابطُ الموضوعيّ للنصِّ، الذي يجعلُ من النصِّ وحدةً دلاليةً، ومن مظاهره أيضًا اشتِمالُ النصِّ على سيْرورةٍ واستمراريةٍ وتطوّرٍ واتجاهٍ نحو غايةٍ محدّدةٍ تضمنُ له التدرُّجَ والانتقالَ وتنفي عَنه الانتقالَ غيرَ المُسَوَّغِ، ووجودُ مثلِ هذه العَلاقاتِ المعْنويّةِ داخلَ النصِّ يُيسِّرُ فهْمَه فَهماً مَنطقياً وهذا ما أشار إليه السيّدُ الطباطبائيُّ.

ويؤكدُ السيّدُ الطباطبائيُّ نقطة جوهرية ، أنَّ الآيات إذا كانت متباعدة من حيث النزول فإنَّ المناسبة فيها تكون غير ميسورة في بعض الأحيان ، ونجد من اللسانيين العرب مَن يدلو بدلوه في هذا الاتجاه ((إنَّ النص القرآني ينطلق من فلسفة منسجمة فيجب التسليم بأنَّ الآيات تدور على قضية واحدة ، وإنْ وجدت في مواطن متفرقة من المصحف لها ثابت بنيوي ، تنطلق منه لتفصله أو تكمله أو تبينه في الآيات المدنية))(٣) .

وقد أشارَ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى المناسبةِ في قولهِ تعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا

(١) يُنظر: في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم ،د. عبد الرحمن بو درع ،بحث مقدّم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية ، ٢٠١٣م :٣٦.

(٢) الميزان:١٦/ ٧٢.

(٣) دينامية النص (تنظير وانشطار):١٩٢.

نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

[البقرة:١٢٠-١٢١] بقوله :((رجوعٌ إلى الطائفتين بعد الالتفات إلى غيرِهم، وهو بمنزلة جمع أطراف الكلام على تفرقها وتشتتها، فكأنَّه بعد هذه الخطابات والتوبيخات لهم يرجع إلى رسوله ويقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم ونظموها بآرائهم، ثُمَّ أمره بالرد عليهم بقوله: (قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ) : إنَّ الاتباع إنَّما هو لغرض الهدى ولا هدى إلَّا هدى الله والحق الذي يجب أنْ يتبع...))[١].

وقد تنبه السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الالتفات؛ لأنَّ الالتفات علاقة دلالية من علاقات المناسبة التي تُسْهِمُ في انسجامِ النصِّ لكون الالتفات من الغيبة إلى الحضور ومن الحضور إلى الغيبة هذا الربط يُسْهِمُ مساهمةً فعالةً في تماسك النص ويثير في المتلقي الانتباه إلى النص متعدد الأغراض ، وإنَّ المخاطبين ليسوا على درجة واحدة ، ويستمر المُفسِّرُ في توضيح رأيه باستنطاق النص (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ) [البقرة:١٢١] بقوله: ((يمكن أنْ تكونَ الجملة بقرينة الحصر المفهوم من قوله (أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) [البقرة:١٢٠]جواباً للسؤالِ المقدرِ الذي يسوقُ الذهنَ إليه قوله تعالى :(وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ) [البقرة: ١٢٠] ... فالمعنى :أنَّ الذين آتيناهم القرآن، وهم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم...)) [٢].

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ إيضاح المناسبة أنَّ هذه الآيات التي تناولت بني إسرائيل بينها مناسبة من أولها إلى آخرها ويحدد الآيات من قوله تعالى: (يَٰبَنِىٓ ٱذْكُرُوا۟) [البقرة:١٢٢] ، إلى آخر الآيتين إذ يقول ((إرجاع ختم الكلام إلى بدئه، وآخره إلى أوله، وعنده يختتم شطر من خطابات بني إسرائيل...))[٣].

(١) الميزان:١/٢٦٠-٢٦١

(٢) المصدر نفسه:١/٢٦٠-٢٦١

(٣) المصدر نفسه:١/٢٦٠-٢٦١

فالمناسبة من أهم العوامل التي تُسْهِمُ في تحقيق الانسجام النصِّي ،ويؤكدُ السيّد الطباطبائي المناسبةَ في الآياتِ التي نزلتْ دفعة واحدة بشكلٍ واضحٍ أمَّا الآيات التي نزلت متفرقة في السورة الواحدة فبعضها يرى فيه مناسبة، وكأنَّه يؤمن بأنَّ إلحاحَ بعضِ المُفسِّرين إلى المناسبةِ بين جميع الآيات فيه وجهة نظر وهناك مَن يتفق معه من المُفسِّرين نحو الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي يشترطُ في المناسبةِ ((أنْ يكون ارتباط الكلام واقعًا في أمرٍ متحدٍ مرتبط أوله بآخره ، فإنْ وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلَّا ربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلًا عن أحسنه ، فإنَّ القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك ليأتي ربط بعضه ببعض)) [1] .

ومن إشاراته إلى المناسبة عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣-١٥٧] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((خمس آيات متحدة السِّياق، متسقة الجمل، ملتئمة المعاني، يسوق أولها إلى آخرها ويرجع آخرها إلى أولها، وهذا يكشف عن كونها نازلة دفعة غير متفرقة، وسياقها ينادي بأنَّها نزلت قبيل الأمر بالقتال وتشريع حكم الجهاد،... وبالجملة ففي الآيات تلويح إلى إقبال هذه المحنة بذكر القتل في سبيل الله وتوصيفه بوصف لايبقى فيه مع جهة مكروهة ، ولا صفة سوء، وهو أنَّه ليس بموت بل حياة، وأي حياة)) [2] .

ومن المؤكدِ أنَّ بعض الموضوعات تبتعدُ دائرته عن الغرضِ وبعضها الآخر سوف يتطابق معه ،وهذا يعني أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يَسْتَكْشِفُ العلاقات القائمة بين الموضوعات قريبها وبعيدها والغرض هو الدلالة المستخلصة من مجمل الموضوعات فالسيُّد الطباطبائيُّ

(١) الإتقان في علوم القرآن:١٠٨/١
(٢) الميزان :٣٣٨/١.

يَنظرُ إلى الغرضِ الذي ارتضاه في ضوء هذه العلاقات الدلالية ،فالعلاقة بين المتلقي والغرض والموضوعات تتسم بالتفاعل الذي يؤول في النهاية إلى انسجام النص(١).

٣-مناسبة فواتح السور لخواتمها:

ثَمَّةُ إعجاز بلاغي يظهر في روعة التناسب ودقة التلاحم بين آيات القرآن وسوره ، فكل سورة تبدأ رحلتها بافتتاحية تفصح عن غرض محوري ترتبط به أجزاء السورة ليتوالى الحديث بعد ذلك آخذًا بعضه بأعناق بعض ، حتى نصل إلى خاتمة تهمس للعقل اليقظ المتدبر فتعيده إلى بدء السورة ومفتتحها ،لتكتمل بذلك الرحلة في السورة القرآنية وقد ترابطت بدايتها ونهايتها .

والمناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها تتضح في أنَّ استفتاح سورة القصص فقد بدأت بقصة موسى (γ)،وبيان مبدأ أمره ونصره، ثم ما كان منه عندما وجد رجلين يقتتلان، وحكى الله دعاءه قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧] ثم ختم الله السورة بسلامة النَّبِيِّ (θ) وتوجيهه بأَلَّا يكون ظهيراً للكافرينَ وتسليتِهِ بخروجهِ مِنْ مكّةَ والوعد بعودِهِ إليها ،الذي تمثل بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾

[القصص : ٨٥-٨٦] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((الآيات خاتمة السورة وفيها وعد جميل للنبي (θ) أنَّ الله سبحانه وتعالى سيمنُّ عليه برفع قدره ونفوذ كلمته وتقدم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه وعلى المؤمنين كما فعل ذلك بموسى (γ)وبني إسرائيل، وقد كانت قصة موسى وبني إسرائيل مسوقة لبيان ذلك))(٢).

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ هاديًا بفهمٍ قرآنيٍّ للمناسبة على اساسِ أنَّ القرآنَ الكريمَ كالكلمةِ الواحدةِ وهذا من عجيب أمر القرآن((فإنَّ الآية من آياته لا تكاد تصمت عن الدلالة ولا تعقم عن الإنتاج، كلما ضمت آية إلى آية مناسبة أنتجت حقيقة من أبكار الحقائق ثم الآية الثالثة تصدقها وتشهد بها، هذا شأنه وخاصته، وسترى في خلال البيانات في هذا

(١) يُنظر : المنهج السِّياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير :١٧-١٨.

(٢) الميزان:١٦/٨٨ .

الكتاب نبذا من ذلك، على أنَّ الطريق متروك غير مسلوك ولو أنَّالسيّد الطباطبائيين ساروا هذا المسير لظهر لنا إلى اليوم ينابيع من بحاره العذبة وخزائن من أثقاله النفيسة))[١].

ويُنْهي السيّدُ الطباطبائيُّ المعاني المتكثرة إلى معنى واحد هو التوحيد بقوله: ((فالآيات القرآنية على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهية ، والحقائق الحقة تعتمد على حقيقة واحدة هي الأصل وتلك فروعه ، وهي الأساس التي بُني عليه بنيان الدين ، وهو توحيده تعالى توحيد الإسلام بإن يعتقد أنَّه تعالى هو رب كل شيء لا رب غيره ويسلم له من كل جهة فيوفى له حق ربوبيته ، ولا يخشع في قلب ولا يخضع في عمل إلَّا له جل أمره ،وهذا أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها وشرائعها بالتحليل، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب))[٢].

ويشير باحث معاصر في اللسانيات إلى هذه الرؤية((فإن القرآن يمتاز من بقية النصوص بفرادة تماسكه ،بوصفه نصوصًا متداخلة في إطار السورة الواحدة كما يقدم نفسه بوصفه نصًا واحدًا في إطار السور المتعددة، وإن المعنى لتعدد في بنائه نموذجًا بتعدد النصوص المتداخلة في إطار السورة الواحدة،... من ذلك يرتد إلى بؤرة دلالية في إطار السور المتعددة، هي بؤرة(التوحيد)))[٣].

وفي سورة إبراهيم (γ) التي غرضها التوحيد يُلحظ التناسب جليًا ، وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إليه إذ يتطابق مختتم السورة مع افتتحها ، قال تعالى : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١] أما مختتم الآية فكان قوله تعالى : ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم:٥٢] ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى هذا التناسب قائلًا :((السورة الكريمة تصف القرآن النازل على النبي(θ) من حيث إنَّه آيةُ رسالته يخرج به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله سبحانه الذي هو عزيز حميد أي غالب غير مغلوب وغني

(١) يُنظر: الميزان:١/٧٥.

(٢) المصدر نفسه : ١٠/١٢٩.

(٣) اللسانيات والدلالة ،د. منذر عياشي:١٢٠.

غير محتاج إلى الناس وجميل في فعله منعم عليهم، وإذا كان المنعم غالبًا غنيًا حميد الأفعال كان على المنعم عليهم أنْ يجيبوا دعوته ويلبوا نداءه حتى يسعدوا بما أفاض عليهم من النعم، وأنْ يخافوا سخطه وشديد عذابه فإنه قوي غير محتاج إلى أحد، له أنْ يستغني عنهم فيذهب بهم ويأتي بآخرين كما فعل بالذين كفروا بنعمته من الأمم الماضين فإن آيات السماوات والأرض ناطقة بأن النعمة كلها له وهو رب العزة و ولي الحمد لا رب سواه)) [(١)].

وتختتم السورة بقوله تعالى:﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٥٢])) [(٢)] ،ويحلل السيّدُ الطباطبائيُّ قوله تعالى:(لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) ((ظاهر السِّياق عموم الناس لا خصوص قومه(θ) ولا خصوص المؤمنين منهم إذ لا دليل على التقييد من جهة اللفظ ،والآيات الصريحة في دعوة اليهود وعامة أهل الكتاب، وعمله(θ) في دعوتهم وقبول إيمان من آمن منهم كعبد الله بن سلام وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم تؤيد ذلك، على أنَّ آخر السورة: (هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ) ، وقد قوبل به أولها يؤيد أنَّ المراد بالناس أعم من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل)) [(٣)].

والمُفسِّر يُشير إلى انسجام مفتتح السورة الذي جاء لبيان الغرض من الرسالة والكتاب ،ومختتمها الذي جاء بمعنى التبليغ للناس :﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٥٢] ((والآية خاتمة السورة فالأنسب أنْ تكون الإشارة بهذا إلى ما أُورد في السورة من البيان لا إلى مجموع القرآن ، اللام فيه للغاية وهو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامة أمره وعظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتماله من الأسرار الإلهية على ما لا يطيقونه،

(١) الميزان:١٢/ ٦.
(٢) المصدر نفسه :١٢/ ٦.
(٣) المصدر نفسه :١٢/٦-٧.

وإنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته وهو الإنذار والعلم بوحدانيته تعالى والتذكر، فهم ينذرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلًا وآجلًا، وتتم عليهم الحجة بما ذكر فيها من آيات التوحيد، ويتذكر المؤمنون منهم خاصة بما فيها من المعارف الإلهية، وبهذا يتطابق مختتم السورة ومفتتحها)) [١]،وهكذا تلتقي المقدمة مع الخاتمة في العديد من النقاط ، ومن ثم يتضح الانسجام بينهما

ويقف السيّد الطباطبائيُّ عند سورة المؤمنين ويُشير إلى المناسبة بين مفتتحها ومختتمها بقوله:((افتتحت سورة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] هذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الإيمان حيّاً فعالا يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليترتب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح ... ، فلو كان إيمانه إيمانا صادقا جعل همه حين التوجه إلى ربه هما واحداً وشغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره))[٢].

وختمت السورة بقوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١١٨] وبذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى المناسبة بقوله :((أمر الله سبحانه وتعالى نبيه (θ) أنْ يقولَ ما حكاه عن عبادِه المؤمنين أنَّهم يقولونه في الدنيا وأنَّ جزاءَ ذلك هو الفوز يوم القيامة: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٩] ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١١١] وبذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون:١]))[٣] ، وسورة (المؤمنون) تدور حول قضية الايمان والمؤمنين وتأكيد فلاح المؤمنين وعدم فلاح الكافرين، وهذان التأكيدان كانا موضوع المقدمة والخاتمة

(١) الميزان:١٢/٨٩.

(٢) المصدر نفسه:١٥/٧.

(٣) المصدر نفسه :٥/٧٤.

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى المناسبة بين مفتتح سورة البقرة ومختتمها قال تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:١، ٢]بقوله: ((لما كانت السورة نازلة نجومًا لم يجمعها غرض واحد إلَّا أنَّ معظمها تُنْبِئ عن غايةٍ واحدةٍ محصلةٍ وهو بيان أنَّ من حقِ عبادة الله سبحانه أنْ يؤمنَ عبدُهُ بكلِّ ما أنزله بلسان رسله من غير تفرقة بين وحي ووحي، ولا بين رسول ورسول ولا غير ذلك ثم تقريع الكافرين والمنافقين وملامة أهل الكتاب بما ابتدعوه من التفرقة في دين الله والتفريق بين رسله، ثم التخلص إلى بيان عدة من الأحكام كتحويل القبلة وأحكام الحج والإرث والصوم وغير ذلك))[(١)].

وتُختم سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في مختتم هذه السورة ((الكلام في الآيتين كالفذلكة يحصل بها إجمال ما اشتملت عليه السورة من التفاصيل لغرضها،...وهذا الذي يشير إليه وإلى الالتجاء بالله في التجنب عند ذيل الآية الأولى وتمام الآية الثانية فالآيتين يرد آخر الكلام إلى أوله وختمه إلى بدئه ، ومن هنا يظهر خصوصية مقام البيان في هاتين الآيتين ،توضيحه إنَّ الله سبحانه افتتح هذه السورة بالوصف الذي يجب أنْ يتصف به أهل التقوى، أي: ما يجب على العبد من إيفاء حق الربوبية ،فذكر أنَّ المتقين من عباده يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون من رزق الله ويؤمنون بما أنزل الله على رسوله وعلى الرسل من قبله ويوقنون بالآخرة، فلا جرم أنعم الله عليهم بهداية القرآن وبين بالمقابلة حال الكفار والمنافقين))[(٢)].

---

(١) الميزان :٤٦/١.

(٢) المصدر نفسه :٤٤٦/٢.

المبحث الثالث: المناسبة بين السور(المناسبة الخارجية):

إذا كان منهج (تفسير القرآن بالقرآن) بكل جوانبه يؤكد التعامل النصِّي لدى بعض شُرّاح القرآن الكريم بوصفه نصًا واحدًا وكلًا متماسكًا، وأنَّ النصَّ ماثل بجملته عند تفسير أجزائه وأنَّ تبيان معناه واستجلاء دلالته إنَّما يكون في إطار سياقه الأكبر الذي هو جامع النص القرآني كله، إذا كان ذلك فإنَّ ظاهرة أخرى في التفسير ،لتؤكد هذا ، وهي المناسبة بين سور القرآن الكريم .

وهذه الدعامة الأولى التي يَرْتَكِزُ عليها التناسب بين السور القرآنية التي تصور القرآن كله كالكلمة الواحدة[١]،وبإرجاعه إلى وحدة مضمونة من شأنها أنَّ توحّدَ البنى العميقة للنص وهذا التصور لاتقف حدوده عند ربط السور المتجاورة إنما تعمُّ القرآن الكريم بأجمعه وبهذا تصبح مجالًا للربط بين عناصر النص في مستواه الاتساقي والانسجامي[٢].

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنَّ ترتيب السور في القرآن الكريم توقيفي ،وهناك مَنْ ذهب إلى أنَّه اجتهادي أو بعضه اجتهادي[٣].

وقبل الشروع في إيضاح المناسبة بين السور القرآنية عند السيّد الطباطبائيِّ، يجدر بنا أنْ نُعرّجَ على آراء بعض العلماء الذين ذهبوا إلى أنَّ ترتيب السور في القرآن الكريم اجتهادي منسجمة مع رؤية السيّد الطباطبائيِّ.

يقول الامام مالك :((إنَّما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي(θ) مع قوله بأنَّ ترتيب السور اجتهاد منهم))[٤].

وقال أحمد بن فارس : ((جمع القرآن على ضربين أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقبها بالمئين ،فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة وأمّا الجمع الآخر ضم الآيات بعضها إلى بعض وتعقيب القصة بالقصة فذلك شيء تولاه رسول الله (θ) كما أخبره جبرائيل عن أمر ربه عز وجل))[٥] .

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن :٣٩/١.

(٢) يُنظر: البحث الدلالي عند الرازي، أطروحة دكتوراه، حيدر مصطفى هجر، كلية الآداب ، جامعة البصرة، العام الدراسي ٢٠٠٥م: ٢٠٦.

(٣) يُنظرُ : البرهان في علوم القرآن:١/ ٣٢٤-٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه:٢٥٧/١.

(٥) نقلًا عن البرهان في علوم القرآن ٢٥٨/١-٢٥٩

ويقول أبو بكر الباقلاني :((يحتمل أنْ يكون ترتيب السور على ماهي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة))[١].

واستندَ الرافضون إلى الترتيب التوقيفي على الأدلة الآتية :أولًا ((أنَّه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي (θ) لظهر وفشا ونقل مثله، وفي العلم بعدم ذلك النقل دليلٌ على أنَّه لم يكن منه توقيف فيه، وثانيًا: أنَّ مصاحفَ الصحابةِ كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي (θ)، ما ساغ لهم أنْ يهملوه ويتجاوزوه)) [٢] .

فمن ذلك ((أنَّ مصحف أُبَيِّ بن كعب قدمت فيه النساء على آل عمران، ثم تلت آل عمران سورة الأنعام، ثم الأعراف ثم المائدة ...، ومصحف ابن مسعود كان مبدوءً بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف، ثم الأنعام ... الخ ما فيهما من خلاف مصاحفنا اليوم، وروي أنَّ مصحف علي كان مرتبًا على النزول، فأوله سورة العلق، ثم المدثر، ثم ق، ثم المزمل ثم تبت، ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي والمدني))[٣].

ويذكر السيوطي(ت٩١١هـ) أنَّ((ترتيب مصحف أُبي وهو يغاير المصحف الدائر مغايرة شديدة، وكذا عنه فيه بإسناده عن جرير بن عبد الحميد ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود آخذا من الطوال ثم المئين ثم المثاني ثم المفصل وهو أيضا مغاير للمصحف الدائر))[٤].

وقال ابن حجر: ((ترتيب بعض السور على بعض، أو معظمها لا يمتنع أنْ يكونَ توقيفيًّا، وإنْ كان بعضه من اجتهاد بعض الصحابة))[٥].

---

(١) الجامع لإحكام القرآن:١/٥٩.

(٢) مناهل العرفان :١/٣٥٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١/١٨١-١٨٣، والبرهان في علوم القرآن ١/٥٩، ومناهل العرفان :١/٣٥٣.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١/١٨٣.

(٥) المصدر نفسه:١/١٨٤

موقفُ السيّد الطباطبائي مِنْ ترتيبِ السوِّرِ القرآنيةِ

يرى السيّدُ الطباطبائيُّ ((أنَّ ترتيب السور إنَّما هو من الصحابة في الجمع الأول والثاني، ومن ذلك وضع عثمان الأنفال وبراءة بين الأعراف ويونس وقد كانتا في الجمع الأول متأخرتين))[(١)]،ويردُّ السيّدُ الطباطبائيُّ على مَن يذهب إلى تبريرِ اختلافِ مصاحفِ الصحابةِ بقوله:((إنَّ ما روته العامة والخاصة أنَّ عليًا (γ) اعتزل الناس بعد وفاة النبي (θ) ولم يرتدُّ إلاّ للصلاة حتى جمع القرآن ثُمَّ حمله إلى الناس وأعلمهم أنَّه القرآنُ الذي أنزله الله على نبيه (θ) وقد جمعه فردّوه واستغنوا عنه بما جمعه لهم زيد بن ثابت ولو لم يكن بعض ما فيه مخالفا لبعض ما في مصحف زيد لم يكن لحمله إليهم وإعلامهم ودعوتهم إليه وجه، وقد كان (γ) أعلم الناس بكتاب الله بعد نبيه (θ) ...))[(٢)] .

ويقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((وإنَّ جمع الأمام علي (γ) القرآن وحمله إليهم وعرضه عليهم لا يدل على مخالفة ما جمعه لما جمعوه في شيء من الحقائق الدينية الأصلية أو الفرعية إلَّا أنْ يكونَ في شيء من ترتيب السور أو الآيات من السور التي نزلت نجوما بحيث لا يرجع إلى مخالفة في بعض الحقائق الدينية))[(٣)].

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ السِّورَ في القرآن الكريم ترتيبها غير توقيفي ومع ذلك يرى أنَّ المناسبة بين السور القرآنية واضحة جلية ويُشير اليها متى يرى ذلك موجبًا ويخدم تفسير القرآن بالقرآن الذي سار عليه في تفسيره وعن ترتيب السِّور في القرآن فنجده يقول: ((لاشك أنَّ ترتيب سور القرآن لم تُثبتْ في القرآن الكريم على ترتيب نزولها على الرسول (θ)، وعلماء الإسلام الماضون وخاصة أهل السُّنة منهم كانوا يعتمدون في ترتيب السور والآيات على الحديث))[(٤)] .

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى نقطة مهمة ألا وهي أنَّ النبي(θ) أمر بكتابة القرآن الكريم وتعليمه، وتعلّمه، ونشر الأحكام الدينية((ولمّا هاجر النبي إلى المدينة

(١) الميزان:١٢/١٢٤.
(٢) المصدر نفسه :١٢/١٠٨.
(٣) المصدر نفسه :١٢/١١٤.
(٤) القرآن في الإسلام: ١٣٦-١٤١.

وانتظمت أمورُ المسلمين، أمر الرسول جماعة من الصحابة بالاهتمام بشأن القرآن وتعليمه وتعلّمه، ونشر الأحكام الدينية وما ينزل عليه من الوحي، فكانت تسجّل يومًا فيومًا حتّى لا تضيع ،وأُعفي هؤلاء من الحضور إلى ميادين الجهاد كما صرح القرآن الكريم ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]" [(١)] .

ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ منهج تفسير القرآن بالقرآن موضحًا انسجام النص القرآني برؤية نصية بقوله: ((إنَّ الأغراض والمقاصد المحصلة من السور مختلفة، وأنَّ كلَّ واحدةٍ منها مسوقةٌ لبيان معنى خاص ولغرض محصل لا تتم السورة إلا بتمامه))[(٢)]

ويُشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى أنَّ في داخلِ كلِّ سورةٍ من سورِ القرآن مجموعةٌ من العناصر التي قد تشير إلى عوامل وعناصر متعارضة بل في الآية الواحدة قد تبدأ بموضوع ثم تنتقل إلى آخر هذا وإنَّ ((دراسةَ الانسجام النصيِّ القائمة على اساسِ العلاقةِ بين الوحداتِ النصيةِ بقطعِ النظرِ عن تتابعها المكاني تصبحُ أكثر ضرورة في الحالات التي يبدو فيها مفككا أو متعارضا في الظاهر لكن سرعان ما ينكشف لمحلل النص أو قارئه أنَّ وراءَ ذلك بنية محكمة منسجمة تضمن تماسك النص وانسجامه))[(٣)].

وإنَّ وحدة النص القرآني بوصفه بناءً مترابط الاجزاء ،هي الغاية التي يبحث عنها علم المناسبة، وهو مهم في تحليل النص القرآني والوقوف على أسراره وبيان انسجامه، وإنَّ البحثَ عن كيفية انسجام النص القرآني، الذي يهمنا بالذات هو استخراج بعض الوسائل والعلاقات والآليات التي تفطن إليها السيّدُ الطباطبائيُّ ومساهمتها في جعل النص القرآني نصًا منسجمًا موحدًا على الرغم من اختلاف أوقات نزوله وأسبابها.

ونظرًا لاستحالةِ تتبّعِ السوُرِ القرآنيةِ جميعها اقتصرتُ على بعض السور من القرآن الكريم ؛لأنَّها حَوَت مضامين متنوعة عبّر السيّدُ الطباطبائيُّ عنها بأساليب

---

(١) القرآن في الإسلام:١٤٣

(٢) الميزان:١/١٩.

(٣) البحث الدلالي في تفسير (من وحي القرآن):١٩٣.

مختلفة مما يؤهلها في نظرنا؛ لأنَّ تُقَدّمَ أنموذجًا يجيبُ عن مجملِ التساؤلاتِ المتعلقةِ بالمناسبةِ بين السورِ في القرآنِ الكريمِ عند السيّد الطباطبائيِّ ،وقد تم ترتيب السور التي تناولها البحث ترتيب التلاوة معتمدًا السورة الأولى فقط.

١- المناسبةُ بين سورتي النساءِ و البقرةِ :

من علاقات المناسبة بين السورتين علاقة الإجمال والتفصيل، وهذه العلاقة توجد في كلِّ آيات القرآن الكريم ،وثمة علاقة بين الإجمال والتفصيل إذ تجمل قصة أو حكم ثم تفصل في مكان آخر، فإن التفصيل في ضوء علم اللغة النصي شديد التماسك بالإجمال، وكلاهما واحد، غير أنَّ التفصيل فيه زيادات وضوابط وتفاصيل تتناسب مع طبيعة الأمر المجمل، والتفصيل يحمل علاقة المرجعية الخلفية الداخلية لما أجمل من قبل، والملخص أنَّ الإجمال يمثل المحال إليه، والتفصيل المحيل، والمرجعية بالتكرار الشكلي والدلالي يمثل الوسيلة التي تتحقق بها الإحالة بينهما، واشتهر هذا العنصر عند العلماء العرب القدامى برد العجز على الصدر[١].

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((الآيات القرآنية مختلفة في إلقاء المعارف الإلهية والقوانين المشرعة في مكيتها ومدنيتها، الآيات المكية تدعو إلى كليات أُجمل فيها القول والمدنية تفصل القول وتأتي باتفاصيل التي سبقت في المكية كلياتها ومجملاتها، ومع ذلك فالآيات المدنية لا تخلو عن مثل هذا التدرج ،فما جميع الاحكام والقوانين الدينية نزلت في المدينة دفعة واحدة بل تدريجًا ونجومًا))[٢]،ويضيفُ السيّدُ الطباطبائيُّ((ومن الواجب أنْ يتذكر أنَّ السلوكَ إلى التفصيل والتدرج في إلقاء الأحكام إلى الناس من باب الإرهاق وحسن التربية ورعاية المصلحة غير المداهنة والمساهلة))[٣] .

وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى أوجه التناسب أو العلاقات الدلالية في بداية تفسيره ((إنَّ لكلِّ سورةٍ هدفًا عامًا، تتعاضد آيات السورة في بيانه والكشف

(١) يُنظر: ظاهرة المناسبة واتساق النص القرآني: ١٢٦.

(٢) الميزان:٤/١٦٢.

(٣) المصدر نفسه ٤/١٦٤.

عنه ومتابعته))[1]، وهو مؤمنٌ بنظرية الوحدة الموضوعية التي تُنظّم كل سورة من سور القرآن ،ولذلك جهد على تحديد الغرض العام قبل الخوض في عباب تفسير (سورة النساء) بقوله: ((غرض السورة بيان أحكام الزواج كعدد الزوجات ومحرمات النكاح وغير ذلك، وأحكام المواريث، وفيها أمور أخرى من أحكام الصلاة والجهاد والشهادات والتجارة وغيرها، وتعْرِضُ لحالِ أهل الكتاب ،ومضامين آياتها تشهد أنها مدنية نزلت بعد الهجرة، وظاهرها أنَّها نزلت نجومًا لا دفعةً واحدةً وإن كانت أغلب آياتها غير فاقدة للارتباط فيما بينها))[2].

ولنقف مع رؤية السيّدِ الطباطبائيِّ التي يقدّمها على وفق منهج تفسير القرآن بالقرآن واضعًا نصب عينيه العلاقات الدلالية في استيضاح ذلك ونعلم أنَّ سورة النساء تحتل المرتبة الرابعة في الموقع الترتيبي لسور القرآن وبما أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ لا يتقيّدُ بالترتيب التوقيفي للسور القرآنية ،يثبت المناسبة بين النساء وسورة البقرة ؛ لأنَّ المناسبة من آليات الانسجام التي تتصهر من خلال منهجه تفسير القرآن بالقرآن.

وغرض سورة البقرة يتناسب مع غرض سورة النساء وبما أنَّ الغرض يماثل البنية الكبرى عند المحدثين ،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن غرض سورة البقرة :((لما كانت سورة البقرة نازلة نجومًا لم يجمعها غرض واحد إلَّا أنَّ معظمها تتبئ عن غاية واحدة محصلة وهو بيان أنَّ من حق عبادة الله سبحانه أنْ يؤمن عبده بكل ما أنزله بلسان رسله من غير تفرقة بين وحي ووحي، ولا بين رسول ورسول ولا غير ذلك ثم تقريع الكافرين والمنافقين وملامة أهل الكتاب بما ابتدعوه من التفرقة في دين الله والتفريق بين رسله، ثم التخلص إلى بيان عدة من الأحكام كتحويل القبلة وأحكام الحج والإرث والصوم وغير ذلك))[3] .

وفيما يتعلق المناسبات بين سورتي البقرة والنساء، نلمح في التفسير المناسبات التالية: تبدأ السورتان البقرة والنساء بالتقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

(١) الميزان: ١٩/١.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٨/٤.

(٣) المصدر نفسه ٤٦/١.

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقـــــــــــرة:٢]، و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١] الذي يُعدُّ الموضوع الأساس في القرآن الكريم ، وتضم سورة البقرة الحديث عن قصة آدم، فيا تنطوي سورة النساء على بحث موضوع العائلة الذي ينتهي بالتحليل، كما يرى السيّدُ الطباطبائيُّ إلى جذر واحد، ((وظاهر السِّياق أنَّ المرادَ بالنفس الواحدة آدم (γ)، ومن زوجها زوجته، وهما أبوا هذا النسل الموجود الذي نحن منه وإليهما ننتهي جميعا على ما هو ظاهر القرآن الكريم))[(١)]

٢ -المناسبة بين سورتي العنكبوت والبروج :

يُجملُ السيّدُ الطباطبائيُّ غرض سورة العنكبوت التي تبدأ بقوله تعالى ﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③ ﴾ [العنكبوت:١-٣] بقوله: ((يلوح من سياق آيات السورة وخاصة ما في صدرها من الآيات أنَّ بعضًا ممن آمن بالنبي (θ) بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفًا من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين فإنَّ المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملتهم ويضمنون لهم أنْ يحملوا خطاياهم إنْ اتبعوا سبيلهم فإنْ أبوا فتنوهم وعذبوهم ليعيدوهم إلى ملتهم)) [(٢)]، ويشيرُ إلى ذلك قوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [العنكبوت:١٢] ،وقوله﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[العنكبوت:١٠]

لقد تضمنت الآيات موجزًا مجملًا لما سيأتي الحديث عنه مفصلًا في ثنايا سورة العنكبوت ، حيث تبدأ السورة بعد الحروف المقطعة بأسلوب إنكاري بالغ القوة يخبر بأنَّ كلَّ مؤمنٍ معرّض لتمحيص إيمانه والكشف عن صدق مكنونه ، وإنَّ

(١) الميزان:١/٤٦.

(٢) المصدر نفسه :١٦/١٠٠.

سُـنّةَ الابـتلاءِ لـم تكـن وليـدة عهـد بعينـه ، بـل كـلُّ الأمـم التـي سـبقتنا مـن الأنبيـاء وأقـوامهم ، والصـالحين وأتبـاعهم قـد مـروا بـألوان مـن المحـن والشـدائد ، أبانـت عـن حقيقة قلوبهم وصدق صبرهم.

والفتنـة فـي سـورة العنكبـوت جـاءت فـي صـور متنوعـة ، ((فمـرة تكـون بـالأذى ، ومـرة تكـون بطلـب الآيـات والمعجـزات ، ومـرة تكـون بطـرد المـؤمنين وإبعـادهم عـن أرضـهم ، ومـرة تكـون بالأهـل والمـال والأولاد ، ومـرة تكـون بـالافتراء والكـذب والادعـاء)) [(١)]، وقـد أشـار السـيّدُ الطباطبـائيُّ أثنـاء تحليلـه آيـات السـورة التـي قسـمها إلـى ثلاثـةِ فصـولٍ دلاليـةٍ[(*)]((فغـرض السـورة علـى مـا يسـتفاد مـن بـدئها وختامهـا والسـياق الجـاري فيهـا أنَّ الـذي يريـده الله سـبحانه مـن الإيمـان لـيس هـو مجـرد قـولهم: آمنـا بـالله بـل هـو حقيقـة الإيمـان التـي لا تحركهـا عواصـف الفـتن ولا تغيرهـا غيـر الـزمن وهـي إنَّمـا تتثبـت وتسـتقر بتـوارد الفـتن وتـراكم المحـن، فالنـاس غيـر متـروكين بمجـرد أنْ يقولـوا: آمنـا بـالله دون أنْ يفتنـوا ويمتحنـوا فيظهـر مـا فـي نفوسـهم مـن حقيقـة الإيمـان، فالفتنـة والمحنـة سـنة إلهيـة لا معـدل عنهـا تجـري فـي النـاس الحاضـرين كمـا جـرت فـي الأمـم الماضـين كقـوم نـوح وعـاد ثمـود وقـوم إبـراهيم ولـوط وشـعيب وموسـى فاسـتقام منهم من استقام وهلك منهم من هلك)) [(٢)].

ويضـيف السـيّدُ الطباطبـائيُّ قـائلًا: ((إنَّ محصـل غـرض السـورة ومقتضـى ذلـك كـون السـورة كلهـا مكيـة، وقـول القائـل: إنَّهـا مدنيـة كلهـا أو معظمهـا أو بعضـها ، فمضـامين آيـات السـورة لا تلائـم إلَّا زمـن العسـرة والشـدة قبـل الهجـرة، ومـا ختمـت بـه السـورة مـن قولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبـوت: ٦٩])) [(٣)].

ويُجملُ السيّدُ الطباطبائيُّ غرض سورة البروج التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا

(١) دراسة في سورة العنكبوت ، الشيخ أحمد القطان ، ومحمد الزين : ١٦.

(*) سوف نتناول الفصول الدلالية في الفصل الثالث إنْ شاء الله:

(٢) الميزان:١٦/١٠٠.

(٣) المصدر نفسه: ١٦/١٥٧.

قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان غرض سورة البروج: ((سورة إنذار وتبشير فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم بالله كما كان المشركون من أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبي (θ) فيعذبونهم ليرجعوا إلى شركهم السابق فمنهم من كان يصبر ولا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، ومنهم من رجع وارتد وهم ضعفاء الإيمان كما يسير قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠]

وقد قدم سبحانه على ذلك الإشارة إلى قصة أصحاب الأخدود، وفيه تحريض المؤمنين على الصبر في جنب الله تعالى، وأتبعها بالإشارة إلى حديث جنود فرعون، وثمود وفيه تطييب لنفس النبي (θ) بوعد النصر، وتهديد للمشركين ، والسورة مكية بشهادة سِّياق آياتها))[١] .

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) ليُبيِّنَ لنا التناسب في آيات السورة أولًا ثم التناسب الذي سنستشفَّه من أغراض الفصول الدلالية لكلا السورتين(العنكبوت والبروج) يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله لآية أعلاه:((عطف على السماء وإقسام باليوم الموعود وهو يوم القيامة الذي وعد الله القضاء فيه بين عباده،قوله تعالى:(وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم على ما أريد بيانه في السورة الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم والوعد الجميل لمن آمن وعمل صالحا)) [١].

وبعد هذا العرض لبيان المناسبة بين سورتي العنكبوت والبروج من خلال ما ذكره السيّدُ الطباطبائيُّ يمكن لنا أنْ نُجِزَه على شكل نقاط:

---

(١) الميزان: ٢٠/٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠/٢٧٨.

١-إنَّ المؤمنين في بداية الدعوة المحمّدية- خصوصاً في مكّة- يعانون من شدّة التضييق وأقسى ألوان التعذيب الجسدي والنفسي، الذي انهال به عدوّهم من الكفّار على أنْ يتركوا إيمانهم بترك عقيدة الحق والإرتداد عن الدين القويم.

٢-تناولت السّورة البروج (أصحاب الأُخدود)، الذين حفروا خندقاً وسجّروه بالنيران، وهددوا المؤمنين بإلقائهم في تلك النار إنْ لم يعودوا إلى كفرهم، وأحرقوا مجموعة منهم بالنار وهم أحياء، ومع ذلك لم يرجعوا عن دينهم، وفيه تحريض المؤمنين من أصحاب النبي (θ)على الصبر في جنب الله تعالى.

٣- إنَّ موضوع السورتين هو الثبات على الإيمان مهما قست وتعددت المحن والابتلاءات، وتَعِدُ السورتان في بعض آياتهما بعذاب جهنم الأليم لأُولئك الذين يؤذون المؤمنين ويعذبونهم على إيمانهم، وتذمهم ذمًا شديدًا، في حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنّة والفوز بنعيمها، وفي جانب آخر من سورة البروج، تُعرض لنا مقتطفات من قصّتي فرعون وثمود وقوميهما الجناة الطغاة، وما آلو إليه من ذُلّ وهلاك، كلّ ذلك تذكيرًا لكفّار مكة الذين هم أضعف قوّة وأقل جندًا من أُولئك، فعسى أنْ يرعُوا عمّا هم فيه من جهة، وتسلية لقلب الحبيب المصطفى(θ) ومَن كان معه من المؤمنين من جهة

إنَّ التأثير في عواطف المتلقي حتى يتواصل مع النص، من المبادئ التي يبنى عليها انسجام النص، فالنص يكون منسجمًا إذا كانت افكاره تصب في مصب واحد ، وغير متناقضة والمتلقي يحس بتسلسلها وتواليها، ونجد السيّدَ الطباطبائيَّ ينطلق في معالجاته للمناسبة من النص ليُبيِّنَ أوجه المناسبات التي ساعدت في انسجامه، ولهذا يعدُّ مفهوم الانسجام مفهومًا واسعًا يركزُ على الدور المهم الذي يلعبه المتلقي خلال عملية تفسير النص ضمن سياق معين[١].

٣- المناسبة بين السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة سور الحواميم أنموذجا:

تطلق الحواميم على السور المكيّة السبع التي بدأت بـ (حم) وهي: غافر[*] (خمس وثمانون آية)، وفُصِّلَتْ[*] (أربع وخمسون آية)، والشّورى (ثلاث وخمسون آية)، والزخرف

(١) يُنظر: لسانيات النص(مدخل إلى تحليل الخطاب) :٥٠

(*) سورة غافر في تفسير الميزان اسمها (المؤمن) .

(*) سورة فُصِّلَت في تفسير الميزان اسمها (حم السجدة).

(تسع وثمانون آية) والدخان (تسع وخمسون آية)، والجاثية (سبع وثلاثون آية) والأحقاف (خمس وثلاثون آية)[١] .

يقول السيوطيُّ: ((إنّما سمّيت السور السبع (حم) على الاشتراك في الاسم لما بينهنّ من التّشاكل الذي اختصّت به وهو أنَّ كلَّ واحدةٍ منها استُفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب مع تفاوت المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام))[٢] ،ويعلق صادق الرافعي على هذا القول : ((وهو بذلك يعني النظام البلاغي والترصيف الإعجازيّ، وقد نزلت هذه السور في بدء الدعوة الإسلامية التي كانت في حاجة إليها لكي تصكّ الأسماع بما يبهر الأنفاس وما يسكت الأصوات بالوقع الشديد ...من هنا جاءت بالإيقاع السريع والجرس العنيف الذي يعلن بدء المعركة الإعجازيّة مع كفّار قريش ...هذا ما كانت له السّور المفتتحة بالحروف المقطعة فإنّ كثيراً منها إذا تأمّلته فهو من أوّله إلى آخره مبني على لزوم حجّة القرآن والتنبيه على وجه معجزته))[٣] .

ويقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان مفهوم الحروف المقطعة : ((الحروف المقطعة الواقعة في أوائل عدة من السور القرآنية، وذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماوية، وقد اختلف المُفسِّرون من القدماء والمتأخرين في تفسيرها وقد نقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحد عشر قولًا في معناها: أحدها: أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو))[٤]،ويردُّ السيّدُ الطباطبائيُّ على هذه بقوله: ((والحق أنَّ شيئًا من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس))[٥] ويقول في مكان آخر: ((ولكن لابدّ من الالتفات إلى أنَّ الآية الكريمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) القرآن الكريم :٤٦٧-٥٠٢ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،١٤٠٥هـ.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/ ٥٧ــ٥٨ .

(٣) يُنظر: إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي: ١٢ .

(٤) الميزان :٦/١٨.

(٥) المصدر نفسه :٧/١٨.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [ال عمران:٧] وضعت الآيات المتشابهة مقابلًا للآيات المحكمة، ولازم هذا أنَّ المتشابه له مدلول من قبيل المدلول اللفظي ،إلَّا أنَّه يشتبه فيه مع المدلول الحقيقي، والحروف المقطَّعة في أوائل السور ليس لها مدلول كهذا،))[١].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ رأيًا ينفي فيه أنَّ الحروف المقطعة من المتشابه أو المحكم((ليس في القرآن آية لا نتمكَّن من معرفة معناها، والآية إمّا محكمة بلا واسطة ،أو محكمة مع الواسطة، كالمتشابهات، وأمّا الحروف المقطّعة في فواتح السور فليس لها مدلول لفظي، فهي ليست من المحكم والمتشابه)) [٢]

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في عرض رأيه قائلًا:((ثُمَّ إنَّك إنْ تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراءات والطواسين والحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور، ويؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [غافر:٢]أو ما هو في معناه، ... من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه، ويمكن أنْ يحدسَ من ذلك أنَّ بين هذا الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطًا خاصًا...)) [٣]

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ قائلًا: ((ويمكن القول إجمالًا إنَّ هذه الحروف وهي ضرب من الارتباط الخاص مع المطالب والأمور المذكورة في تلك السورة ، وفي ضوء ذلك نجد أنَّ السور التي تتفق مطالعها بحروف مقطعة تنطوي على بيان سنخ واحد من المطالب والأفكار، ...))[٤].

تعدّ الحواميم من عناصر الإعجاز الرئيسة بدليل أنّها سبع سور متسلسلةٍ مُتَعاضدة في النزول (٦٠. ٦٦) والترتيب (٤٠. ٤٦) وهي تشكل مقطعًا قرآنيًا موحّدًا تحت عنوان (حم)، وهذا الاتّفاق تحت الحرفين له خصائصه وسِمَاته عن بقيّة المقاطع القرآنيَّة، ذلك أنَّه

(١) القرآن في الإسلام:٣٩.
(٢) المصدر نفسه:٤١.
(٣) الميزان :٨/١٨.
(٤) المصدر نفسه :٩/١٨.

يشترك بعناصر مهمَّة في استعراض الأصول العقائديّة والمواعظ الإلهيّة والتربية الأخلاقيّة، إذ يمكن أن يدلَّ هذا التتالي على نمطّة التدريس الإلهي للإنسان في هذه العقائد المتّصلة، فالتوحيد هو رأس الأصول كلّها ثم تتبعه البقية بتبعيّة الفروع للأصول فضلاً عن التقارب في طول السور، فهُنَّ متوسطات بين الطول والقصر، وتستمد بلاغة هذه الحواميم ممّا حولها في استجلاء مظاهر العقيدة والتوحيد والقَّص النبويّ علاوةً على الأمثال والحكمة فهذه المضامين مجموعةٌ في وحدة بلاغيّة [(١)].

ومن إشارات السيّدِ الطباطبائيِّ إلى هذه المناسبة عند تفسيره سورة غافر التي يسميها المؤمن مفتتحها قوله تعالى:﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ [غافر:١-٤] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة إلى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتى يخاف على ما نزله من استعلائهم واستكبارهم بحسب أوهامهم، عليم على الإطلاق لا يدخل علمه جهل وضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق وبينه بحججه الباهرة))[(٢)] وفي مفتتح سورة فصلت التي يسميها السيّدُ الطباطبائيُّ (حم السجدة) قال تعالى﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فُصِّلَت:١-٢] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((تتكلم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وهو القرآن الكريم فهو الغرض الأصلي ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله ويبتدئ به ثم يعود إليه فصلا بعد فصل فقد أُفتتح بقوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فُصِّلَت: ٢]] ثم قيل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٦] وقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٤٠] وقيل وهو في خاتمة الكلام: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [فُصِّلَت:٥٢] ولازم إعراضهم عن كتاب الله

(١) يُنظرُ: لباب البيان في مقاصد القرآن ،د.كاظم مشكور العوادي مركز دراسات الكوفة، العدد الثالث عشر لعام ٢٠٠٩ م ٩.

(٢) الميزان:١٧/٣٠٢-٣٠٣.

إنكار الأصول الثلاثة التي هي أساس دعوته الحقة وهي الوحدانية والنبوة والمعاد فبسطت الكلام فيها وضمنته التبشير والإنذار، والسورة مكية لشهادة مضامين آياتها على ذلك))[1].

وتكلَّم السيّدُ الطباطبائيُّ عن(حم الشورى)التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى:١-٣] وما في مختتمها من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى:٥١] ، ورجوع الكلام إليه مرة بعد أخرى في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣] ، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى:١٧] :((تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه ورسله كما يدل عليه ما في مفتتحها فالوحي هو الموضوع الذي يجري عليه الكلام في السورة وما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين والكفار وما يستقبل كلا من الفريقين في معادهم ورجوعهم إلى الله سبحانه ...))[2].

وأشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى غرض سورة الزخرف ومحورها التي تبدأ بقوله تَعَالَىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف:٢-٨] وتختتم السورة بالوعيد أيضا قال تعالى ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((السورة موضوعة للإنذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخللة بينهما، وتذكر أنَّ السنة

(١) الميزان:١٧/٣٥٩.

(٢) المصدر نفسه:١٨/٥-٦.

الإلهية إنزال الذكر وإرسال الأنبياء والرسل ولا يصده عن ذلك إسراف الناس في قولهم وفعلهم بل يرسل الأنبياء والرسل ويهلك المستهزءين بهم والمكذبين لهم ثم يسوقهم إلى نارٍ خالدةٍ ، وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولا ثم سمي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى (ﷺ) خاصة بنفي الولد عنه تعالى فكررت ذلك وردته ووعدتهم بالعذاب، وفيها حقائق متفرقة أخرى))[1].

ويقفُ السيّدُ الطباطبائيُّ عند سورة الدخان التي تبدء بقوله تعالى:﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾ [الدخان:١-٣] ويدلو بدلوه في استيضاح غرضها ومحورها الذي تدور حوله الآيات ولِيثبت لنا انسجامها مع السور المبدوءة بـ(حم) بقوله: ((يتلخص غرض السورة في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله إلى الناس لإنذارهم وقد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم، غير أن الناس وهم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هلوساتهم وسيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون إلى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد، ثم يذكر لهم تنظيرا لأول الوعيدين قصة إرسال موسى (ﷺ) إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل وتكذيبهم له وإغراقهم نكالا منه...، والسورة مكية بشهادة سياق آياته))[2].

ويشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى غرض سورة الجاثية وموضوعاتها التي تبدء بقوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ ﴾ [جاثية:١-٣]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ((غرض السورة دعوة عامة على الإنذار تفتتح بآيات الوحدانية ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي (ﷺ) وتشير إلى لزوم اتباعها له ولغيره بما أنَّ أمامهم يوما يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتباع الشريعة واجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين، ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة، وفي خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والذين اتخذوا إلههم هواهم ... ، ومن طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال واستنساخها))[3].

(١) الميزان:١٨/٨٤.

(٢) المصدر نفسه:١٨/١٣٢.

(٣) المصدر نفسه :١٨/١٥٧.

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند سورة الاحقاف والتي تبدأ بقوله تعالى : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: ١-٣ قائلاً: ((غرض السورة إنذار المشركين الرادين للدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد وفيها احتجاج على الوحدانية والنبوة، وإشارة إلى هلاك قوم هود وهلاك القرى التي حول مكة وإنذارهم بذلك ،أنباء عن حضور نفر من الجن عند النبي(θ) واستماعهم القرآن وإيمانهم به ورجوعهم إلى قومهم منذرين لهم)) [(١)].

وبعد هذا العرض يجدر بنا أنّ نُبين ما أجمله السيّدُ الطباطبائيُّ في المناسبة بين هذه السور التي استعرضها البحث على شكل نقاط:

١- إنَّ هذه السور منضبطة بنسقٍ واحدٍ تنزيلًا وتَدوينًا.

٢- إنّ محتوى هذه السور يتضمّن مشتركات أوجبت انضمامها بالحزمة الواحدة، وهذه المشتركات كما تقّدم هي في التّوحيد والعقائد، والمواعظ والكونيات، وكأنّها سورة واحدة.

أمّا مناسبتها فقد تكون أطوالها المستوسقة مع بعضها بعضًا بما يشكِّل جميعها بمثابة أطول سورةٍ في القرآن، وهذا يدلّل على أنَّ تناسبها من هذا الجانب أيضًا من مشتركاتها المتّفقة، وهذا من الأدلّة المعضّدة التي تؤكّد أنَّ هذه السور ذات خصوصيّة متميّزة في ظهورها وتجدّدها ومعانيها، فالنسق النزوليّ متحفّظ بثبوته كما هو النسّق المصحفي (التدويني) لأنَّهما قد صِينا في عهد الرسول (θ) وأحيطا بالعناية الكافية بعده، ولمّا كان المحور المشترك في افتتاح السورة وختامها هو سِمَة عامّة في جميع سور القرآن فإنّ علاقة فواتح الحواميم بخواتيمها أصل هذا الباب الذي هو معرفة[(٢)] ((حركة المعنى داخل السورة ومراقبة نموّه وامتداده...)) [(٣)]

(١) الميزان:١٨/١٨٩.

(٢) يُنظرُ: لباب البيان في مقاصد القرآن:١١.

(٣) من أسرار التّعبير القرآني(دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب)، محمّد محمد أبو موسى :٢٦.

إنَّ البحث في سورة (حم الشّورى) ابتدأ بالوحي وانتهى بالمحادثة حوله، وفي سورة الجاثية يبتدئ الحديث حول التوحيد الرباني وينتهي بالكلام حوله، وفي سورة الأحقاف يبدأ البحث عن المعاد ويختتم به وهذا لا يعني أنّ لكلّ سورة موضوعاً خاصّاً بل إنّ المقصود بذلك أنّ جميع هذه السور المذكورة وإنْ كانت تنطوي على المعارف الدينيّة العامة إلاّ أن ما تبرز وتتميّز فيه مختلف ومتفاوت أي: بغضّ النظر عن المضمون المشترك الذي تمتاز به هذه السور السبع، فإنَّ لكلٍّ منها خصيصة تكون سببًا لتمايزها فيما بينها(١).

٤- المناسبة بين سورتي الواقعة والحاقة

من السِّور التي تظهرُ المناسبة واضحة بينهما سورة الواقعة وسورة الحاقة، إذ ينصبُّ موضوعهما الرئيس على الحديث عن يوم القيامة وما يحدث فيه من تفاصيل سَرَدَتْها كلّ سورة منهما وتبدأ سورة الواقعة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة:١-١٤] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في غرض هذه السورة والغرض عنده يُماثل البنية الكبرى عند (فان دايك): ((تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس وحسابهم وجزاؤهم فتذكر أولًا شيئًا من أهوالها مما يقرب من الإنسان والأرض التي يسكنها فتذكر تقليبها للأوضاع و الأحوال بالخفض والرفع وارتجاج الأرض وانبثاث الجبال وتقسم الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالا ثم تذكر ما ينتهي إليه حال كل من الأزواج السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ،ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته و للبعث المكذبين بالقرآن الداعي إلى التوحيد و الإيمان بالبعث، ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت و انقسام الناس إلى ثلاثة أزواج، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها)) (٢).

وبعد أنْ عرض لنا السيّدُ الطباطبائيُّ غرض السورة يُبين لنا معنى الواقعة تماثل أسماء القيامة في القرآن كالحاقة بقوله :((والواقعة صفة توصف بها كل حادثة، والمراد بها

(١) يُنظرُ: معارف القرآن من خلال الحواميم السّبع ، الشيخ جوادي املي: ٣٥٠- ٣٥١.
(٢) الميزان:١٩/ ١١٩.

هاهنا واقعة القيامة وقد أطلقت إطلاق الأعلام كأنها لا تحتاج إلى موصوف مقدر ولذا قيل: إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقة والقارعة والغاشية)) [(١)]، يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى مختتم سورة الواقعة قائلًا:((إذ تختم سورة الواقعة بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة:٩٥-٩٦])) [(٢)].

ويُشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى مفتتح سورة الحاقةِ التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة:١-١٢]بقولة:((السورة تذكر الحاقة وهي القيامة وقد سمتها أيضا بالقارعة والواقعة،وقد ساقت الكلام فيها في فصول ثلاثة: فصل تذكر فيه إجمالا الأمم الذين كذبوا بها فأخذهم الله أخذة رابية، وفصل تصف فيه الحاقة وانقسام الناس فيها إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال واختلاف حالهم بالسعادة والشقاء، وفصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنبائه بها وأنه حق اليقين، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها)) [(٣)].

وبعد أنْ ذكرَ السيّدُ الطباطبائيُّ غرض السورة أشار إلى معنى الحاقة بقولة: ((المراد بالحاقة القيامة الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتًا لا مرد له ولا ريب فيه، من حق الشيء بمعنى ثبت وتقرر تقررًا واقعيًا)) [(٤)]، وعن مختتم سورة الحاقة يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((وتختم سورة الحاقة بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٥١-٥٢])) [(٥)].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في استيضاح الانسجام بوساطة آلية المناسبة بقوله:((والسورتان متحدتان في الغرض وهو وصف يوم القيامة ومتحدتان في

(١) الميزان:١٩/١٢٠.
(٢) المصدر نفسه:١٩/٤٢٢ .
(٣) المصدر نفسه:١٩/ ٤٠٨-٤٠٩.
(٤) المصدر نفسه:١٩/ ٤٠٩.
(٥) المصدر نفسه:١٩/٤٢٢.

سياق خاتمتهما وهي الإقسامُ على حقيقة القرآن المنبئ عن يوم القيامة، وقد ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حق اليقين ثم الأمر بتسبيح اسم الربّ العظيم المنزّه عن خلق العالم باطلًا لا معاد فيه وعن أنْ يبطلَ المعارف الحقة التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ والمعاد))[(١)].

وهذه الأغراض لما كانت متشابه وهي التوحيد والمعاد والإيمان بالكتب المقدسة والرسل المرسلة فهي تتطلب أنْ تكونَ في حلقةٍ واحدةٍ من الإيمان بها جميعًا، لذا أنتظمتها الآيات جميعًا على وفقِ غايةٍ واحدةٍ متسقةٍ من هنا يقول السيّد الطباطبائي:((فالمراد بالإيمان بالغيب في مقابل الإيمان بالوحي والإيقان بالآخرة، هو الإيمان بالله تعالى ليتم بذلك الإيمان بالأصول الثلاثة للدين، والقرآن يؤكّد القول على عدم القصر على الحس فقط ويحرص على اتباع سليم العقل وخالص اللب))[(٢)].

إنَّ كثرةَ التأملِ في النص القرآني تولد معاني وتصورات قد تختلف من إنسان لآخر نتيجة لطبيعة التفاعل بين المتلقي والنص ولطبيعة الكفاءة التي يمتلكها المتلقي وتجارب المتلقي، فالوسائل التي أتيحت لقارئ النص القرآني في صدر الإسلام غير الوسائل المتاحة في العصر الحالي ومن ثم تطور فهم النص بما يتلائم مع هذه الوسائل بل قد تختلف كفاءة المتلقين بنص واحد في وقت واحد[(٣)].

٥-المناسبة بين سورتي الحديد والتغابن:

أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى المناسبة بين سورتي الحديد والتغابن، فقد أشار إلى غرض سورة الحديد التي تبدأ بقوله تعالى﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد:١-٢]بقوله: ((غرضُ السورةِ حثُ المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد الأمر به مرة بعد مرة من خلال آياتها ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ

(١) الميزان :١٩/٤٢٢.
(٢) المصدر نفسه :١/٤٩.
(٣) يُنظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق:٢/٢١٦.

كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ، ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحديد:٧، ١١، ١٨]وقد سَمَّتْ إنفاقهم ذلك إقراضًا منه لله عز اسمه فالله سبحانه خير مطلوب وهو لا يخلف الميعاد وقد وعدهم إنْ أقرضوه أنْ يضاعفَه لهم وأنْ يؤتيهم أجراً كريماً))[١].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح أغراض السورة وتعدد موضوعاتها التيدور حول محور الانفاق في سبيل الله((و قد أشار إلى أن هذا الإنفاق من التقوى و الإيمان بالرسول و أنه يستتبع مغفرة الذنوب وإتيان كفلين من الرحمة ولزوم النور بل واللحوق بالصديقين والشهداء عند الله سبحانه ،وفي خلال آياتها معارف راجعة إلى المبدأ والمعاد، ودعوة إلى التقوى و إخلاص الإيمان والزهد وموعظة، والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها وقد ادعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك،ولقد افتتحت السورة بتسبيحه وتنزيهه تعالى بعده من أسمائه الحسنى لما في غرض السورة وهو الحث على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة والنقص في ناحيته و نظيرتها في ذلك جميع السور المفتتحة بالتسبيح وهي سور الحشر والصف والجمعة و التغابن...))[٢] .

ويقول السيُّ الطباطبائيُّ عن غرض سورة التغابن: ((السورة شبيهة بسورة الحديد في سياق كسياقها ونظم كنظمها كأنَّها ملخصة منها وغرضها تحريض المؤمنين ترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله ورفع ما يهجس في قلوبهم و يدب في نفوسهم من الأسى والأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمل مشاق الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله والإنفاق فيها بأن ذلك كله بإذن الله، والآيات التي أوردناها من صدر السورة مقدمة وتمهيد لبيان الغرض المذكور تبين أنَّ أسماءه تعالى الحسنى صفاته العليا تقضي بالبعث ورجوع الكلِّ إليه تعالى رجوعًا يساق فيه أهل الإيمان العمل الصالح إلى جنة خالدة، وأهل الكفر والتكذيب إلى نار مؤبدة فهي تمهيد للأمر بطاعة الله ورسوله والصبر على المصائب والإنفاق في سبيل الله من غير تأثر من منع مانع ولا خوف من لومة لائم، والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها))[٣].

---

(١) الميزان:١٩/١٤٩-١٥٠.

(٢) المصدر نفسه:١٩/١٤٩-١٥٠.

(٣) المصدر نفسه :١٩/٣٠٧.

ويستحضر السيّدُ الطباطبائيُّ الانسجام النصِّي عند بيان المناسبة بين السورتين من الحثّ والترغيب في الإيمان بالله والرسول والانفاق في سبيل الله التقوى بحق التقوى دون شبحها وصورتها وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٦،١٧] توضيح وتأكيد لقوله (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) والسمع الاستجابة والقبول وهو في مقام الالتزام القلبي، والطاعة، والانقياد وهو في مقام العمل، والإنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله(١).

يُشير السيّدُ الطباطبائي إلى المناسبة بين غرض السورتين، والغرض يعني عنده الدلالة المستخلصة من مجمل الموضوعات ،أو هو محور الرسالة الذي ينطوي عليه النص أو الذي بدوره يُسهمُ في التأثير على متلقيه ،والغرض يتكون من موضوعات مختلفة تؤسّس له وتُشَكِّلُه(٢).

والانسجام خاصية من خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، نراه في أوجه التناسب الذي أشار إليه السيّدُ الطباطبائيُّ بين السورتين ، التي خرجت عن العلاقات الدلالية المحدودة (علاقات الجملة) إلى التناسب بين السورتين في الارتباط بمرجعية واحدة، كأنَّ الموضوع المتكلم عنه واحدٌ في المطلعِ أو المقطعِ(٣).

وهكذا يتراءى لنا الانسجام بين السورتين من المناسبة التي وظَّفها السيّدُ الطباطبائيُّ لبيان الانسجام النصِّي، ابتدأت بالتسبيح هذا هو دأب الوجود كله في السموات والأرض ، إنَّه في صلاة دائمة مستغرقة ، وعلى وجه قائم بين يدي الله في خشوع ،وبيان بعض صفات الله الحسنى المتصلة بجلال الله وقدرته وخلقه للإنسان الذي يؤول أمره إلى أحد القسمين : مؤمن وكافر، وذكَّرت بيوم القيامة ، وما يكون فيه من تغابن ، حيث يغبن الكافرون المكذبون ، ويربح المؤمنون المقرضون، وحذرت من الانشغال بالزوجات والأولاد عن طاعة الله ، وأن تكون أسرته وسيلة ومعينة له على الصلاح والانفاق في سبيل الله.

---

(١) يُنظر: الميزان :٣٢١/١٩.

(٢) يُنظرُ: المنهج السِّياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير:٣٤.

(٣) يُنظرُ :النص والخطاب والاتصال :١٧٤.

٦- المناسبة بين سورتي المرسلات والنبأ :

أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى غرض سورة المرسلات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات:١-١٥] بقوله ((تذكرُ السورةُ يومَ الفصلِ وهو يوم القيامة وتؤكّد الإخبار بوقوعه وتشفعه بالوعيد الشديد للمكذبين به والإنذار والتبشير لغيرهم ويربو فيها جانب الوعيد على غيره فقد كُرّر فيها قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥] عشر مرات ،والسورة مكية بشهادة سياق آياتها))[١]

ويضيفُ السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان غرض السورة مقلبًا أراء المُفسِّرين الذين سبقوه، ومن المعاصرين من المصريين خاصة موضحًا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات:١] بقوله: ((الآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات إقسام منه تعالى بأمور يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا، والأوليان أعني المرسلات عرفا والعاصفات عصفا لا تخلوان لو خليتا ونفسهما مع الغض عن السياق من ظهور ما في الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب لكن الأخيرة أعني الملقيات ذكرا عذرا أو نذرا كالصريحة في الملائكة النازلين على الرسل الحاملين لوحي الرسالة الملقين له إليهم إتماما للحجة أو إنذارا وبقية الصفات لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى ،وحمل جميع الصفات الخمس على إرادة الرياح كما هو ظاهر المرسلات والعاصفات يحتاج إلى تكلف شديد في توجيه الصفات الثلاث الباقية وخاصة في الصفة الأخيرة، وكذا حمل المرسلات والعاصفات على إرادة الرياح وحمل الثلاث الباقية أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحي إذ لا تناسب ظاهرا بين الرياح و بين ملائكة الوحي حتى يقارن بينها في الأقسام وينظم الجميع في سلك واحد، وما وجهوه من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينتقل إليها في مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق))[٢].

---

(١) الميزان :١٥٨/٢٠.

(٢) المصدر نفسه:١٥٩/٢٠

وفي المقابلِ فقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى غرض سورة النبأ التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ۝٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ۝٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ۝١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ۝١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ۝١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ:١-١٦] بقوله:((تتضمن السورة الإخبار بمجيء يوم الفصل وصفته والاحتجاج على أنَّه حق لا ريب فيه، فقد افتتحت بذكر تساؤلهم عن نبأه ثم ذكر في سياق الجواب ولحن التهديد أنَّهم سيعلمون ثم احتج على ثبوته بالإشارة إلى النظام المشهود في الكون بما فيه من التدبير الحكيم الدال بأوضح الدلالة على أنَّ وراءَ هذه النشأةِ المتغيرةِ الدائرةِ نشأةٌ ثابتةٌ باقيةٌ، وأنَّ عقيبَ هذه الدار التي فيها عمل ولا جزاء دارًا فيها جزاء ولا عمل فهناك يوم يفصح عنه هذا النظام، ثم تصف اليوم بما يقع فيه من إحضار الناس وحضورهم وانقلاب الطاغين إلى عذاب أليم والمتقين إلى نعيم مقيم ويختم الكلام بكلمة في الإنذار، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها))[(١)].

وإشارةُ السيّدِ الطباطبائيِّ إلى تناسب الغرضين دلتْ على رؤيته إلى انسجام القرآن الكريم كونه نصًّا يعود إلى مصدر واحد وغرض واحد بغض النظر عن ترتيبه.

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى:﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ:٢-٣]، مُحدّدًا المناسبة كاشفًا عن الانسجام بقوله:((جوابًا عن الاستفهام السابق أي يتساءلون عن النبأ العظيم، ولا يخفى ما في توصيف النبأ المتسائل عنه بالعظيم من تعظيمه وتفخيم أمره ، والمراد بالنبأ العظيم نبأ البعث والقيامة الذي يهتم به القرآن العظيم في سوره المكية ولاسيما في العتائق النازلة في أوائل البعثة كل الاهتمام ،ويؤيد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل وما تقدم عليها من الحجة على أنه حق واقع))[(٢)].

وهذا ينسجم مع ما ذُكر في سورة المرسلات التي حثت على التصديق بما نزل وتخويفهم من هول يوم القيامة وابتعادهم عن التكذيب إذ تكرر قوله تعالى ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ

(١) الميزان:٢٠/١٧٣.

(٢) المصدر نفسه :٢٠/١٧٤.

﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عشر مرات وبما أنَّ التكرار يقوم بدور رئيس في عملية نسيج النص فهو ((الملمح النصي الاكثر بروزاً لتلاحم النص ،فهو يدخل في نسيجه لحمة وسدى، ويشد أطرافه بعضها إلى بعض ويعطي شكله نوعاً من الحركة ،يدور فيها الكلام على نفسه يتكرر دون أن يعيد معناه))[١].

٧-المناسبة بين سورتي الفيل وقريش .

يُشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى غرض سورة الفيل التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفِيل:١-٥] بقوله: ((فيها إشارة إلى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، وهي من آيات الله الجلية التي لا سترة عليها، و قد أرخوا بها و ذكرها الجاهليون في أشعارهم، والسورة مكية))[٢].

وقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش:١-٤] ،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن هذه المناسبة :((تتضمن سورة قريش امتنانًا على قريش بإيلافهم الرحلتين وتعقّبه بدعوتهم إلى التوحيد وعبادة ربّ البيت، والسورة مكية،ولمضمون السورة نوع تعلّق بمضمون سورة (ٱلْفِيلِ)))[٣].

ويلمح السيّدُ الطباطبائيُّ انسجامًا في قول معتمدًا السِّياق يطمئن إليه، يقول:((وقيل: المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لتألف قريش بمكة ويمكنهم المقام بها أو لنؤلف قريشًا فإنَّهم هابوا من أبرهة لما قصدها وهربوا منه فأهلكناهم لترجع قريش إلى مكة ويألفوا بها ويولد محمد (θ) فيبعث إلى الناس بشيرًا ونذيرًا ، والكلام في استفادة هذه المعاني من السِّياق))[٤].

---

(١) مقالات في الاسلوبية :٨٨.

(٢) الميزان ٢٠/ ٤١٧.

(٣) المصدر نفسه ٢٠/٤٢١.

(٤) المصدر نفسه ٢٠/٤٢٤.

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى ربط سورة قريش بسورة الفيل؛ لأنَّ كلتا السورتين تذكير بنعم اللَّه على أهل مكة ، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم ، والسورة قريش تذكر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية ، حيث حقق اللَّه بينهم الألفة واجتماع الكلمة ، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار ، ونعمة الغنى واليسار والإمساك بزمام الاقتصاد التجاري في الحجاز، بالقيام برحلتين صيفا إلى الشام وشتاء إلى اليمن.

وهناك فرقٌ بين المناسبة والترابط فالارتباط اوسعٌ من المناسبةِ التي أشار إليها المُفسِّرون ؛ لأنَّ الرابطية((تحمل خصائص تداولية تتعلق بفعل التواصل مع المتلقي ، بينما كان مفهوم المناسبة في التراث العربي الإسلامي مفهوماً ضيقاً يرتبطُ بالعلاقاتِ الدلاليةِ الخاصةِ))[١].

ويذكر السيّدُ الطباطبائيُّ في مواضع من تفسيره مصطلح المناسبة وفي مواضع أُخر يذكر الارتباط والاتصال هذا يدل على رؤية السيّدِ الطباطبائيِّ النصية التي تكاد تقترب من ما قالت به اللسانيات النصية الحديثة، وهو يريد بالمناسبة القائمة على الارتباط والاتصال المعنوي وليس على اساس الترتيب التوقيفي للقرآن الكريم،ويركزُ السيّدُ الطباطبائيُّ على وحدة الغرض ويرى أنَّ وحدةَ الغرضِ حاكمةُ لكلِّ القرآن والمتمثلة بدورانه حول البعد التوحيدي وبه يكون هذا البعد هو البنية الدلالية العميقة ، ومظهر من مظاهر الإعجاز القرآني الذي يؤكّد الترابط بين الآيات والحكمة في تسلسل المعاني، وإلحاق فكرة بأخرى، وربط حكم بآخر، والمناسبة تؤكّد الترابط والتكامل في الآيات في السورة، ولا يمكن تصور انفكاك الآيات عن بعضها ؛لأنَّ القرآن الكريم نصٌّ واحدٌ، والقادر على بيان هذه الرؤية منهج تفسير القرآن بالقرآن لا ما ذهب إليه معظم المُفسِّرين ؛لأن ذلك يخلُّ بالنسق القرآني المُعجز، ويحتاج علم المناسبة إلى إشراقة روحية تُعين المُفسّر على تلمُّس عظمة الترتيب القرآني[٢] .

(١) الانسجام في القرآن الكريم (سورة النور أنموذجا)، : ١٢.

(٢) يُنظر :في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن :٤٦.

الفصل الدلالي : لغةً واصطلاحاً

من خصائص القرآن الكريم أنَّه لا يُفرِدُ كلّ سورةٍ من سورهِ لموضوعٍ معينٍ في الغالب، وإنَّما يجمعُ في السورةِ الواحدةِ مواضيع متنوعة وأغراضًا مختلفة من عقائدَ وأحكامٍ ومواعظ وقصصٍ وأمثالٍ وجدلٍ وحكمٍ وينتقل بينها من غير فصل، والسورةُ القرآنيةُ وحدةٌ متلاحمةٌ قد تتعدد موضوعاتها وتتنوع مقاصدها ولكنها تُشد في النهاية لمحورٍ واحدٍ هو غايتها، وقد أشار إلى ذلك سيد قطب بقوله: ((إنَّ كلَّ سورةٍ من سور القرآن ذات شخصيةٍ متفردةٍ، وذات ملامحٍ متميزةٍ ، وذات منهج خاص وذات أسلوب معين))[١].

وإنَّ تجلي بناء السورة القرآنية وإبراز اتساق عناصرها وانسجام أجزائها ،ينطلق من الكشف عن مقصد السورة أو المحور الفكري الذي تدور حوله سائر فروع معانيها ولا مرية في أنَّه أمر دقيق يحتاج إلى إمعانِ النظرِ في أجزاءِ السورةِ ،وإجالةِ الفكرِ في تدبرِ معانيها المتشعبة مع القدرة الفائقة على النظر الشمولي إلى هيكلها العام والتمييز بين الأغراض الرئيسة والمعاني الواردة على سبيل الاستطراد والتتميم[٢].

وقبل الدخول في بيان الفصول الدلالية في تفسير (الميزان) للسيّد الطباطبائيِّ، تجدرُ الإشارة إلى تتبع جذر (فَصَلَ) لغويًا.

الفصلُ لغةً :

جاء في لسان العرب ((الفصل الحاجز بين الشيئين فصل بينهما يفصل فصلًا فانفصل)) [٣] وجاء في الصحاح ((الفَصْلُ واحد الفُصول ، وفَصَلْتُ الشيء فانْفَصَلَ، أي: قطعته فانقطع ، ومنه فصلت المرأة رضيعها فصلاً يعني فطمته))[٤]،وذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ)((وكلمة فصل تدل على تمييز الشيء من الشيء وإبانته منه)) [٥].

---

(١) في ظلال القرآن، سيّد قطب : ٨/١.

(٢) يُنظر:المصدر نفسه: ١٩٥/١ .

(٣) معجم لسان العرب:١٨٨/١١،(فَصَلَ).

(٤) معجم الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، الجوهريِّ (ت٣٩٨هـ تقريبًا):١٧٩١/٥، (فَصَل).

(٥) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس(ت٣٩٥هـ):٨٤٧/٥،(فَصَل).

الفصلُ اصطلاحاً:

تحدث النقاد العرب الأوائل عن مصطلح (الفصل)فذكر ابن طباطبا هذا المصطلح صراحةً في حديثه عن حسن التخلص بين الأغراض الشعرية[١]،يقول ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ):((فإنَّ للشعر فصولًا كفصولِ الرسائلِ فيحتاج الشاعر إلى أنْ يصلَ كلامه على تصرّفه في فنونه صلة لطيفة فيتخلّص من الغزل إلى المدح ومن المدح الى الشكوى بألطف تخلّص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله))[٢]،وهذه الإشارة من ابن طباطبا تنمُّ أولًا عن وعي بضرورة توفر شروط الانسجام في الخطاب الشعري وثانياً بوصفِ هذا الشرط قاعدة لا ينبغي أنْ يحيدَ عنها الشاعر[٣].

وتحدّث حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) عن الفصل وانسجامه في الفصول الأدبية فالفصل عنده ((بيتان أو أربعة أبيات من أبيات الشعر تهدف إلى إيصال معنى معين، مع مراعاة أنْ تكونَ مواد الفصل متناسبة المفهومات ،وحسنة الاطراد، وغير متخاذلة النسيج، وغير متميز بعضها عن بعض، التميز الذي يجعل كل جزء منه كأنَّه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الاجزاء بنية لفظية أو معنوية يتنزل بها من بقية الاجزاء منزلة الصدر من العجز))[٤]، وقد أكّدَ القرطاجني، أنْ يكون نسيج الفصل متماسكًا غير متهلهل ،فتكون جملهِ كأنَّها خيوطٌ متداخلةٌ ،فينشأُ من تداخلها قطعة تشبه قطعة النسيج في تماسكها وانسجامها[٥].

ويقول الدكتور مشكور كاظم العوادي : ((إنَّ مبدأ الفصل الدلالي هو الأسلوب الأقوم في دراسة النص بوصفِ السورة ، إمّا أنْ تتضمنَ فكرة جزئية واحدة كما في القصار أو تتضمن مجموعة من الأفكار الجزئية كما في الطوال))[٦].

إنَّ استعمال العرب لهذه المادة واشتقاقاتها تدور حول التقطيع ،وفصل الشيء عن الآخر لسبب ما، مع وجود ترابط وانسجام بينها على المستوى الدلالي، وفي ضوء ذلك نستطيع أنْ نلمحَ وشيجة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للفصل الدلالي.

---

(١) يُنظر: البحث الدلالي في تفسير من وحي القرآن:١٨٥.

(٢) عيار الشعر، محمد أحمد بن طباطبا العلوي :٢٢.

(٣) يُنظر: لسانيات النص (مدخل الى انسجام الخطاب):١٤٤.

(٤) منهاج البلغاء وسراج الادباء، حازم القرطاجنيّ(ت٦٨٤هـ) تحقيق،محمد الحبيب بن خوجة:٢٨٨.

(٥) يُنظر: المصدر نفسه:٢٨٩.

(٦) مقاربات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري،(تفسير القرآن أنموذجا):٣٣.

وتجدر الاشارة إلى أنَّ الفصل الدلالي الذي نحن بصدد دراسته يماثل المقطع عند المحدثين إذ يقول اللغوي جان ميشال آدم :((النصية نتاج تشكل مقطعي وتداولي أمَّا مفهوم المقطع فيُمفصل النص إلى مقاطع بفعل التنظيم والتنقيط والشكل، والأهم بفعل علامات لغوية معينة إلى مقاطع حيث يصبح المقطع الوحدة النصية الصغرى، أمّا توجّه النص التداولي؛ فيحدده غرضه وتَحُدُّه العلاقات التي تربطه بمحيطه الخطابي والمرجعي العام))[١].

ويُستثمرُ دورُ التقطيعِ في منحِ النصِ تخطيطًا خاصًا به ، فهو الذي يدل على تغير الفقرة، وحتى العناوين الفرعية والعناوين الكبرى ،وعلامات الترقيم التي تعمل على توجيه القارئ وهي تعمل على تحقيق وحدة النص بعد ذلك، ويتجلى ذلك في أثناء قراءة النص إذ تتحول القراءة إلى تقنية لتحليل النص ، فتكون العملية الأولى التقطيع ثم وضع وحدات النص في إطارها بالانتقال من وحدة نصية إلى أخرى فالوحدات الشكلية توضع في علاقات معنوية ، بقراءة متتابعة تبدو الوحدات الشكلية في العلامات التنغيمية والعلامات الوقفية خاصة[٢].

ويري محمود البستاني أنَّ البناء المقطعي ((هو أنْ تتناول السورة جملة من الموضوعات، ثم تقف عند نهاية كل قسم منها أو عند بداية قسم جديد منها فتجعله محطة توقف لتعود إلى المحطة ذاتها بعد أنْ تقطعَ رحلة ما، وتكرر هذه الرحلات ويتكرر الوقوف عند نفس المحطة ومثاله: سورة (المرسلات) حيث ينتهي كل واحد من موضوعاتها عند مقطع يقول ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[المرسلات:١٥]))[٣].

ويرى الدكتور أحمد بزوي الضاوي أنَّ المقطع ((يشكل وحدة تصورية ،أو فكرة شمولية، أو مشهدًا متكاملًا وفقًا طبيعة النص القرآني))[٤]، فالسورة القرآنية الكريمة وحدة سياق كلي ومتكامل وهي تتكون من: المقاطع ،وكل مقطع يتضمن مجموعة آيات تطول أو تقصر ، والرابط بينها طبيعة الموضوع، أو الأفكار، أو الأحكام والتشريعات، والتوجيهات والعبر

(١) يُنظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والأجراء:١٨٦.

(٢) يُنظر: الانسجام في القرآن الكريم (سورة النور أنموذجاً) : ٧٢.

(٣) دراسات في علوم القرآن الكريم : د. محمود البُستاني: ٢٣٤ .

(٤) نسقية السورة القرآنية من خلال تفسير (في ظلال القرآن) ،د. أحمد بزوي الضاوي ،مجلة الإحياء العدد(٢٦) لسنة ٢٠٠٧م : ١١٦.

والمواعظ، والإطار القصصي، وإنَّ كلَّ مقطع يشكل وحدة تميّزه من المقطع الذي يسبقه والذي يليه ويؤدي دورًا لا غنى للسِّياق عنه، وسياق المقطع يشكل محورًا رئيسًا من محاور سياق السورة .

إنَّ السورة القرآنية تتضمن نصوصًا ومقاطع من آيات متحدة المعاني مترابطة المباني، لها أغراض محدودة ،وهذه الأغراض متناسبة، تتلاحم، فيبنى بعضها على بعض حتى تؤدي بمجموعها غرضًا أو أغراضًا خاصة لمجموع السورة تسمى بـ(وحدة السورة) أو (أغراضها) أو (مقاصدها)، ويرى محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) أنَّ لكلِّ سورةٍ في القرآن محورًا عامًا وغرضًا رئيسًا أو أكثر يستخلص من سياقها العام وتكون مقاطعها ذات الأغراض الخاصة في السورة خادمة لهذا المحور العام والغرض الرئيس فتتناسق أوضاعها ، وتتآلف عناصرها(١).

وللسورة القرآنية خط سير إلى غرض، ووحدة نظام معنوي في جملتها، تدل عليه ما يُوافقُها من نظام لفظي موزع في سلسلة ذات حلقات، ولا يتصور النسق العام للسورة إلَّا بإمعان النظر إلى السورة كُلها أولًا، قبل البحث عن الصلات الموضوعية بين الجزء والجزء وهي تلك الصلات المبثوثة بين مثاني الآيات وفصولها الدلالية ، فلا بدَّ من امعانِ النظرِ في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها ، فالسورة مهما تعددت قضاياها، فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره ويترامى بجملته إلى غرض واحد ،كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة وإنَّه لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية ،وسياق الآية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بسياق الفصل الدلالي، إذ يشكل سياق الآية لبنة في بناء سياق الفصل الدلالي ، وتتّحد مباني الآيات حول معاني الفصول الدلالية، ويشكل الفصل الدلالي عضوًا أساسيًا في جسم السورة، إذ تدور جميع الفصول الدلالية حول فلك السورة الواحدة ألا وهو موضوعها الذي سيقت المعاني والموضوعات لأجله(٢).

إنَّ الدراسة النصية لتفسير الميزان تكشف عن أساس التزمه السيّدُ الطباطبائيُّ في تفسير سور القرآن الكريم كُلها، يعتمدُ مبدأ أنَّ موضوعات القرآن يؤثر بعضها ببعض وينسجم بعضها مع بعض، فهي تؤلّف بمجموعها منظومة يحتاج فهم كل

---

(١) يُنظر: النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز :١٤٣.

(٢) يُنظر: نسقية السورة القرآنية من خلال تفسير (في ظلال القرآن) :١٢٣.

جزء منها الى استيعاب المجموع، فيغني الرجوع اليه ،والاسترشاد به عن أيِّ معيارٍ من خارج القرآن ؛ لأنَّ القرآن الكريم الذي هو تبيان لكل شيء لا بد من أنْ يكونَ مبيّناً لنفسه قبل أنْ يبين غيره[١]، والفصل الدلالي عند السيّدِ الطباطبائيِّ يماثل المقطع النصّي في الاستعمال المعاصر.

يصدر السيّدُ الطباطبائيُّ الفصل الدلالي بمقدمة يتناول فيها أهم الأفكار، أو الموضوعات أو التصورات أو التشريعات، أو العبر والمواعظ التي عرضها الفصل الدلالي ،وتكون مقدمة الفصل الدلالي جسرًا يصل بين الفصول الدلالية مما يجعل السورة تشكل وحدة سياقية[٢].

والفصل الدلالي عنده سياقي ؛لأنَّه اعتمد توزيع آيات السورة المراد تفسيرها على فصول دلالية قرآنية ،إمّا لأنَّها ينتظمها سياق واحد ، أو لأنَّها تعالج غرضًا من أغراض السورة ، وقد يكون الفصل الدلالي من آيةٍ واحدةٍ ، أو بضع آيات ، ولربما يربو على عشرين آيةٍ ، أما السور القصار فقد تناولها مرة واحدة[٣].

والوحدةُ السِّياقيةُ عند السيّد الطباطبائي: هي مجموعة فصول دلالية تشترك بالغرض القصدي أو الدلالي ويتحكم في حجم تلك الوحدة السِّياقية مضامين الآيات أو الغرض الذي يؤديه الفصل، والاجتهاد عنده مرتكزًا لتمام المعنى في ضوء القرآن نفسه وعندها لم يفصل الآيات إلَّا عند تمامها في فصله الدلالي المطلوب إثباته.

ولعل الذي قاده إلى ذلك مراعاته البعد الموضوعي في الفصل الدلالي أو ما يمكن تسميته بالوحدة الموضوعية الصغرى في إطار الوحدة الموضوعية الكبرى أو وحدة الهدف في السورة القرآنية وهي من أشهر المصطلحات المتداولة في حقل الدراسات القرآنية[٤].

ويجدر بنا التفريق بين الوحدة العضوية ووحدة الموضوع، إنَّ وحدة الموضوع غير الوحدة العضوية، فهما مفهومان مختلفان اختلافاً بيناً، فالوحدة العضوية مفهوم

(١) يُنظر: مقاربات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري :٢٧.
(٢) يُنظر : نسقية السورة القرآنية من خلال تفسير (في ظلال القرآن) :١٣.
(٣) يُنظر: الطباطبائي ومنهجه في تفسير القرآن:٣٣.
(٤) يُنظر: البحث الدلالي في تفسير (من وحي القرآن) :٢٨٥.

درامي يصلح للسورة ذات الحدث وفي حدثها تصاعد ونمو ،أي: تشملُ السورة وحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، ووحدة التصوير الفني تتماسك أجزاء السورة ويكون لكلِّ جزءٍ وظيفته فيها، وهي تماثل الوحدة السياقية عند السيّدِ الطباطبائيِّ أما وحدة الموضوع فمفادها أنْ يتناول الفصل الدلالي موضوعاً واحداً لا تتجاوزه إلى غيره، وقد سماها أحمد بزوي الضاوي الوحدة النسقية للسورة القرآنية عوضًا عن الوحدة الموضوعية معلـلًا أنَّها لا تفي بوصف حقيقة وواقع الخطاب القرآني كما أنَّها توحي بمشابهة للنصوص الأدبية والفكرية التي يبتدعها البشر (١)

ويراعي السيّدُ الطباطبائيُّ أيضًا طريقة نسق الفصل الدلالي لغرض السورة ،والمعنى المعبّر عنه في الفصل الدلالي، ويتعين أنْ تكوِّن معنى أو فكرة واحدة، وتكون منسجمة مع غرض السورة الكليِّ، وهو من شأنه أنْ يحققَ لها انسجامها ، مع وجود علاقة منطقية بين آيات الفصل الدلالي الواحد، ويكون هناك ترابط على وفق علاقات معينة بين آيات الفصل الدلالي الواحد، كالسببية أو الخصوص والعموم أو التعليل أو الإجمال والتفصيل وغيرها حتى يلي الآية الواحدة في الفصل الدلالي آية أخرى مرتبطة بها ارتباطًا معينًا ،بأنْ يكون شرحًا له أو تتمّة لمعناه، وتترابط الفصول الدلالية بفضل أدوات ومهيمنات بنيوية وأسلوبية تضمن اتساع التركيب في اتجاه نمو الموضوع الرئيس وتشظي جمرته الدلالية ،وهذا ما نتناوله بالتفصيل في هذا الفصل إنْ شاء الله .

(١) يُنظر: نسقية السورة القرآنية من خلال تفسير (في ظلال القرآن) : ١٤.

المبحث الأول: الفصل الدلالي من آيةٍ واحدةٍ:

قطع السيّدُ الطباطبائيُّ آيات من السورِ الطوالِ وجعلَها فصلًا دلاليًا قائمًا بذاتهِ تطبيقًا لمنهجه الذي سار عليه مخالفًا جمعًا من المُفسِّرين ويرى أنَّ ترتيب الآيات ليس توقيفيًا ولا ترتيب السور القرآنية ولا اسماء السور، وقد اخترن الباحث آيات من سور متعددة بعضها مكي وبعضها مدني، وقد ذكر الباحث بعض الأسباب التي من أجلها قسَّم السيّدُ الطباطبائيُّ السورة القرآنية إلى هذه الفصول دلالية متخذًا من وحدة السِّياق المُحدِّد الرئيس لها.

يُؤكد السيّدُ الطباطبائيُّ الوحدة السِّياقية التي على أساسها قسَّم السورة إلى فصولٍ دلاليةٍ والفصول الدلالية عملية اجتهادية محكمة خضعت لضوابط منطق القصد القرآني ،وإنَّ الاجتهاد عنده مرتكز على تمام المعنى في ضوء القرآن نفسه، عندها لم يفصل الآيات إلَّا عند تمامها في فصله الدلالي الذي تم إثباته[١] .

١- من الآيات التي اختارها الباحث(آية١٥٢من سورة البقرة)

قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢]، بعد فصل دلالي سابق اقتطع له عشرة آيات(١٤٢-١٥١) ، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((الآيات مترتبة متسقة منتظمة في سياقها على ما يعطيه التدبر فيها وهي تُنْبِيء عن جعل الكعبة قبلة للمسلمين، فلا يصغى إلى قول من يقول إنَّ فيها تقدمًا وتأخراً أو إنَّ فيها ناسخًا ومنسوخًا، وربما رووا فيها شيئًا من الروايات، ولا يعبأ بشيء منها بعد مخالفتها لظاهر الآيات))[٢].

ويبدو للباحث إنَّ إفراد السيّدِ الطباطبائيِّ هذه الآية وجعلها فصلًا دلاليًا ؛لأنَّ وحدة السِّياق تتطلب ذلك وهو المنهج الذي التزم به ،وكان صارماً في تطبيقه، الذي اختطه لنفسه محاكيًا منهج أهل البيت في ذلك موضحًا سبب الاقتطاع يقول: ((لما امتن الله تعالى على النبي(ﷺ) والمسلمين، بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمة لا تقدر بقدر ومنحة على منحة ـ وهو ذِكْرٌ منه لهم ـ إذ لم ينسهم في هدايتهم إلى مستقيم الصراط، وسوقهم إلى أقصى الكمال، وزيادة على ذلك ،وهو جعل القبلة، الذي فيه كمال دينهم، وتوحيد عبادتهم، وتقويم

(١) يُنظر :مقاربات منهجية بين الطباطبائي، السبزواري(تفسير القرآن أنموذجا):٣٨.

(٢) الميزان:١/٣٣٤.

فضيلتهم الدينية والاجتماعية فرع على ذلك دعوتهم إلى ذكره وشكره، ليذكرهم بنعمته على ذكرهم إياه بعبوديته وطاعته، ويزيدهم على شكرهم لنعمته وعدم كفرانهم))[١].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ كدأبه في استنطاق الآيات التي تعضد الرأي الذي طرحه متخذًا من النص القرآني منهاجًا في استحصال الغرض المطلوب ،فنراه يذكر الآيات التي توضح معنى الآيةِ المراد، ومن ثُمَّ يُثبت انسجام النص القرآني بآلية الفصل الدلالي التي يستعملها وفقًا لمنهج تفسير القرآن بالقرآن معضده بقراءةٍ سياقيةٍ محكمةٍ ضاربًا الروايات التي جرَّتْ النصَّ لها تماشيًا مع قبليات مُفسِّريها التي وضعوها عن وعي أو من غير وعي مُلْبِسُوها ثوب الرواية عن الصحابة أو معززوها بحديث متورم[٢]، ويعززُ تفسيره قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف:٢٤] ، وقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم:٧] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ((والآيتان نازلتان قبل آيات القبلة من سورة البقرة))[٣]، ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ إلى معنى الذكر((ثُمَّ إنَّ الذكرَ ربما قابل الغفلة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [الكهف:٢٨]وهي انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذكر خلافه، وهو العلم بالعلم، وربما قابل النسيان وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافه ،ومنه قوله تعالى:(وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وهو حينئذٍ كالنسيان معنى وذو آثار وخواص تتفرع عليه، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق فيها آثارهما وإنْ لم تتحقق أنفسهما))[٤] .

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ ((والظاهر أنَّ إطلاقَ الذكرِ على الذكر اللفظي من هذا القبيل، فإنَّ التكلم عن الشيء من آثار ذكره قلبًا، قال تعالى : ﴿قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ [الكهف:٨٣] ونظائره كثيرة، ولو كان الذكر اللفظي أيضًا ذكرًا حقيقةً فهو من مراتب الذكر، لأنَّه مقصور عليه ومنحصر فيه، وبالجملة: الذكر له مراتب كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] ، قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا

---

(١) الميزان :٣٣٥/١.

(٢) يُنظر: علم الكلام عند العلامة الطباطبائي قراءة في جدل العقل والنص، حيدر حب الله ،مجلة الكلمة، العدد ٣٦، ٢٠١١م:٥٧ .

(٣) الميزان:٣٣٥/١.

(٤) المصدر نفسه:٣٣٥/١.

وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الأعراف:٢٠٥] ، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة:٢٠٠] ، فالشدة إنَّما يتصف بها المعنى دون ذاللفظ، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:٢٤]، وذيل هذه الآية يدل على الأمر برجاء ما هو أعلى منزلة مما هو فيه، فيؤول المعنى إلى أنَّك إذا تنزلت من مرتبة من ذكره إلى مرتبة هي دونها، وهو النسيان، فاذكر ربك وارج بذلك ما هو أقرب طريقًا وأعلى منزلة، فالذكر القلب ذو مراتب في نفسه، وبذلك يتبين صحة قول القائل: إنَّ الذكر حضور المعنى عند النفس، فإنَّ الحضور ذو مراتب))[(١)].

والسؤال الذي يدور في ذهن الباحث ما الدور الذي يقوم به الفصل الدلالي في انسجام النصِّي القرآني ؟ قبل البحث عن الاجابة يجدر بنا أنْ نُعرّجَ على آراء بعض المُفسِّرين في معنى هذه الآية .

يقول الزمخشري((كما ذكرتكم بإرسال الرسول فَاذْكُرُونِيٓ)بالطاعة(أَذْكُرْكُمْ)بالثواب(وَاشْكُرُوا لِي)ما أنعمت به عليكم(وَلَا تَكْفُرُونِ)))[(٢)]

ويقول ابن عاشور: ((الفاء للتفريع عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة ؛ أي إذ قد أنعمت عليكم بهذه النعم فأنا آمركم بذكري ، وقوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة:١٥٢] فعلان مشتقان من الذكر بكسر الذال ومن الذكر بضمها ، والكل مأمور به لأننا مأمورون بتذكر الله تعالى عند الإقدام على الأفعال لنذكر أوامره ونواهيه ولا بدَّ من تقدير في قوله على(فَاذْكُرُونِيٓ) الوجهين لأنَّ الذِكر لا يتعلق بذات الله تعالى، فالتقدير : اذكروا عظمتي وصفاتي وثنائي وما ترتب عليها من الأمر والنهي ، أو اذكروا نعمي ومحامدي ، وهو تقدير من دلالة الاقتضاء ، وأما أذكركم فهو مجاز ، أي أعاملكم معاملة من ليس بمغفول عنه بزيادة النعم والنصر والعناية في الدنيا ، وبالثواب ورفع الدرجات في الآخرة ، أو أخلق ما يفهم منه الناس في الملأ الأعلى وفي الأرض فضلكم والرضى عنكم ، لأنَّ الذكر بمعنييه الحقيقيين مستحيل على الله تعالى ، ثم إن تعديته

(١) الميزان:١/٣٣٦.

(٢) تفسير الكشَّاف:١/٢٠٥.

للمفعول أيضا على طريق دلالة الاقتضاء إذ ليس المراد تذكر الذوات ولا ذكر أسمائها بل المراد تذكر ما ينفعهم إذا وصل إليهم وذكر فضائلهم))[١] .

ويقول السيّد عبد الأعلى السَّبزواريّ في تفسير هذه الآية((الذكر تارة يطلق ويراد به التوجه والالتفات الفعلي...والمراد به في المقام هو الالتفات الفعلي إليه تعالى، قلبًا وقولًا وعملًا، والالتفات إليه تعالى يتحقّق بتذكّر نعمة تعالى، وإدمان الشكر عليها والطاعة والعبادة له، وإيتان ما اختارها لله تعالى، مما فيه السعادة في الدارين، فإن الالتفات إليه (عزّ وجلّ) كذلك مبدأ العبودية المحضة المنتهية إلى الكمال المطلق)) [٢]

يبدو للباحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يُقسِّم السورة إلى فصول دلالية معتمدًا الوحدة السِّياقية أساسًا لهذا التقسيم وكذلك عندما يُريدُ أنْ يذكر معنى جديد لم يذكره المُفسِّرون أو توضيح فكرة ذُكرت ولم توضح ، ومن خلال مراجعة تفاسير المسلمين لم يجدْ الباحث من المُفسِّرين مَنْ يفرد هذه الآية بفصل دلالي مستقل كما وجدها عند السيّدِ الطباطبائيِّ.

٢-من الآيات التي اختارها الباحث(آية ٤٣من سورة النساء)

ومن الشواهدِ الأُخريات ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ [النساء:٤٣] اتخذ السيّدُ الطباطبائيُّ من هذه الآية فصلًا دلاليًا مُبينًا أسباب الانفراد، منها أنَّ الفصل الدلالي السابق يتكلم عن الانفاق الذي حدَّه بسبع آيات(*)وقد بين غرضه بقوله :((آيات سبع فيها حث على الإحسان والإنفاق في سبيل الله ووعد جميل عليه، وذم على تركه إمَّا بالبخل أو بالإنفاق مراءاة للناس))[٣].

---

(١) التحرير والتنوير:٢/٥١.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيّد عبد الاعلى السبزواري:٢/١٦٦-١٦٧ .

(*)الآيات (٣٦—٤٢).

(٣) الميزان :٤/٣٦١.

وأمّا: الفصل الدلالي الذي نحن بصدده، فموضوعه يتناول جزئية من جزئيات سورة النساء ألا وهي عدم القرب من الصلاة في حالات خاصة منها السكر وهنا يُبدي السيّدُ الطباطبائيُّ رأيًا خالف فيه بعض المُفسِّرين ويرد عليهم ويناقشهم في أسباب النزول يقول :((إنَّ الكلامَ على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:٢١٩] أنَّ الآيات المتعرضة لأمر الخمر خمس طوائف، وإنَّ ضم هذه الآيات بعضها إلى بعض يفيدُ أنَّ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣] نزلت بعد قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣] ، وقبل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[البقرة:٢١٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠] وهذه آخر الآيات نزولاً))[(١)].

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((ويمكن بوجه أنْ يتصور الترتيب الذي ذكرناه فتكون النازلة أولا آية النحل ثم الأعراف ثم البقرة ثم النساء ثم المائدة فيكون ما يفيده هذا الترتيب من قصة النهي القطعي عن شرب الخمر على خلاف ما يفيده الترتيب السابق ،فيكون ما في سورة الأعراف نهيًا من غير تفسير ثم الذي في سورة البقرة نهيًا باتًا لكن المسلمين كانوا يتعللون في الاجتناب حتى نهوا عنها نهيًا جازمًا في حال الصلاة في سورة النساء، ثم نهيًا مطلقًا في جميع الحالات في سورة المائدة ولعلك إنْ تدبرت في مضامين الآيات رجحّت الترتيب السابق على هذا الترتيب، ولم تجوز بعد النهي الصريح الذي في آية البقرة النهي الذي في

(١) الميزان:٤/٣٦٧.

آية النساء المختص بحال الصلاة ،فهذه الآية قبل آية البقرة، إلَّا أنْ نقولَ: إنَّ النهي عن الصلاة في حال السكر كناية عن الكسل في الصلاة كما ورد في بعض الروايات))[1].

ويردفُ السيِّد الطباطبائيُّ تعزيزًا لرؤيته النصية ((وأمّا وقوع الآية بين ما تقدمها وما تأخر عنها من الآيات فهي كالمتخلّلة المعترضة إلاّ أنَّ هاهنا احتمالًا ربما صحح هذا النحو من التخلل والاعتراض ـ وهو غير عزيز في القرآن ـ وهو جواز أنْ تتنزل عدة من الآيات ذات سياق واحد متصل منسجم تدريجًا في خلال أيام ثم تمس الحاجة إلى نزول آية أو آيات ولما تمت الآيات النازلة على سياق واحد تقع الآية بين الآيات كالمعترضة المتخلّلة وليست بأجنبية بحسب الحقيقة وإنَّما هي كالكلام بين الكلام لرفع توهّم لازم الدفع، أو مس حاجة إلى إيراده نظير قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [القيامة:١٤-٢٠] انظر إلى موضع قوله: (لَا تُحَرِّكْ) إلى قوله: (بَيَانَهُۥ)، وعلى هذا فلا حاجة إلى التكلف في بيان وجه ارتباط الآية بما قبلها، وارتباط ما بعدها بها، على أنَّ القرآن إنما نزل نجوما، ولا موجب لهذا الارتباط إلاّ في السور النازلة دفعة أو الآيات الواضحة الاتصال الكاشف ذلك عن الارتباط بينها))[2].

ويعللُ السيّدُ الطباطبائيُّ النزول التدريجي، أنَّ كثيرًا من الناس لا يَملك القدرةَ على تلقِّي القرآن ومعارفه دفعةً واحدةً؛ وهذا هو السبب في النزول التدريجيّ للقرآن الكريم، فيرى أنَّ المعارف والأحكام لو نزلت عن آخرها دفعةً واحدةً ، على ما لها من الإحاطة والشمول لجميع شؤون الحياة الإنسانيَّة ،لشقَّت على الناس ولم يؤمن بها إلَّا الأوحديّ منهم، لكنَّ الله سبحانه أنزلها على رسوله(ﷺ) تدريجًا وعلى مُكث، وهيَّأ بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض[3].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ مستثمرًا رؤيته النصية أنَّ الوحي يتَّصف بالثَبَات من حيث مضمونه ومحتواه ولكن بلحاظ صورته وشكله يقبل التغيير، وقد يأخذ أشكالا وقوالب مختلفة وأنَّ هذا هو السبب في ظهور الشرائع ، فالدِّين والماهيَّة الحقيقيَّة للوحي على الرغم من

(١) الميزان:٤/٣٦٧.

(٢) المصدر نفسه:٤/٣٦٨.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه :١٨/٥٧.

وحدتها ولكنَّها عندما تنزل على الإنسان الزمانيّ والمكانيّ (الماديّ) تتقيَّد بقيود ومحدِّدات، فاختلاف الناس، من حيث المصلحة والظروف الزمانيَّة هي السبب في اختلاف الشرائع(١).

٢- من الآيات التي اختارها الباحث(آية ٤٣من سورة الرعد).

ومن شواهد على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣] ،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في هذا الفصل الدلالي: ((الآية خاتمة السورة وتعطف الكلام على ما في مفتتحها من قوله: ﴿الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]،وهي كرة ثالثة على منكري حقيقة كتاب الله يستشهدُ فيها بأنَّ الله يشهدُ على الرسالة ومن حصل له العلم بهذا الكتاب يشهد بها))(٢).

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً﴾((بناء الكلام في السورةِ على إنكارهم حقيقة الكتاب وعدهم إياه آية إلهية للرسالة ولذا كانوا يقترحون آية غيره كما حكاه الله تعالى من خلال الآيات مرة بعد مرة وأجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يئسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرسالة لعدم إذعانهم بما أنزل الله من آية وعدم إجابتهم فيما اقترحوه من آية فكانوا يقولون:(لَسْتَ مُرْسَلًا)))(٣).

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح النصِّ القرآني بقوله : ((لقن الله نبيه (ﷺ) الحجة عليهم لرسالته بقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣] وهو حجة قاطعة وليس بكلام خطابي ولا إحالة إلى ما لا طريق إلى حصول العلم به))(٤).

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في إيضاح قوله تعالى :(وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ) أي وكفى بمن عنده علم الكتاب شهيدًا بيني وبينكم، وقد ذكر بعضهم أنَّ المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويتعين على هذا أنْ يكونْ المراد بالموصول هو الله سبحانه، يبدو أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ لم

(١) يُنظر: الميزان:٥/٣٦٠-٣٦١.
(٢) المصدر نفسه:١١/٣٨٥.
(٣) المصدر نفسه:١١/٣٨٥.
(٤) المصدر نفسه:١١/٣٨٥.

يكنْ مقتنعًا برأي الزمخشري ومن تبعه من المحدثين((فكأنَّه قيل كفى بالله الذي عنده علم الكتاب شهيدًا)) [١]، ويرد السيّدُ الطباطبائيُّ على هذا الرأي قائلًا: ((وفيه أولًا أنَّه خلاف ظاهر العطف، وثانيًا أنَّه من عطف الذات مع صفته إلى نفس الذات وهو قبيح غير جائز في الفصيح، ولذلك ترى الزمخشري لما نقل في الكشاف، هذا القول عن الحسن بقوله: وعن الحسن: (لا والله ما يعني إلّا الله) : والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيدًا بيني وبينكم ، فاحتال إلى تصحيحه بتبديل لفظة الجلالة (الله) من (الذي يستحق العبادة) وتبديل (مَنْ) مِنْ (الذي) ليعود المعطوف والمعطوف عليه وصفين فيكون في معنى عطف أحد وصفي الذات على الآخر وإناطة الحكم بالذات بما له من الوصفين كدخالتهما فيه))[٢].

ويبرر أحمد بن المنير الاسكندري رأي الزمخشري ((إنما قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم الله (بالذي يستحق العبادة) حذرًا من عطف الصفة على الموصوف وعدولاً إلى أنَّه عطف إحدى الصفتين على الاخرى تقديرًا)) [٣].

ويُفندُ السيّدُ الطباطبائيُّ رأي الزمخشري بقوله :((لكن من المعلوم تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا يوجب استقامة ذلك في اللفظ الأول وإلّا لبطلت أحكام الألفاظ))[٤].

ويظهر للباحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ لا يختلف في رؤيته هذه عمّا يراه النصّيون وخاصة (دي بو جراند)((أنَّ طرح البدائل تهديد للروابط ،وإذا أراد منشئ النص الاحتفاظ بتكامل عالم النص فعليه أنْ يختارَ البديل المناسب ويستعمله مع اطراح البدائل الأخرى))[٥]

ويستثمرُ السيّدُ الطباطبائيُّ التدرج في عرض الآراء ومناقشتها نصيًا في حوار مع القرآن الكريم إذ يذكر آراء المُفسِّرين مناقشًا أقوالهم التي ترى المراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو خصوص التوراة ويردُّ على هذا الرأي بقوله: ((ولم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب

(١) الميزان:٣٨٦/١١.
(٢) المصدر نفسه:٣٨٧/١١.
(٣) المصدر نفسه :٣٨٧/١١.
(٤) المصدر نفسه:٣٨٨/١١ .
(٥) النص والخطاب والاجراء:٣٤٨.

يومئذ كما قيل ولا شهد للرسالة بشيء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد إلى شهادة لم يقم بها أحد بعد))[١] .

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله آراء المُفسِّرين بقوله:((وذكر بعضهم أنَّ المراد بالكتاب القرآن الكريم، والمعنى أنَّ مَنْ تحمل هذا الكتاب وتحقق بعلمه واختص به فإنَّه يشهد على أنَّه من عند الله وأني مرسل به فيعود مختتم السورة إلى مفتتحها من قوله: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد:١] وينعطف آخرها على أولها وعلى ما في أواسطها من قوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩]))[٢] ،ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية مستعينًا بالنص القرآني قائلًا:((وهذا في الحقيقة انتصار وتأييد منه تعالى لكتابه قبال ما أزرى به واستهانه الذين كفروا حيث قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد:٢٧] مرة بعد مرة و (لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ) فلم يعبأوا بأمره ولم يبالوا به وأجاب الله عن قولهم مرة بعد مرة ولم يتعرض لأمر القرآن ولم يذكر أنَّه أعظم آية للرسالة وكان من الواجب ذلك فقوله:(قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ) [الرعد:٤٣] استيفاء لهذا الغرض الواجب الذي لا يتم البيان دونه وهذا من أحسن الشواهد على ما تقدم أنَّ الآية كسائر السورة مكية))[٣] .

ويصلُ السيّدُ الطباطبائيُّ بعد مناقشة الآراء بمنطق التحليل النصيَّ دون الانجرار للروايات واعتمادها وفرضها على النصِّ القرآني، وجعله الروايات شاهدًا على النتيجة التي توصل إليها متخذًا النص القرآني معراجه ((وبهذا يتأكد ما ذكره جمع ووردت به الروايات من طرق أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أنَّ الآية نزلت في علي (عليه السلام) فلو انطبق قوله: (وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ) على أحد ممن آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذ لكان هو فقد كان أعلم الأمة بكتاب الله وتكاثرت الروايات الصحيحة على ذلك ولو لم يرد فيه إلّا قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث الثقلين المتواتر من طرق الفريق: (لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) لكان فيه كفاية))[٤]، وهنا

(١) الميزان:١١/٣٨٨ .
(٢) المصدر نفسه:١١/٣٨٨.
(٣) المصدر نفسه:١١/٣٨٨.
(٤) المصدر نفسه:١١/٣٨٩.

يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الاحالة المقامية وهي ترتبط بالسِّياق الخارجي للنص، فهو يعين على معرفة الشيء المحال إليه، وبذلك يكشف الحجب عما هو خفي ليجعله بارزًا موضحًا.

ويتبين للباحث أنَّ ماقاله بعض اللغويين والنقاد العرب القدامى عن الترابط النصي قد لا يختلف كثيراً عماّ توصّل إليه اللغويون المحدثون في هذا الخصوص، وهذا يجعلنا نستنتج أن التراث اللغوي العربي القديم يزخر بنظرات ،وآراء صائبة حول مختلف القضايا والظواهر اللغوية، بوصفِ السيّدِ الطباطبائيِّ يمثل هذه الثقافة العربية الإسلامية، وتناوله القرآن الكريم في تفسيره بإيمان صادق ، وعقلية متفتحة ، وفكر شمولي ، ومنهج مدروس نابع من القرآن الكريم ، ويترجم عن القرآن الكريم ، ويهدف إلى إدماج المسلم المعاصر في أجوائه ليفهمه ويستوعبه ويعيشه ، ويتحرك به .

وبعد هذه الرحلة مع أجواء الآية وكثرة الآراء التي قيلت فيها واختلاف المُفسِّرين في إثبات مكيتها أنَّ سبب إفراد السيّدِ الطباطبائيِّ لها وجعلها فصلًا دلاليًا ليثبت مكيتها ومن ثم بيان المقصود الحقيقي بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بالأدلة النصية وبمنهج تفسير القرآن بالقرآن، مُستعينًا بالروايات المتواترة التي أكدّت التحليل النصيِّ الذي إنماز به السيّدُ الطباطبائيُّ دون انجرار مذهبي أو حكم مطلق .

٤- من الآيات التي اختارها الباحث(آية ١٠٩من سورة الكهف).

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩] ، وضّح السيّدُ الطباطبائيُّ غرض هذا الفصل الدلالي قائلاً :((الآية بيان مستقل لسعة كلمات الله تعالى وعدم قبولها النفاد، وليس من البعيد أنْ تكون نازلة وحدها لا في ضمن آيات السورة لكنها لو كانت نازلة في ضمن آياتها كانت مرتبطة بجميع ما بحثت عنه السورة))[(١)].

ويشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى السبب الذي جعله يفرد لها فصلًا دلاليًا وهو أنَّ موضوعها يختلف عن موضوعات السورة التي كان لها غرض واحد(هو زينة الحياة الدنيا وكيفية التعامل مع هذه الزينة) وتعددت المواضيع ،ومن هذه المواضيع هذه الآية التي عدّها فصلاً

(١) الميزان :١٣/ ٣٩٨.

دلالياً ، وذلك أنَّ السورة أشارت في أولها إلى أنَّ هناك حقائق إلهية ،وإنَّ فيها جانبًا يهدف إلى تسليةِ النبي (ﷺ) عن حزنه من إعراضهم عن الذكر وفيها تنبيه للعامة، وأورد في ذلك قصة أصحاب الكهف ثم ذكر أمور أورد في ذيلها قصة موسى والخضر حيث شاهد موسى (عليه السلام)عنه أعمالًا ذات تأويل لم يتنبه لتأويلها وأغفله ظاهرها عن باطنها حتى بينها له الخضر، فسكن عند ذلك قلقه ثم أورد قصة ذي القرنين والسد الذي ضربه بأمر من الله في وجه المفسدين من يأجوج ومأجوج فحجزهم عن ورود ما وراءه والإفساد فيه[١].

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ هناك ((أمور تحتها حقائق وأسرار وبالحقيقة كلمات تكشف عن مقاصد إلهية وبيانات تنبئ عن خبايا يدعو الذكر الحكيم الناس إليها...أن هذه الامور هي كلماته تعالى المُنْبِئة عن مقاصده لا تنفذ والآية في وقوعها بعد استيفاء السورة ما استوفتها من البيان)) [٢].

ويوضّح السيّدُ الطباطبائيُّ قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، ((الكلمة تطلق على الجملة كما تطلق على المفرد ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:٦٤]، وقد اسْتعملتْ كثيراً في القرآن الكريم فيما قاله الله وحكم به كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[الأعراف:١٣٧] وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:١٩] ، ومن المعلوم أنَّه تعالى لا يتكلم بشق الفم وإنَّما قوله فعله وما يفيضه من وجود كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]،وإنما تسمى كلمة لكونها آية دالة عليه تعالى ومن هنا سمى المسيح كلمة في قوله:﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٧١])) [٣].

ويثبت السيّدُ الطباطبائيُّ بمنهج تفسير القرآن بالقرآن معنى(لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى) بقوله:((ومن هنا يظهر أنَّه ما من عين يوجد أو واقعة تقع إلّا وهي من حيث كونها آية دالة عليه كلمة منه

(١) الميزان:٣٩٨/١٣.
(٢) المصدر نفسه :٣٩٨/١٣.
(٣) المصدر نفسه:٣٩٩/١٣

إلا أنَّها خصت في عرف القرآن بما دلالته ظاهرة لا خفاء فيها ولا بطلان ولا تغير كما قال: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص:٨٤]، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩] ،

وذلك كالمسيح (عليه السلام) وموارد القضاء المحتوم، ومن هنا يظهر أنَّ حملَ الكلماتِ في الآية على معلوماته أو مقدوراته تعالى أو مواعده لأهل الثواب والعقاب إلى غير ذلك مما ذكره المُفسِّرون غير سديد))[(١)].

ويبدو للباحث أنَّ للفصل الدلالي دورًا بارزًا في بيان انسجام النصِّ القرآني عند السيّدِ الطباطبائيِّ نجده يفرد الآية من مجموع الآيات ويجعلها فصلًا دلاليًا؛ لأنها تحمل موضوعًا يتفق مع محور السورة بشكل عام ولكنه يحمل رؤية تختلف عن باقي الفصول الدلالية التي سبقته والفصل الدلالي الذي تلاه ،كما بان لنا عند إفراده الفصل الدلالي المذكور أعلاه دوره في الانسجام النصِّ القرآني، افرده ليبين لنا الآراء التي قيلت فيه من قبل بعض المُفسُّرون التي يراها غير سديدة بناءً على رؤيته النصية التي يستمدها من تفسير القرآن بالقرآن أولًا ومن مشربه العرفاني ثانيًا معتمدًا نظريات محمد إبراهيم الشيرازي (ت١٠٥٠هـ) مبتكر الحكمة المتعالية، والجامعة للعقل والنقل والعرفان، وإنَّ ما فعلته مدرسة الحكمة المتعالية وغيرها من فلاسفة العرفان، وقد اتخذ منها منظومة تأسيسية لفهم النص القرآني فهمًا عميقًا مرتبطًا بالحقائق التي كشفها العرفان، كان محاولة للبرهنة ـ فلسفياً ـ على المعطى العرفاني المنكشف قلبياً وروحياً، وبهذا تمّت عقلنة العرفان في نتائجه، أي أخضعت تلك النتائج لأدوات التشريح العقليّة والفلسفية، لينكشف البُعد الصادق فيها، ويتمّ التأكّد من جدواها عقليًا[(٢)].

(١) الميزان :٣٩٩/١٣.

(٢) يُنظر: مقدمة الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة ،محمد بن إبراهيم ،وقراءتان في النص الديني الآليات والمعنى، د. أحمد رسن :١٧.

المبحث الثاني :الفصل الدلالي من آيات عدّةٍ في سورةٍ واحدةٍ:

تُمثّل العلاقات الدلالية محورًا مهمًا من محاور البحث النصي[١]حتى عُدَّ النص تركيباً من العلاقات[١]،ويجب لهذه العلاقات أنْ تتم في إطارٍ تنظيمي عام وفي ظل وجود مجموعة من أعراف القراءة تكون مرشدًا أمينًا للقارئ.

وإنَّ الدلالةَ القرآنيةَ أوسعُ مفهومًا من كل التفاسير الأدبية أو المنطقية أو التاريخية ، بمعنى أنَّ مداليله أوسع بكثير مما يتناوله الخلف والسلف من قبيل البحث في التشابه والاختلاف ،وبما أنَّ القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، فهذه دلالة على أنَّ الآيات تشير ويدل بعضها على بعض دلاليًا ،وعليه ،فالاستدلال واقع تلقائيًا عند كلِّ مُفسِّر تناول الكشف القرآني بعضه ببعض ،ويقوم التفسير القرآني عند السيّدِ الطباطبائيِّ بتوزيع الآيات على فصول ، إما أنْ ينتظمها سياق واحد أو تعالج غرضا من أغراض السورة [٣].

وإنَّ انتقاء السيّدِ الطباطبائيِّ للفصل الدلالي القرآني كان يعطي حكماً للوحدة السِّياقية المتبناة عنده وكانت السِّياقات المتكثرة ملزومة بالوحدة لتشكل الفصل الدلالي وهذا الالتزام السِّياقي يخضع لضوابط منهجية[٤]

١-الفصول الدلالية في سورة (ص) :

يُحدّدُ السيّدُ الطباطبائيُّ الانسجام النصِّي بين الفصول في إطار السورة الواحدة بعد عرض غرضَ السورةِ ،والغرض عنده يماثل البنية الكلية عند المحدثين ،والبنية الكلية ترتكز على أنَّ المعنى الكلي للنصِّ والمعلومات التي يتضمنها أكبر من مجرد مجموع المعاني الجزئية للجمل والمقاطع التي تكونه[٥]، ((فالنظرة إلى النص من خلال بنية شاملة ومتصفة بمستويات عديدة يوفر لبنية النص تماسكًا شديدًا))[٦] .

---

(١) يُنظر : تفسير من وحي القرآن (دراسة في ضوء علم اللغة النصي) : ١٥ .

(٢) يُنظر : المصدر نفسه:١٥.

(٣) يُنظر: مقارنات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري (تفسير القرآن أنموذجا) :٢٧.

(٤) يُنظر : المصدر نفسه:٢٩ .

(٥) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص : ٣٣٠ . : ٣٣٠ .

(٦) بنية النص الكبرى:صبحي الطعان ، مجلة عالم الفكر ، مج٢٣ ، ع ١ ـ ٢ ، ١٩٩٤م : ٤٤٧ .ويُنظر: خُطب سيدات البيت العلوي(عليهنَّ السلام):٧٦

اعتمد السيّدُ الطباطبائيُّ الوحدةَ السياقيةَ في السورة القرآنية أساسًا لتحديد العلاقة بين فصولها، في مقابل اعتماده الوحدة السياقية الصغرى للفصل أساسًا للربط بين وحداته النصية، لذا نجد الطباطبائيَّ يحدد المحور العام للسورة يقول :يدور الكلام في السورة حول كون النبي (ﷺ) منذرًا بالذكر النازل عليه عند الله سبحانه الداعي إلى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى)) [(١)].

وبعد أنْ وضَّح السيّدُ الطباطبائيُّ غرض السورة قام بتقسيم السورة إلى أربعةِ فصول((تبدأ بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم وبالجملة استكبارهم عن إتباعه والإيمان به وصد الناس عنه وتفوههم بباطل القول في ذلك ورده في فصل)) [(٢)]، الذي يبدأ من قوله تعالى ﴿صٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[ص:١] ، إلى قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص:١٦] .

ثم يبدأ الفصل الدلالي الثاني الذي فيه أوامر للنبي (ﷺ) بالصبر وذكر قصص عباده الأولين في فصل ، وبدأ السيّدُ الطباطبائيُّ بتناول قصص عباده الأولين ، ابتداءً من قوله تعالى: تعالى ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:١٧] وانتهاءً بقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، هذه القصة الاولى من قصص عباده الأولين، أما القصة الثانية من قصص الأولين تبدأ من قوله تعالى:﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] ،إلى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[ص: ٤٠] ، والقصة الثالثة من قصص الأولين تبدأ من قوله تعالى: تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]، إلى قوله تعالى﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص:٤٨] ثم يختم السيّدُ الطباطبائيُّ الفصول الدلالية بالفصل الرابع ،((وفيه أوامر للنبي(ﷺ) بإبلاغ نذارته ودعوته إلى توحيد الله وأن مآل أتباع الشيطان إلى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكة بالسجدة لآدم فأبى

(١) الميزان:/١٧/١٨٢.

إبليس فرجمه وقضى عليه وعلى من تبعه النار في فصل، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها))[١].

وبعد هذا التقسيم النصّي للسورة يقوم السيّدُ الطباطبائيُّ بتحليل نصوص هذه الفصول الدلالية ويمكن للباحث أنْ يُجملَ ما عرضه السيّدُ الطباطبائيُّ في الفصل الاول على النحو الآتي:

إنَّ نمط تفكير المنحرفين يظل قائمًا على التكبر والعناد اللذيْن ينسجمان مع سمة **(العزة والشقاق)** مما يكشِّفُ عن انسجامه مع غرض السورة، من حيث صلة اجزائه بعضها ببعضها الاخر، ويظهر أنَّ التذكيرَ بالأقوام البائدة يحملُ سرًا فنيًا يختلفُ عن السِّر الفني الذي يحمله التذكير بهم فيما بعد، وبهذا يتبينُ لنا مدى الانسجام في صياغة الموضوعات المتقدمة من حيث علاقات التنامي والترابط بينهما[٢].

وتبدوا العلاقة وثيقة وعضوية بين الآيات هذا الفصل الدلالي فكل آية تمهد لأختها وتهدف إلى غاية مشتركة بينهما وهو ما يؤدي إلى ترابط الفصول بفعل مواضعها، لأنَّ كل فصل يتكون من عدة قضايا تنتمي إلى الإطار نفسه وينتهي الفصل الأول بقوله تعالى﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦] .

ويقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن الفصل الدلالي الثاني الذي قطعه إلى ثلاثةِ فصولٍ في فصل واحد هذا يدفعنا للقول إنَّ التقسيم أساسه سياقي ولكن لأغراض منهجية يتبناه السيّدُ الطباطبائيُّ قام بعرض الفصل الثاني على شكل ثلاث قصص كل منها فصلًا واحدًا رغم وحدة الموضوع ووحدة السِّياق بينهما بقوله عن القصة الأولى : ((لما حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبي (ﷺ) ودعوته الحقة باختلاق وأنَّها ذريعة إلى التقدم والرئاسة وأنَّه لا مرجح له عليهم حتى يختص بالرسالة والإنذار، ثم استهزائهم بيوم الحساب وعذابه الذي ينذرون به، أمر النبي (ﷺ) بالصبر وأنْ لا يزلزله هفواتهم ولا يوهن عزمه وأنْ يذكرَ عدة من عباده الأوابين له الراجعين إليه فيما دهمهم من الحوادث وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام

(١) الميزان:١٨٢/١٧.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه:١٨٢/١٧.

ذكرهم الله سبحانه: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل(عليهم السلام)، وبدأ بداود(عليه السلام) وذكر بعض قصصه))[1].

ثم تبدأ القصة الثانية من قصص الأولين التي أُمِرَ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنْ يصبرَ ويذكر هذه القصص للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا، وللكافرين ليعلموا أنَّ تكبُّرَهم وشقاقهم لا ينفعهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية مستعينًا بأدوات الاتساق ليبين لنا قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾[ص:٣٢] ((الضمير على ما قالوا للشمس المراد بتواريها بالحجاب غروبها واستتارها تحت حجاب الأفق، ويؤيد هذا المعنى ذكر العشي في الآية السابقة إذ لولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشي، وقيل: الضمير للخيل ،والمراد بمسح أعناق الخيل، وسوقها ضربها بالسيف، وقطعها، والمسح القطع فهو(عليه السلام) غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله ،فأمر بردها ثم ضرب بالسيف أعناقها وسوقها فقتلها جميعًا))[2].

ويستبعدُ السيّدُ الطباطبائيُّ هذا الرأي محتجًا برؤية عقلية تنسجم مع ثوابت القرآن فيقول: ((إنَّ مثل هذا الفعل مما تتنزه ساحة الأنبياء (عليهم السلام) عن مثله فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم))[3].

ولا يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ الضمير يعود على الخيل، وإنَّما مال إلى أنَّ الإحالة على الشمس؛ لأنَّه الأقرب إلى انسجام النص، وإنَّ النص القرآني يتكلم عن قضايا كونية ،وأنَّ مسح الخيل واحدة من مصادقيها.

ثم تبدأ القصة الثالثة من قصص الأولين التي أُمِرَ النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنْ يصبرَ ويذكرها، وهي قصة أيوب النبي (عليه السلام) وما ابتلي به من المحنة ثم أكرمه الله بالعافية والعطية، ثم الأمر بذكر إبراهيم(عليه السلام) وخمسة من ذريته من الأنبياء (عليهم السلام) [4] .

---

(١) يُنظر: عمارة السورة القرآنية :دراسة في فنيتها سورة (صاد)نموذجًا، د.محمود البُستاني ،مجلة المنهاج العدد ٤ (٢٤-٤٥) ،مركز الغدير للدراسات والنشر،١٩٩٦م:٢٧

(٢) الميزان :١٧/١٩٠.

(٣) المصدر نفسه:١٧/٢٠٤.

(٤) المصدر نفسه:١٧/ ٢٠٤.

ويذكر السيّدُ الطباطبائيُّ قضية مهمة تُسهم في انسجام هذه الفصول مع بعضها وتنسجم مع سورة الانبياء ((والظاهر من الآيات التالية أن مراده من النصب والعذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله وهو الذي ذكره عنه (عليه السلام)في سورة الأنبياء من ندائه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الانبياء:٨٣] بناء على شمول الضر مصيبته في نفسه وأهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء إلى ذهاب ماله وإنْ وقع ذكر المال في الروايات ،والظاهر أنَّ المراد من مسِّ الشيطان له بالنصب والعذاب استناد نصبه وعذابه من الشيطان بنحو من السببية والتأثير وهو الذي يظهر من الروايات، ولا ينافي استناد المرض ونحوه إلى الشيطان استناده أيضًا إلى بعض الأسباب العادية الطبيعية لأنَّ السببين ليسا عرضيين متدافعين بل أحدهما في طول الآخر)) (١)

ويلحظ أنَّ هذه القصص تركز على فكرة واحدة هي: اخضاع الشخصيات القصصي (وهم ثلاثة انبياء) لتجربة صعبة، خرجوا منها بنجاح، إذ ترتب على ذلك أنَّ منحهم اللّه تعالى مزيدًا من المعطيات ذات الطابع الإعجازي، ولنقف عند قصة أيوب (عليه السلام) لملاحظة موقعها في سياق القصص من جانب، وملاحظة احداثها وافكارها الاخرى من جانب آخر، أمَّا أحداثها، فتتمثل في الشدة التي تعرض لها أيوب(عليه السلام)، وهي شدة جسمية ونفسية لا يتحملها إلَّا من اصطفاه اللّه تعالى، إذ هجره الناس لمرضه، وذهب أهله وإذ ساقه ذلك إلى أنْ يهتفَ منادياً: يا ربِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]، وقد خرج أيوب(عليه السلام)، من هذه المحنة بنجاح، إذ صبر على بلائه صبرًا لا مماثل له، كما نلحظ ذلك في السمة التي خلعها اللّه تعالى عليه وهي الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٤٤]

يُشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى نكتةٍ لطيفةٍ ((إنَّ الذي يخص الأنبياء وأهل العصمة أنَّهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة، وأمَّا تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب إليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على

(١) الميزان:١٧/ ٢٠٩-٢١٠.

امتناعه، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي(عليه السلام) ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:٦٣]))[١] .

وقد أشار إلى نكتةٍ لطيفةٍ قبلها ((إنَّ عصمة المعصوم وعدم حكمه إلَّا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر والنهي إليه فإنَّ العصمة لا توجب سلب اختياره وما دام اختياره باقيًا جاز بل وجب توجه التكليف إليه كما يتوجه إلى غيره من الناس، ولولا توجه التكليف إلى المعصوم لم يتحقق بالنسبة إليه واجب ومحرم ولم تتميز طاعة من معصية فلغى معنى العصمة التي هي المصونية عن المعصية)) [٢] .

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] يفسِّرُ السيّدُ الطباطبائيُّ((مدحهم بتوصيفهم بأنَّ لهم الأيدي والأبصار ويد الإنسان وبصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان وبصر إنسان واستعملا فيما خلقا له وخدما الإنسان في إنسانيته ، فتكتسب اليد صالح العمل ويجري منها الخير على الخلق ويميز البصر طرق العافية والسلامة من موارد الهلكة، ويصيب الحق ،ولا يلتبس عليه الباطل))[٣].

وهذا القسم من الفصل الدلالي يمكن جعله امتدادًا للعنصر القصصي الذي تحدث عن داود وسليمان وأيوب (عليهم السلام)، حيث تم عرض شخصياتهم بشيء من التفصيل، أما هذا القسم فلا يعرض للشخصيات إلَّا عابرًا ،أي أنَّه يكتفي بسرد أسمائهم وكسبهم صفة مشتركة، مثل صفة (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) [ص: ٤٥] بالنسبة لكل من ابراهيم واسحاق ويعقوب(عليهم السلام)، ، وكونهم مخلصين وأخيارًا، وصفة الأخيار لكل من اسماعيل واليسع وذي الكفل(عليهم السلام) [٤].

إنَّ النص القرآني الكريم قد وصل بين اقسام السورة الكريمة، واخضعها لبناء منسجم متجانس، تتلاحم وتتنامى فيه الموضوعات والأفكار بعضها مع بعضها الاخر، من حيث

(١) الميزان:١٧/٢١٠.

(٢) المصدر نفسه :١٧/١٩٦.

(٣) المصدر نفسه / ٢١٢.

(٤) يُنظر: عمارة السورة القرآنية: دراسة في فنيتها سورة (صاد)نموذجًا: ٣٩.

انصبابها في فكرة تقول: إنَّا لعبادُ اللّه الاخيار (وَحُسْنَ مَآبٍ) [ص:٤٠] سواء أكانوا أنبياء أم غير ذلك ، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ للأنبياء تميزهم الخاص في الجزاء المذكور[١].

وبعد ذلك يبدأ الفصل الدلالي الثالث يُبين فيه السيّدُ الطباطبائيُّ مآل أمر المتقين والطاغين تبشيرًا وإنذارًا، الذي يبدأ من قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٤٩] إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[ص:٦٤] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان هذا الفصل: ((الإشارة بهذا إلى ما ذكر من قصص الأوابين من الأنبياء الكرام (عليهم السلام)، والمراد بالذكر الشرف والثناء الجميل أي هذا الذي ذكر شرف وذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبدا ولهم حسن مآب من ثواب الآخرة، وعلى هذا فالمراد بالمتقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهل التقوى وهم داخلون فيهم ويكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد ،والظاهر أنَّ الإشارة بهذا إلى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الذكر وفي الكلام عود إلى ما بدىء به في السورة من قوله ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[ص: ١]فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتقين وعقاب الطاغين)) [٢] .

اذن ثمة انسجام وتلاحم بين الموضوعات يتم من خلال (الوحدة السِّياقية) بينها، مقابل انسجام وتلاحم يتم من خلال القضاء بين المعطيين دنيويا وأخرويًا إلَّا أنَّ الانسجامين يخضعان لطابع مشترك هو عطاء اللّه تعالى في الحالات جميعًا، وهذا النمط من الانسجام يكشف عن مدى الترابط في النص القرآني الكريم .

وإنَّ هذا المنحى من صياغة ردود الفعل التي يصدر عنها المنحرفون، يظل على صلة عضوية بمقدمة السورة التي وصفتهم بأنَّهم في﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]، وإنَّ تصوراتهم المُخْطِئة التي بدأوا يحسَّونها هي انعكاسات صفتي العزة والشقاق كما هو واضح، وهو أمر كشف لنا عن مدى الاحكام العضوي للنص، من حيث علاقة موضوعاته، بعضها مع بعضها الآخر فالآيات تتابع ،وتترابط ترابطًا جميلًا [٣] .

---

(١) يُنظر: عمارة السورة القرآنية: دراسة في فنيتها سورة (صاد)نموذجًا: ٤٠.

(٢) الميزان:٢١٨/١٧.

(٣) يُنظر: دراسات في علوم القرآن الكريم، د. محمود البُستاني: ٤٣٨

ثم يبدأ الفصل الأخير من فصول السورة المشتمل على أمر النبي (ﷺ) بإبلاغ نذارته ودعوته إلى التوحيد، وأنَّ الإعراض عن الحق واتباع الشيطان ينتهي بالإنسان إلى عذاب النار المقضي في حقه وحق أتباعه وعند ذلك تختتم السورة[١]، والفصل الأخير من السورة يبدأ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص:٦٥] إلى قوله تعالى﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨]، يحدد السيّدُ الطباطبائيُّ: الفصل الأخير من فصول السورة المشتمل على أمر النبي (ﷺ) بإبلاغ نذارته ودعوته إلى التوحيد بقوله:

((وإنَّ الإعراض عن الحق واتباع الشيطان ينتهي بالإنسان إلى عذاب النار المقضي في حقه وحق أتباعه، وعند ذلك تختتم السورة)) [٢].

وقوله تعالى:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[ص:٨٧] يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى أنَّ ((القرآن الكريم ذِكْرٌ عام للعالمين من جماعات الناس ومختلف الشعوب والأمم وغيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال وعلى تعليمه أجر بل هو للجميع)) [٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨]، أي لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد، وظهوره على الأديان وغير ذلك بعد حين، أي بعد مرور زمان ، وقيل: المراد بعد حين يوم القيامة، وقيل: يوم الموت، وقيل: يوم بدر، ولا يبعد أنْ يقال: إن نبأه مختلف لا يختص بيوم من هذه الأيام حتى يكون هو المراد بل المراد به المطلق))[٤].

وبهذا الفصل الدلالي تختم سورة(ص) التي بدأت بقوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١] ، حيث ختمت بالإشارة إلى القرآن الكريم وموقف المنحرفين منه، فيما بدأت بوصف الكافرين بصفتي العزة والشقاق، وها هو الان يعرض لنا موقفهم نفسه بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فإنَّ اعراضهم هذا قد جاء منسجمًا مع الفصل الدلالي السابق الذي عرض فيه مصير المنحرفين الذين غفلوا عن الاخرة، ونعني به: جهنم التي بدأوا يتحسسون من خلالها مدى العزة والشقاق اللذين دفعا بهم إلى أمثلة هذا

(١) الميزان:١٧/٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه:١٧/٢٢٢.
(٣) المصدر نفسه:١٧/٢٢٢.
(٤) المصدر نفسه:١٧/٢٢٨.

المصير البائس، بيد أنَّ الملاحظ أنَّ الفصل الدلالي الختامي للسورة، طرح فيها موضوع جديد وهو موقف ابليس من آدم (عليه السلام)، إذ يدفعنا ذلك إلى التساؤل عن السر الفني لعرض هذه القصة في ختام السورة[١] .

إنَّ قصة ابليس وموقفه من عدم السجود لآدم، قد ركّز فيها على ظاهرة (التكبّر) من جانب، وظاهرة (جهنّم) من جانب آخر، وعلى الرغم من أنَّ هاتين الظاهرتين تتكرران في قصص آدم، إلَّا أنَّ التركيز هنا جاء ملحوظًا بحيث نستكشف وجود علاقة عضوية بين أفكار السورة وبين هذه القصة، أمّا سمة (التَكَبّر) فتتضح علاقتها بسمتي (العزة والشقاق) اللتين طبعتا المنحرفين ، وأمّا التركيز على (جهنّم)، فمع إنَّه يتناسبُ مع سمتي العزة والشقاق اللتين تقودان المنحرف إلى جهنّم [٢].

وإنَّ معظم أشكال التضاد في سورة (ص)انبثقت من العلاقة بين الإسلام والكفر وبروز هذه العلاقات الدلالية دور فاعل في إنشاء مقارنة بين نقيضين بهدف التبيين والوعظ وفي نقض أوهام الكافرين ، وفي هذه الحوارات في السورة دروس كبيرة لمن يتأمل فيها، منها: أنَّ المعبودين يتبرؤون من عابديهم ويتبرأ العابدون من معبوديهم يوم القيامة ويشترك الأتباع مع المتبوعين في العذاب، إذ يوقفون للحساب معهم ويشعرون بالحسرة والندامة والذل معهم ويدخلون جهنم معهم، ويتقلّبون في نارها وعذابها معهم، ويتحملون المسؤولية معهم ، وأنَّ الاستكبار أمام الله تعالى وعدم إطاعة أوامره سبحانه يؤدي إلي غضب الله على المستكبر والدخول إلى جهنم[٣].

٢- الفصول الدلالية في سورة القصص:

يُحدِدُ السيّدُ الطباطبائيُّ غرض سورة القصص ((غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون يستضعفهم فراعنة قريش وطغاتهم واليوم يوم شدة وعسرة وفتنة بأنَّ الله سيمن عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ،ويمكّن لهم ويري طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون أنَّه خلق

(١) يُنظر: عمارة السورة القرآنية: دراسة في فنيتها سورة (صاد) نموذجاً: ٤٤ .

(٢) يُنظر: دراسات في علوم القرآن الكريم:٢٢٦ –٢٦٧.

(٣) يُنظر: دراسة أسلوبية في سورة (ص): نصرالله شاملي و سميه حسن عليان ،آفاق الحضارة الاسلامية، اكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية، السنة الرابعة عشرة، العدد الاول،١٤٣٢هـ:٨٢.

موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ،فربَّاه في حجر عدو، حتى إذا استوى وبلغ أشده نجَّاه وأخرجه من بينهم إلى مدين ثم ردَّه إليهم رسولًا منه بسلطان مبين حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل هم الوارثين ،وأنزل التوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين ، وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين وفيه وعد لهم بالملك والعزة والسلطان ووعد للنبي (ﷺ) برده إلى معاد ،وانتقل من القصة إلى بيان أنَّ من الواجب في حكمة الله أنْ ينزّل كتابًا من عنده للدعوة الحقة ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن،... والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها))[(١)].

يُحددُ السيّدُ الطباطبائيُّ البنية الكبرى للنص ((أما كيفية تحديد البنية الكبرى للنص ، فإنَّه من الملاحظ أنَّ القراء يختارون من النص عناصر مهمة، تتباين باختلاف معرفهم واهتماماتهم أو آرائهم وعليه يمكن أنْ تتغيرَ البنية الكبرى من شخص إلى آخر)) [(٢)]،وعلى الرغم من ذلك من اتفاقه مع بعض المُفسّرين حول الكثير من القضايا الواردة في النص القرآني، وكان اختلافهم اختلافًا جزئيًا، لا يمس جوهر البنية الكبرى لكل من سور القرآن الكريم، ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ إنَّ البنية الكبرى في السورة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بموضوع الآيات الكلي، وإنَّ الانسجام في السورة ذو طبيعة دلالية، مهما تدخلت فيه العمليات التداولية، ويبدأ السيّدُ الطباطبائيُّ بالنظر إلى النص في وحدته وتكامله، ثم ينتقل السيّدُ الطباطبائيُّ إلى مستوى ثانٍ يبدأ بتفسير كلّ آيةٍ تفسيرًا خطيًا داخليًا.

يبدأ الفصل الدلالي الأول من قوله تعالى ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ [القصص:١-٢] وينتهي بقوله تعالى﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص:١٤] يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى الفصل الاول بقوله : ((وما أوردناه من الآيات فصل من قصة موسى وفرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده)) [(٣)].

وبعد ذلك بحث السيّدُ الطباطبائيُّ الفصل الدلالي الثاني ابتداءً من قوله تعالى :﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ

(١) الميزان:٦/١٦ .

(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص:٢٥٦ .

(٣) الميزان :١٦/ ٧.

﴿ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥] وانتهاءً بقوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢١]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((فصل ثان من قصة موسى (عليه السلام) فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشده فأدى إلى خروجه من مصر وقصده مدين)) (١).

ويُعلل السيّدُ الطباطبائيُّ غفران الله تبارك وتعالى لموسى(عليه السلام) انسجامًا مع عصمة الأنبياء التي يؤمن بها في تفسيره عند قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦]قائلًا: ((اعترافٌ منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة، ومنه يظهر أنَّ المراد بالمغفرة المسؤولة في قوله: (فَٱغْفِرْ لِي) هو إلغاء تبعة فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملأه))(٢).

ثم تناول في الفصل الدلالي الثالث ابتداءً من قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص:٢٢] وانتهاءً بقوله تعالى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[القصص:٢٨]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((فصل ثالث من قصته (عليه السلام) يذكر فيه خروجه من مصر إلى مَدْيَن عقيب قتله القبطي خوفًا من فرعون وتزوجه هناك بابنة شيخ كبير لم يُسمَّ في القرآن الكريم لكن تذكر روايات أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وبعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي المبعوث إلى مَدْيَن))(٣).

ويرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ للسِّياق دورًا في تحقيق وحدة النص وانسجامه، بأنَّ السِّياق يشير إلى أنَّ ((موسى (عليه السلام) كان قاصداً لمَدْيَن وهو لا يعرف الطريق الموصلة إليها فترجى أنْ يهديه ربه، ويظهر منه أنَّه (عليه السلام) كان ذا مراقبة شديدة في أعماله، فلا يأتي بعمل ولا يريده وإنْ كان ممّا يقتضيه طبعه البشري إلَّا ابتغاء مرضاة ربه وجهادًا فيه، وهذا ظاهر بالتدبر في القصة ،فهو القائل لمَّا وكز القبطي:﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

(١) الميزان :١٦/١٧.
(٢) المصدر نفسه :١٦/١٧-١٨.
(٣) المصدر نفسه :١٦/٢٤.

﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[القصص:١٧]))[(١)]، ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تتبع رحلة موسى(عليه السلام) عن طريق النص القرآني دون الاكتراث للمرويات عن حياته ((لمَّا خرج من مصر خائفًا يترقب :﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:٢١] ثم القائل لما أخذ في السلوك: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢] ثم القائل لما سقى وتولى إلى الظل:﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] ثم القائل لمَّا آجر نفسه شعيبًا وعقد على بنته :(وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) [القصص: ٢٨]))[(٢)]

أمَّا الفصل الدلالي الرابع والأخير في قصة موسى في هذه السورة فقد بدأ من قوله تعالى:﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص:٢٩]إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾[القصص:٤٢]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ: ((فصل آخر من قصة موسى (عليه السلام) وقد أودع فيه إجمال قصته من حين سار بأهله من مدين قاصدًا لمصر وبعثته بالرسالة إلى فرعون وملأه لإنجاء بني إسرائيل وتكذيبهم له إلى أنْ أغرقَهم الله في اليم وتنتهي القصة إلى إيتائِه الكتاب وكأنَّه هو العمدة في سرد القصة))[(٣)].

إذاً الوحدة السِّياقية في اثنتين وأربعين آية فصولها قصصية سردية ، تمَّ بها تحويل قصة موسى (عليه السلام) إلى أربعة فصول دلالية وكان التقطيع عملية اجتهادية محكمة خضعت لضوابط منطق القصد القرآني، بمعنى أنْ ينتهي الفصل الدلالي بانتهاء مرحلة من مراحل حياة موسى (عليه السلام) وبقيت الوحدة السِّياقية متصلة حتى بعد انتهاء القصة، فالفصل الدلالي الذي واكبها من قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص:٤٣] إلى قوله تعالى﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

(١) الميزان : ١٦/٢٥.
(٢) المصدر نفسه :١٦/٢٥ .
(٣) المصدر نفسه :١٦/٣١ .

﴿أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ في الفصل الدلالي السابق إلى أنَّ العمدة في سرد القصة هو إيتاء موسى(عليه السلام) التوراة.

فالعلاقة بين الآيات علاقة انتقال من العام إلى الخاص ، فيها من الآداب النفسية التي تهدف إلى تنظيم العلاقة بين الجماعة ،والقائد توقيرًا وشعورًا بالهيبة أمامه

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ عن الفصل الدلالي الخامس: ((سياق الآيات يشهد أنَّ المشركين من قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو مصدق للتوراة ،فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة، وأنَّهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أنْ يبعثَ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣] ،فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا: إنَّ القرآن سحر والتوراة سحر مثله (سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) [القصص: ٤٨]فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]))[(١)].

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ معتمدًا الوحدة السِّياقية في إيضاح مراد النصِّ القرآني الكريم((وهذا ما يلوح به سياق الآيات الكريمة ، وهو سبحانه لما ساق قصة موسى (عليه السلام) وأنبأ أنَّه كيف أظهر قومًا مستضعفين معبدين معذبين يذبح أبناؤهم وتستحيى نساؤهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم رباه في حجر عدوه الذي يذبح بأمره الألوف من أبنائهم ثم أخرجه لما نشأ من بينهم ثم بعثه ورده إليهم وأظهره عليهم حتى أغرقهم أجمعين وأنجى شعب إسرائيل ،فكانوا هم الوارثين))[(٢)].

ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ الخلفية المعرفية في ايضاح الفصل الدلالي بقوله:((أنزل القرآن الكريم على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وقص عليه قصص موسى (عليه السلام) ولم يكن هو شاهدًا لنزول التوراة عليه ولا حاضرًا في الطور لما ناداه وكلمه ، وقص عليه ما جرى بين موسى وشعيب (عليهما السلام) ولم يكن هو ثاويًا في مَدْيَن يتلو عليهم آياته ولكن أنزله وقص عليه ما قصه رحمة منه لينذر به قومًا ما أتاهم من نذير من قبله لأنَّهم بسبب كفرهم وفسوقهم في معرض

(١) الميزان :١٦/٤٨.

(٢) المصدر نفسه:١٦/٤٨.

نزول العذاب وأصابه المصيبة ،فلو لم ينزل الكتاب ولم يبلغ الدعوة لقالوا: ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولًا ،فنتبع آياتك وكانت الحجة لهم على الله سبحانه))[١].

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى:﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] ليُبيِّنَ معنى النصِّ القرآني بقوله:((المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب ومرجعه إلى إفاضة الإيمان على القلب ومعلوم أنَّه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد، وليس المراد بها إراءة الطريق فإنه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه، والمراد بالاهتداء قبول الهداية، لما بين في الآيات السابقة حرمان المشركين وهم قوم النبي (ﷺ) من نعمة الهداية وضلالهم باتباع الهوى واستكبارهم عن الحق النازل عليهم وإيمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأنَّ أمر الهداية إلى الله لا إليك يهدي هؤلاء وهم من غير قومك الذين تدعوهم ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الذين تحب اهتداءهم وهو أعلم بالمهتدين)) [٢].

وهنا نجد السيّدَ الطباطبائيَّ يحلل النصَّ تحليلًا نصيًا دون الاكتراث لما ذكره المفسِّرون عن سبب نزول هذه الآية؛ لأنَّه يرى لا يوجد انسجام بين هذه النصوص إذا اعتمدنا هذه الأسباب التي ذُكِرت يقول:((لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله (ﷺ)، فوجد عنده: أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال رسول الله (ﷺ): يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله سبحانه وتعالى، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله (ﷺ)يعرضها عليه ويعاودانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: أنا على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله)) [٣] ، ومع ذلك يُفندها عند تناولها في البحث الروائي بقوله: ((وروايات أئمة أهل البيت (عليهم السلام) مستفيضة على إيمانه والمنقول من أشعار مشحون بالإقرار على صدق النبي (ﷺ) وحقية دينه، وهو الذي آوى النبي (ﷺ)صغيرًا وحماه بعد البعثة وقبل

(١) الميزان :١٦ /٤٨.

(٢)المصدر نفسه :١٦ /٥٥-٥٦ .

(٣) أسباب النزول:١٩٤.

الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين والأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة)) [١].

ويظهر للباحث دورُ الفصل الدلالي في بيان انسجام النصِّ القرآني بين آيات سورة وكيف تتلاحم وتنسجم بمعونة آيات من السور الآخر؟ بما يقدمه السيّدُ الطباطبائيُّ من ربط بين معاني آياتها وآيات السور التي استعان بآياتها في توضيح مقصد النصِّ القرآني وبيان تلاحمه وانسجامه، وأنَّ تفسِّير القرآن بالقرآن يستفيد من توزيع الآيات على فصول دلالية، أما أنْ ينتظمها سياق واحد أو تعالج غرضا من أغراض السورة أو يطرح السيّدُ الطباطبائيُّ رأيًا يُعالج فيه فكرة طرحها المفسِّرون يراها لا تناسب المعنى المراد، وهنا يستجلب هذا السِّياق الاستدلال وكذا العكس صحيح ، في عملية تكوريّة واحدة، بلحاظ وحدة النظام القرآني.

ثم يبدأ الفصل الدلالي السادس من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧]وانتهاءً بقوله تعالى:﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [القصص:٧٥]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((تذكر الآيات عذرًا آخر مما اعتذر به مشركو مكة عن الإيمان بكتاب الله بعد ما ذكرت عذرهم السابق : ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٧٥]وردَّته وهو قولهم: إن آمنا بما جاء به كتابك من الهدى وهو دين التوحيد تخطّفنا مشركو العرب من أرضنا بالقتل والسبي والنهب وسلب الأمن والسَّلامِ ،فرده تعالى بأنَّا جعلنا لهم حرمًا آمنًا يحترمه العرب ويجبى إليه ثمرات كلّ شيءٍ فلا موجب لخوفهم من تخطّفهم ،على أنْ تنعمَهم بالأموال والأولاد وبطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتى يرجحوه على اتباع الهدى، فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله واستأصلها وورثها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلًا))[٢].

فهم يُقرُّون للرسول(ﷺ) بأنَّه جاء بالحق، وأنَّه على الهدى، لكن علة امتناعهم أنْ يتخطفوا، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أنْ يكونوا مع رسول الله (ﷺ)على الحق وعلى

(١) الميزان :١٦/ ٥٥-٥٦ .

(٢) المصدر نفسه :١٦/٥٩-٦٠.

الهدى ويُتخطَّفوا وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم، فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله(ﷺ) أنْ يتخطفهم الناس في أموالهم أو في أنفسهم.

لا يقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند البنى السطحية والتركيبية للنص ولكنه يتجاوزها إلى ربط النص ببنيات خارجية ساعيًا إلى إعطاء تصور كامل عن النص يسمح بتحديد آليات انسجامه فالبحث الدلالي عنده مستل مستشف يشترك فيه التنظير والتحليل أخذاً ورداً على نحو متعاطات تثويريه، لإغنائه بحسب مقاصده، لأنَّه منثور من خلال سياقات النص فعملية الوحدة السِّياقية معتمدة أساساً على استدلالاته وكشوفاته ، ومن هذا الباب الدلالي الكشفي وضع طريقته في تفسير القرآن بالقرآن ضمن بيانات إذ خصصها لبيان معاني القرآن معتمدًا فيها المبدأ التثويري التحليلي في انبساط الدلالات على معانيها، واستشراف أكبر قدر ممكن من المضمونات خلال فضاءات النص(١).

وبعد ذلك يبدأ الفصل الدلالي السابع والاخير من قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] إلى قوله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في هذا الفصل الدلالي:((قصة قارون من بني إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعد ما حكى قول المشركين(إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ) [القصص:٧٥]وأجاب عنه بما مرَّ من الأجوبة ليعتبروا بها، فقد كانت حاله تمثل حالهم ثم أدّاه الكفر بالله إلى ما أدّى من سوء العاقبة، فليحذروا أنْ يصيبَهم مثل ما أصابه، فقد آتاه الله من الكنوز (مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ) ،فظن أنَّه هو الذي جمعه بعلمه وجودة فكره وحسن تدبيره ،فأمن العذاب الإلهي وآثر الحياة الدنيا على الآخرة وبغى الفساد في الأرض ،فخسف الله به وبداره الأرض فلما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين))(٢).

وهنا نجد السيّدَ الطباطبائيَّ يركز على الفصول المتجاورة مستوى الجمل من خلال ربطه ذكر قصة قارون بالفصل الدلالي السابق الذي تحدث عن فتنعمهم بالأموال والأولاد

(١) يُنظر: مقارنات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري(تفسير القرآن أنموذجا):٣٢ .

(٢) الميزان:١٦/٧٥-٧٦.

وبطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتى يرجحوه على اتباع الهدى قائلاً :((فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله واستأصلها وورثها، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلاً))[١].

وإنَّ الخاصية الدلالية للنصِّ تعتمد فهم كلّ جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى[٢]، وتبرز أهمية انسجامه أيضًا في أنَّ الكلام لا يكون مفيدًا إلَّا إذا كان مجتمعًا بعضه مع بعضه الآخر[٣] ،وعليه فلقد تمّثلت وظيفة علم لغة النصّ الأساسية في إظهار أوجه الانسجام بين وحدات النصّ اللغوية، والكشف عن علاقات الربط النحوي، والترابط الدلالي، والعلاقات الإحالية والإشارية وغيرها من العلاقات المتمثلة في مستوى الجمل من جهة والمتجاوزة مستوى الجمل من جهة أخرى[٤].

ثم يتناول الفصل الدلالي السابع والأخير الذي يبدأ من قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:٨٥]إلى قوله تعالى:﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٨٨] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيانه هذا الفصل الدلالي:((الآيات خاتمة السورة وفيها وعد جميل للنبي (ﷺ) أن الله سبحانه سيمن عليه برفع قدره ونفوذ كلمته وتقدم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه وعلى المؤمنين به كما فعل ذلك بموسى وبني إسرائيل، وقد كانت قصة موسى وبني إسرائيل مسوقة في السورة لبيان ذلك))[٥].

هنا يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى ما تؤديه الفصول الدلالية من دور في انسجام النصِّ القرآني إذ نجد أنَّ هناك خيطًا يربطُ بين قصة موسى التي بدأت بها السورة وبين مختتم السورة الذي فيه أن الله سبحانه سيمن على النبي (ﷺ) برفع قدره ونفوذ كلمته وتقدم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه وعلى المؤمنين بالله .

---

(١) الميزان:١٦/٥٩-٦٠.

(٢) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النّص، صلاح فضل :٢٦٣.

(٣) يُنظر: بناء الجملة العربية: ٧٤.

(٤) يُنظر: علم لغة النّص (المفاهيم والاتجاهات):٨٤.

(٥) الميزان:١٦/٨٨.

ويستنطق السيّدُ الطباطبائيُّ السِّياق ويقف عند قوله تعالى ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]بقوله :((المعاد اسم مكان أو زمان من العود ،وقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد، فقيل: هو مكة فالآية وعد له أنَّ الله سيرده بعد هجرته إلى مكة ثانيا، وقيل: هو الموت، وقيل: هو القيامة، وقيل: هو المحشر، وقيل هو المقام المحمود وهو موقف الشفاعة الكبرى، وقيل: هو الجنة، وقيل: هو بيت المقدس، وهو في الحقيقة وعد معراج ثانٍ يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأول: وقيل: هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقة أوكلها، والذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أنْ تكون الآية تصريحاً بما كانت القصة المسرودة في أول السورة تلوح إليه ثم الآيات التالية لها تؤيده))[١].

إنَّ الكلام عن آليات الانسجام ، يقودنا إلى الحديث عن دور القارئ وجهده الذي يبذله لربط أجزاء النص دلاليًا ،وذلك يتحقق في بنية معرفية دلالية كلية، تكون بدايتها رصد العلاقات الخفية التي تجعل من النص متماسك الوحدات ،فالمتلقي المبدع له دور كبير في الحكم على انسجام النصوص وترابطها ،خصوصاً إذا كان السِّياق الذي جاء به النص بارز ومعلوم لدى المتلقي[٢] .

وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ عند تفسيره سورة القصص وتقسيمها على فصول دلالية معتمداً الوحدة السِّياقية في تحديد الفصل الدلالي، كما أشار إلى العلاقات الدلالية التي جعلت النص منسجماً مترابط الفصول الدلالية ،فالعديد من السور المكية تتحدث عن قصص مختلفة من قصص الانبياء، مع العلم بأنَّ لكلِّ نبي قصة مع قومه، وقد يظن ظان أنَّ هذه القصص غير متماسكة فيما بينها ،لكنه يكتشف في النهاية أنَّ هناك إطارًا عامًا يجمعها، فهذه القصص عبرة وتسلية لرسول الله (ﷺ) زيادة على دورها في خدمة موضوع السورة الاساس .

(١) الميزان :١٦/٨٨.

(٢) يُنظر: نحو النص بين الأصالة والحداثة :١٢١.

٣-الفصول الدلالية في سورة السجدة:

قسَّمَ السيّدُ الطباطبائيُّ سورة السجدة إلى فصلين دلاليين تضمنتهما وحدة سياقية معنوية، وغرض الفصل الدلالي الأول تقرير المبدأ فتقطيع السورة هنا إلى فصلين دلالين يخضع لضوابط موضوعية قرآنية يبدأ هذا الفصل من قوله تعالى:﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة:١-٢] إلى قوله تعالى:﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤] ،ويحدد السيّدُ الطباطبائيُّ غرض سورة السجدة الذي يمثل البنية الدلالية الكبرى عند المحدثين بقوله:((غرض السورة تقرير المبدأ والمعاد وإقامة الحجة عليهما ودفع ما يختلج القلوب في ذلك، مع إشارة إلى النبوة والكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقًا والفاسقون الخارجون عن زي العبودية ووعد أولئك بما هو فوق تصور المتصورين من الثواب ،ووعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلد وأنهم سيذوقون عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، وتختتم السورة بتأكيد الوعيد وأمر النبي (ﷺ) بالانتظار كما هم منتظرون))[١] .

وبما أنَّ تقطيع النصِّ إلى مجموعة من الفصول الدلالية عملية منهجية ناجعة للإحاطة بدلالات النص الظاهرة أو العميقة ، كما أنَّ هذه العملية خطوة أولية ضرورية لاستخلاص الوحدات المعنوية ، وحصر البنيات الصغرى والكبرى التي تتحكم في بناء النص، وتعمل على تمطيطه وتوسيعه إطناباً وتكثيفاً وإسهاباً[٢].

ويقول الشَكْلاني الروسي فلاديمير بروب:((حين نحلل نصاً، يجب أنْ نحددَ بدءً عدد المقاطع التي يتألف منها، إنَّ المقطع يمكن أنْ يتلو مقطعًا آخر مباشرة، بَيْدَ أنهما يجوز أنْ يتشابكا، وذلك حينما يتوقف التطور المبدوء تاركاً المكان لإدراج مقطع آخر، إلَّا أنَّ عزلَ مقطعٍ ليس بالأمر السهل دائمًا)) [٣].

ثم يبدأ الفصل الدلالي الثاني الذي يتناول الغرض الثاني وهو المعاد من قوله تعالى﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾

(١) الميزان:١٦/٢٤٨.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب الشعري، د.محمد مفتاح :١٥٢.

(٣) مورفولوجية الخرافة، فلاديمير بروب، ترجمة: إبراهيم الخطيب:٩٥.

[السجدة:١٥] إلى قوله تعالى:﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة: ٣٠]،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((الآيات تفرّق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان وبين الفاسقين والظالمين وتذكر لكلٍّ ما يلزمه من الآثار والتبعات ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا وتأمر النبي (ﷺ) بانتظار الفتح وعند ذلك تختم السورة))[١] .

يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى بدايةِ العلاقة بين الفصل السابق والفصل الثاني بحيث يكشف الفصل الاول للمخاطَب عذاب الكافرين متبعي إبليس الذي ينتهي بقوله تعالى :﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٤] ويبدأ الفصل الثاني بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٥] أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم ويخضعون للحق.

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((لما ذكر شطرًا من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه ويستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم ويخضعون للحق لما ذكروا ووعظوا فقوله: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم ومعناه أنَّ علامة التهيؤ للإيمان الحقيقي))[٢].

ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى علاقة دلالية يركز عليها النصيون المحدثون هي علاقة المقابلة، فقد يكون الترابط على مستوى الجملة، كما يكون على مستوى النص، ويكون أيضا على مستوى المضمون والدلالة، كما يكون على مستوى الشكل التعبيري ، ويتحقق كذلك على المستوى التداولي والمقاصدي، ومن ثُمَّ يتم الترابط واقعيًا عن طريق تراكم المقومات المعجمية والمقومات السياقية، ومن ثم يحقق هذا الترابط انسجام النصِّ، وسهولة مقروئيته ، مادام الترابط عنصرًا أساسيًا في إزالة الغموض والإبهام والالتباس أثناء عملية التقبل والتلقي[٣].

---

(١) الميزان:١٦/٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه:١٦/٢٦٧.

(٣) يُنظر:المعايير السيميائية لتقطيع النصوص والخطابات،د. جميل حمداوي،عود الندى مجلة شهرية ثقافية العدد ٨٧ / ٢٠١٣ م :٤٧.

ويميز علماء النص بين أنواع الترابط الموضعي الشرطي للنصِّ، والتماسك الوظيفي فيه، فالنوع الأول هو الذي يعتمد على الروابط السببية المعتادة بين الوقائع التي تدل عليها الأقوال، أما النمط الثاني من التماسك ،فهو أصعب تحديدًا بدرجة كبيرة، وهو وظيفي، لأنَّه يحدث عندما يعزى إلى إسناد أحد الأقوال في النص وظيفة محددة بالنسبة لقول سابق عليه في تحقيق الانسجام في النص، كما أنَّها تزيد من يسر الإجراء[١].

٤- الفصول الدلالية في سورة الفتح:

يحدد السيّدُ الطباطبائيُّ غرض السورة الذي يماثل البنية الكبرى عند النصيين المحدثين:((مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية الواقعة في السنة السادسة من الهجرة وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلُّف الإعراب وصدَّ المشركين، وبيعة الشجرة على ما تفصَّله الآثار، فغرض السورة بيان ما امتنَّ الله تعالى على رسوله (ﷺ) بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة، وعلى المؤمنين ممن معه، ومدحهم البالغ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات، والسورة مدنية))[٢]

وبعد أنْ عرض السيّدُ الطباطبائيُّ غرض السورة ، قام بتقسيمها إلى الفصول الدلالية معتمدًا الوحدة السياقية كأساس لهذا التقسيم عارضًا آراء المُفسِّرين ومناقشتها، يبدأ الفصل الدلالي الأول الذي غرضه توضيح الفتح ،ابتداءً من قوله تعالى :﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]وانتهاءً بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧] يوضَّحُ السيّدُ الطباطبائيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]،((كلام واقع موقع الامتنان، وتأكيد الجملة بإنَّ ونسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه المبين كلّ ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي يمتنّ به، والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه(ﷺ) من فتح في صلح الحديبية))[٣].

ويصبُّ هذا النصُّ الذي ساقه لنا السيّدُ الطباطبائيُّ في صميم اللسانيات التداولية ويكشف عن أوضاع لسانية مرتبطة بالصياغة اللغوية، وأخرى غير لسانية ترتبط بمقاصد

(١) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص:٢٦٢.
(٢) الميزان:١٨/٢٥٥-٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه :١٨/٢٥٦.

الكلام، ومنها مرتبطة بالسّامع وأحواله والفائدة التي يجنيها من الخطاب ،وأنَّ بنية الخطاب تختلف بحسب تغيرات المقام والقصد يتبعه تغيير في الصياغة اللغوية وكل ما يحيط بالعملية التواصلية من سياق ومقام وخطاب ،والقصد في اللسانيات التداولية أساس التواصل فلا تواصل بدون قصدية، ويتضح من كلام المُفسرُ أنَّ الانسجام ذو طبيعة دلالية من ناحية وذو طبيعة خطية شكلية من ناحية أخرى، وأنَّ الطبيعتين تتضافران معا لتحقيق الانسجام الكلي للنص، وقد وظف النصُّ القرآني اللفظ توظيفًا اكسبه صفة الإعجاز [١] .

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى:﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢] ليُبين لنا معنى هذه (اللام) التي اختلف المُفسِّرون في تحديد معناه ((اللام في قوله: (لِّيَغْفِرَ) للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ ،فظاهره أنَّ الغرضَ من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، ومن المعلوم أنَّ لا رابطةَ بين الفتح وبين مغفرة الذنب، ولا معنى معقولًا لتعليله بالمغفرة)) [٢].

ويعالج السيّد الطباطبائي النصَّ القرآني معالجة نصية بعد أنْ يعرضَ اشكالات المُفسِّرين ((قول بعضهم فراراً عن الإشكال: أنَّ اللام المكسورة في (لِّيَغْفِرَ) لام القسم والأصل ليغفرن حذفت نون التوكيد وبقي ما قبلها مفتوحا للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال))[٣].

ويذهب السيّدُ الطباطبائيُّ ((ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة، فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان، والمغفرة هي الستر على الشيء، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المتتبع للعقاب وترك العقاب عليها، فإنَّما لزماهما بحسب عرف المتشرعين، فالمراد بالذنب ـ والله أعلم ـ التبعة السيئة التي لدعوته (ﷺ) عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه، كما في قول موسى

(١) يُنظر: دراسات في اللغة والأدب:٩ .

(٢) الميزان : ٢٥٦/١٨.

(٣) المصدر نفسه:٢٥٧/١٨.

لربه: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:١٤] وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه (ﷺ) بمكة قبل الهجرة، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة، ومغفرته تعالى لذنبه هي سترة عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم، ويؤيد ذلك ما يتلوه من قوله: (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا) إلى أن قال ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح:٣]))[(١)].

وبكلمة قصيرة: المراد بالذنب من منظار المشركين كما هو مراد في قصة موسى (عليه السلام)حيث إنَّ قتل القبطي كان ذنبًا عندهم، وينتهي الفصل الاول بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧] تُبين الآية العلاقة بينها وبين ما قبلها من الآيات علاقة السبب والمسبب عنه.

ويبدأ الفصل الدلالي الثاني من قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح:٨] وانتهاءً بقوله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠]

يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((فصل ثان من آيات السورة يُعرّفُ سبحانه فيه نبيه (ﷺ) تعريف إكبار وإعظام بأنَّه أرسله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله، وقد كان الفصل الأول امتنانًا منه تعالى على نبيه بالفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر وعلى المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم وإدخال الجنة ووعيد المشركين والمنافقين بالغضب واللعن والنار)) [(٢)]،وقد أشار السيّدُ الطباطبائيُّ إلى علاقة الفصل الدلالي الاول بالفصل الدلالي الثاني إذ يتناول الفصل الاول أهمية الفتح وامتنان الله على النبي(ﷺ) والمؤمنين بينما يتناول الفصل الثاني التعريف بالنبي(ﷺ) تعريف إكبار وإعظام بأنَّه أرسله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله عزَّ وجل.

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى:﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، محللًا النص وفق مفهوم الانسجام المتدرج في مقابل الانسجام الكلي((اللام في(لِّتُؤْمِنُوا) للتعليل أي أرسلناك كذا وكذا لتؤمنوا بالله ورسوله،

(١) الميزان: ١٨/٢٥٨-٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٨/٢٥٨.

والظاهر أنَّ الضمائر في(وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّـرُوهُ وَتُسَـبِّحُوهُ) جميعًا لله تعالى والمعنى: إنا أرسلناك كذا وكذا ليؤمنوا بالله ورسوله وينصروه تعالى بأيديهم وألسنتهم ويعظموه ويسبحوه ـ وهو الصلاة ـ (بُكۡرَةً وَأَصِيلًا) أي غداة وعشيا)) [١]،ويردُّ السيّدُ الطباطبائيُّ على الرأي الذاهب إلى أنَّ إحالة((الضميرين (وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّـرُوهُ) للرسول(ﷺ) ،وضمير(وَتُسَـبِّحُوهُ)لله تعالى ويوهنه لزوم اختلاف الضمائر المُتسقة)) [٢] .

فالنص له صورتان من الربط، يسمي (جون كوين) الصورة الأولى الربط الواضح وهو الذي يجري عِبر وسائل تركيبية قوية يمكن أنْ تكون حرف عطف أوغيره [٣] ، والصورة الثانية هي الربط الدلالي ، ويتم بتجاور بسيط ،والربط الدلالي يقوم على إدراك العلاقات بين الكلمات والجمل، فهو تماسك يتحقق في المقام الأول بوسائل دلالية ، وهو أيضاً يتمثل في البنية العميقة على المستوى العميق للنص وللسِّياق الدور الأكبر في تحقق هذا النوع من الترابط وعلى هذا، فإن الانسجام هو النحو الدلالي الذي يهتم بكيفية ارتباط المفاهيم مثل فاعل وحدث وحالة وصفة لإيجاد معنى كلي للنص[٤] ،أي: أنَّ الانسجامَ ((يُحددُ تلك العلاقات الدلالية التحتية التي تسمح للنص بأنَّ يفهم ويستخدم ،وهذه العلاقات من القوة بحيث تعطي للنص مظهره ووحدته ، فوحدة أي نص لا يمكن أن توجد بشكلٍ كافٍ إلا بمراعاة قاعدته الدلالية في النصوص وفهم ذلك البناء))[٥].

ومن هنا ينظر إلى الانسجام على أنَّه انتظام أجزاء النص في صلب علاقات متآلفة تحددها نوعية بنيتهِ اللسانية ، فالفكرة القائمة على التناسق والتناسب بين الألفاظ والجمل والأفكار في النص يمكن أنَّ تشكل استمراريته[٦].

ويختتم الفصل الثاني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:١٠] يقول

(١) الميزان:٢٧٨/١٨.
(٢) المصدر نفسه:٢٧٨/١٨ .
(٣) يُنظر:بناء لغة الشعر: جون كوين :١٨٩-١٩٠.
(٤) يُنظر: المصدر نفسه:١٨٩-١٩٠.
(٥) المصدر نفسه: ١٩٠.
(٦) يُنظر: نحو النص بين الأصالة والحداثة:١٢٣

السيّدُ الطباطبائيُّ: ((والآية لا تخلو من إيماء إلى أنَّ النبي كان عند البيعة يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس)) [(١)]، ويركز السيّدُ الطباطبائيُّ على ربط الآية بسياقها العام، وبغيرها من الآيات ربطًا دلاليًا، لأنه يكشف عن العلاقات بين الآيات ، ويكون الاعتماد في ذلك على أمرين هما: معنى الآيات، الإحالة ، وبعد أنْ أشار الفصل الدلالي الثاني عن شهادة الرسول (ﷺ) على الاعمال من إيمان وكفر وعمل صالح ،ووعد للنبي(ﷺ) على حفظ العهد والإيفاء به.

ثم يبدأ الفصل الدلالي الثالث من قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح:١١]، إلى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح:١٧] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((فصل ثالث من الآيات تعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله (ﷺ) في سفره الحديبية ولم ينفروا إذا استنفرهم وهم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم و(دئل)، فتخلفوا عن النبي (ﷺ) ولم يصاحبوه قائلين: إنَّ محمدًا ومن معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر دارهم ،فقتلوهم قتلًا ذريعًا، وإنَّهم لن يرجعوا من هذه السفرة ولن ينقلبوا إلى ديارهم وأهليهم أبدًا)) [(٢)] .

وهذا يدلنا على المدى الذي يعملُ فيه السيّدُ الطباطبائيُّ في تعامله مع النصِّ القرآني، إذ يقتطع مجموعة من الآيات وسمها فصلًا ،كما نلحظ أنَّه قد بحث عن الوحدة السياقية أو المضمون القريب بين الوحدات النصية في هذا الفصل، كي يعلل الغرض الذي من أجله اقتطع تلك الآيات دون غيرها، ومن الحقائق التي ينبغي لفت النظر إليها أنَّ علاقة الآيات ببعضها البعض لا تُغني بالضرورة أنَّ كلَّ آيةٍ تجسد سببًا لما قبلها وما بعدها بقدر ما تغني

(١) يُنظر: نحو النص بين الأصالة والحداثة:١٢٣.

(٢) الميزان:٢٨١/١٨.

أنَّ شبكة من الخطوط تتواصل فيما بينها بنحو مباشر أو غير مباشر، تفضي بالنهاية إلى استجابة معرفية كلية [١].

والعلاقة بين الفصل الدلالي الثاني والفصل الدلالي الثالث واضحة إذ تناول الفصل الثاني الذين خرجوا مع النبي ، وبايعوه أما الفصل الثالث فقد تناول الذين تخلفوا عن البيعة والخروج معه إلى مكة ، فأخبر الله سبحانه نبيه(ﷺ) في هذا الفصل تبرير قعودهم بانشغالهم بالأموال والأهلين.

ثم يبدأ الفصل الدلالي الرابع من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨] إلى قوله تعالى :﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ :((فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي (ﷺ) في خروجه إلى الحديبية ،فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي (ﷺ) تحت الشجرة ،ثم يمتن عليهم بإنزال السكينة وإثابة فتح قريب ومغانم كثيرة يأخذونها، ويخبرهم ـ وهو بشرى ـ أنَّ المشركين لو قاتلوهم لأنهزوا وولّوا الأدبار وأنَّ الرؤيا التي رآها النبي(ﷺ) رؤيا صادقة سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم لا يخافون فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))[٢] .

ويرفدنا السيّدُ الطباطبائيُّ برؤيته النصية قائلًا:((وإنَّ المراد بالفتح القريب فتح الحديبية ،فهو الذي سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسر لهم ذلك ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل))[٣] .

ونستشفُ من كلام السيّدِ الطباطبائيِّ أنَّ الجملَ تترابط ترابطًا تفريعيًا من أدواتِ تشبيه خاصة فتكون النصوص التفريعية تفسيرًا وإيضاحًا لما قبلها والترابط بين النصوص يتحقق عن طريق الربط التفريعي الذي يجعل هذه النصوص أشدَّ تماسكًا وانسجامًا، ويشير السيّد

(١) يُنظر: دراسات في علوم القرآن الكريم:٤٣٢.

(٢) الميزان:١٨/ ٢٨٧

(٣) المصدر نفسه :١٨/٢٩٥.

الطباطبائي إلى هذه العلاقة عند قوله: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٦] ،قائلًا:((تفريع على قوله:(إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) ويفيد نوعا من المقابلة كأنه قيل: جعلوا في قلوبهم الحمية فقابله الله سبحانه بإنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ولم يستخفهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة))[١].

وهذا ملمح نصي أشار إليه (دي بو جراند) عند تحديده ربط التفريع أو الإتباع ويشير هذا النوع من الربط إلى أنَّ العلاقة بين الصورتين من صور المعلومات في علاقة تدرج أي أن تحقق احداهما يتوقف على حدوث الأخرى ويربط بين صورتين تعتمد مكانة أحدهما على مكانة الأخرى فيمكن النظر إلى الروابط التفريعية على انها عرى لعلاقات مفهومية[٢]،والبنية الكبرى ترتكز على أنَّ المعنى الكلي للنص والمعلومات التي يتضمنها أكبر من مجرد مجموع المعاني الجزئية للجمل والفصول الدلالية التي تكونه، فالنظرة إلى النصِّ عن طريق بنية شاملة ومتصفة بمستويات عديدة يوفر لبنية النص تماسكًا شديدًا[٣] .

ثم يبدأ الفصل الدلالي الخامس والأخير من سورة الفتح قال تعالى:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٢٩]، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((الآية خاتمة السورة تصف النبي (ﷺ) وتصف الذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل وتعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعدًا جميلًا، وللآية اتصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنَّه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق)) [٤] .

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) ((ضمير (مِنْهُم) للذين معه، و(من) للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل

(١) الميزان:١٨/٢٩٣.

(٢) يُنظر : مدخل إلى علم النص(تطبيقات لنظرية دي بو جراند ووليفجانج دريلسر)إلهام ابو غزالة-علي خليل حمد:١٠٧

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص : ٣٣٠.

(٤) الميزان:١٨:٣٠٢.

هذا النظم ويفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوثا وبقاء وعمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١] أو آمن أولًا ثم أشرك وكفر كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ﴾[محمد:٢٥] - إلى أنْ قال - ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك(*) وآية التبين في نبأ الفاسق(*) .

وأمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم)) [(١)]، ويرى الباحث إنَّ اتخاذ السيّدِ الطباطبائيِّ هذه الآية فصلًا دلاليًا ليس بسبب وحدتها السياقية فقط ولكن هنالك سبب آخر يبدو جوهريًا في نظر السيّدِ الطباطبائيِّ ألا وهو معنى (مِنْهُم) التي ذهب معظم المُفسرِّين إلى معناها بيانية، والسيّدُ الطباطبائيُّ يراها تبعيضية لذا نراه يطيل في تقليب ورودها في النص القرآني موظفًا منهج تفسير القرآن بالقرآن لبيان معناها قائلاً:((ونظير هذا الاشتراط ما تقدم في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠]ويؤيده أيضاً ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى:﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]حيث فسره بقوله: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء)) [(٢)].

ويُفسِّر السيّدُ الطباطبائيُّ مستعينًا بمعايير النصية دون اعتماده الرواية قائلًا:((وبعد ذلك كله لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولًا مطلقًا من غير

(*) فمن أهل الإفك من هو صحابي بدري وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣] نقلًا عن هامش الميزان :١٨/ ٣٠٥.

(*)ومن نزل فيه:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[الحجرات:٦] وهو الوليد بن عقبة صحابي وقد سماه الله فاسقًا وقد قال تعالى:﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦] نقلًا عن هامش الميزان :١٨/ ٣٠٥.

(١) الميزان:١٨/٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه :١٨/٣٠٥.

اشتراط بالإيمان والعمل الصالح وكانوا مغفورين ـــ آمنوا أو أشركوا وأصلحوا أو فسقوا ـــ لزمته لزومًا بيّنًا لغوية جميع التكاليف الدينية في حقهم وارتفاعها عنهم وهذا مما يدفعه الكتاب والسُّنة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه وإن لم يتعرض له في اللفظ، وقد قال تعالى في أنبيائه:﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، فأثبته في أنبيائه وهم معصومون فكيف فيمن هو دونهم))[(١)].

ويرد السيّدُ الطباطبائيُّ على من يذهب إلى تأخير الضمير (مِنۡهُم) لشمولهم بالمغفرة من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح وكانوا مغفورين((أما تأخير (مِنۡهُم) في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفك عنهم بل لأنَّ موضوع الحكم هو مجموع (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) ولا يترتب على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة والأجر ثم قوله: (مِنۡهُم) متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أنْ يذكر بعد تمام الموضوع وهو (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)وأما تقدم الضمير في قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ ﴾ [النور:٥٥]فلانة مسوق سوق البشرى للمؤمنين الأنسب لها التسريع في خطاب من بشر بها لينشط بذلك وينبسط لتلقي البشرى))[(٢)].

(١) الميزان :١٨/٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه :١٨/٣٠٦.

المبحث الثالث :ما عُدّ من السور فصلًا دلاليًا:

تناول السيّدُ الطباطبائيُّ قصار السور مرة واحدة ، نتيجة لقصر نسيجها السوري ، فيفترضها فصلًا دلاليًا واحدًا على منواله في منهجه التفسيري ، إذ يتجلى اجتهاده هنا في الإفادة من قصرها ومن ثم تطبيقه المباشر لأسلوبه التقطيعي[١]، وإنّ انتقاءه للفصل الدلالي كان يُعطي حكما للوحدة السِّياقية المتبناة عنده[٢].

١-من السور التي اختارها الباحث (سورة الغاشية) .

ومن السور التي فسَّرها دفعة واحدة قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾[الغاشية:١-٢٦] ، يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في غرض هذه السورة:((سورة إنذار وتبشير تصف الغاشية وهي يوم القيامة الذي يحيط بالناس، تصفه بحال الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين: السعداء والأشقياء واستقرارهم فيما أعد لهم من الجنة والنار وتنتهي إلى أمره (ﷺ) أنْ يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبي في العالم الدالة على ربوبيته تعالى لهم ورجوعهم إليه لحساب أعمالهم، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها))[٣]، ويُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى العلاقة الدلالية التي أسهمت في انسجام النصِّ

(١) يُنظر:مقاربات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري(تفسير القرآن أنموذجا) :٢٦.

(٢) يُنظرُ: المصدر نفسه:٢٦.

(٣) الميزان:٢٠/٣٠٨.

القرآني (علاقة المقابلة) بين حال الكافرين يوم القيامة وحال المؤمنين إذ يصفُ الكافرين بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]((أي: مذللة بالغم، والعذاب يغشاها، والخشوع إنَّما هو لأرباب الوجوه، وإنَّما نسب إلى الوجوه لأنَّ الخشوع والمذلة يظهر فيها))[١] ،وقوله تعالى:(عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) [الغاشية: ٣]النصب التعب و(عَامِلَةٌ) خبر بعد خبر لوجوه، وكذا قوله: (نَّاصِبَةٌ) و(تَصْلَىٰ) و(تُسْقَىٰ) و(لَّيْسَ لَهُمْ) والمراد من عملها ونصبها بقرينة مقابلتهما في صفة أهل الجنة الآتية بقوله: (لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) [الغاشية:٩]عملها في الدنيا ونصبها في الآخرة، فإنَّ الإنسان إنَّما يعمل ما يعمل في الدنيا ليسعد به ويظفر بالمطلوب لكن عملهم خبط باطل لا ينفعهم شيئاً كما قال تعالى:﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، فلا يعود إليهم من عملهم إلَّا النصب والتعب بخلاف أهل الجنة فإنَّهم لسعيهم الذي سعوه في الدنيا راضون لما ساقهم إلى الجنة والراحة[٢].

وعلى الرغم من أنَّ اللغةَ هي المرتكز الأساس في عملية الكشف عن انسجام النصِّ القرآني عند السيّدِ الطباطبائيِّ سواء أكان على المستوى الظاهري كما هو في الأدوات والأساليب أم في المستوى الباطني كما هو في البعد المفهومي لها ، إلَّا أنَّ مجال العقل لم يغب عن ذلك بل كانت له في كثير من الاحيان الهيمنة في المجال اللغوي في إعلان صورة الربط أو طبيعة العلاقة[٣] ،كما في قوله تعالى:﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية:٦-٧]، يقول السيّد الطباطبائي: ((قيل: الضريع نوع من الشوك يقال له: الشبرق وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس وهو خبث طعام وأبشعه لا ترعاه دابة، ولعل تسمية ما في النار به لمجرد المشابهة شكلاً وخاصة))[٤].

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في استنطاقه النص القرآني عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] ، بقوله: ((بعد ما فرغ من وصف الغاشية وبيان حال الفريقين، المؤمنين والكفار عقبه بإشارة إجمالية إلى التدبير الربوبي الذي يفصح عن

(١) الميزان :٢٠/٣٠٨.
(٢) يُنظر: المصدر نفسه:٢٠/٣٠٨.
(٣) يُنظرُ :البحث الدلالي عند الرازي في كتابهِ (مفاتيح الغيب): ١٦٧ .
(٤) الميزان:٢٠/٣٠٩.

ربوبيته تعالى المقتضية لوجوب عبادته ولازم ذلك حساب الأعمال وجزاء المؤمن بإيمانه والكافر بكفره والظرف الذي فيه ذلك هو الغاشية))[١].

ويُشير السيّد الطباطبائي إلى علاقة الإجمال وهي أحدى العلاقات الدلالية التي تُسهِم في انسجام النصِّ القرآني بقوله:((وقد دعاهم أولًا أنْ ينظروا إلى الإبل كيف خلقت؟ وكيف صور الله سبحانه أرضاً عادمة للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة في أعضائها وقواها وأفاعيلها، فسخرها لهم ينتفعون من ركوبها وحملها ولحمها وضرعها وجلدها ووبرها؟))[٢].

وتخصيص الإبل بالذكر لأنَّ السورة مكية وأول من تتلى عليهم الإعراب واتخاذ الأبل من أركان معيشتهم، وقوله تعالى:﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ [الغاشية:١٨]وزينت بالشمس والقمر وسائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض وقد جعل دونها الهواء الذي يضطر إليه الحيوان في تنفسه، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ [الغاشية:١٩] وهي أوتاد الأرض المانعة من مورها ومخازن الماء التي تتفجر منها العيون والأنهار ومحافظ للمعادن[٣].

ويستثمرُ السيّدُ الطباطبائيُّ أداة التفريع لبيان الانسجام في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية:٢١] ،قائلاً تفريع على ما تقدم والمعنى إذا كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه وأمامهم يوم الحساب والجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك ، وقوله: (إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ) بيان أنَّ وظيفته – وهو رسول – التذكرة رجاء أنْ يستجيبوا ويؤمنوا من غير إكراه وإلجاء، وقوله تعالى:﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢] ،المصيطر– وأصله المسيطر– المتسلط والجملة بيان وتفسير لقوله: (إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ)))[٤].

ويشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى العلاقات الدلالية (علاقة التفريع وعلاقة قصر الموصوف على الصفة وعلاقة البيان الوظيفة) ،وهذه العلاقات ساعدت على الانسجام

(١) الميزان :٢٠/٣١٠.
(٢) المصدر نفسه:٢٠/٣١٠.
(٣) يُنظر: المصدر نفسه :٢٠/٣١٠.
(٤) المصدر نفسه ٢٠/٣١١.

النصي، وسورة مكيّة تناولت موضوعين أساسيين: الأول: القيامة وأهوالها وما يلقاه المؤمن من النعيم، والجزاء مقابل ما يلقاه الكافر من العذاب والبلاء، والآخر عرض بعض الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى وقدرته في الكون والخلق البديع، وبعد عرض دلائل القدرة والتوحيد يأمر الله تعالى رسوله (ﷺ) بتذكير المكذبين ووعظهم لأنَّه لا يمكنه أنْ يجبرهم على الإيمان فهؤلاء عقابهم عند الله الذي يحاسبهم جزاء كفرهم وتكذيبهم ،ولتبدو العلاقة وثيقة وعضوية بين آيات العذاب(٢-٧)وآيات النعيم (٨-١٦) فكل آية تمهد لأختها وتهدف إلى غاية مشتركة، لذلك ترتبط بالآيات التي بعدها التي عرضت الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى وقدرته في الكون والخلق البديع الآيات(١٧-٢٠) ثم تأتي الآيات (٢١-٢٦) موجهة خطابها إلى النبي الأكرم(ﷺ)بتذكير المكذبين ووعظهم.

٢-من السور التي اختارها الباحث (سورة الفجر) .

يتخذ السيّدُ الطباطبائيُّ سورة الفجر فصلًا دلاليًا واحدًا قال تعالى : ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر:١-٣٠]، بقوله :((في السورة ذم التعلق بالدنيا المتعقب للطغيان والكفران وإبعاد أهله بأشد عذاب الله في الدنيا والآخرة ،فتبين أنَّ الإنسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أنَّ ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله وأنْ ما يتلبس به من الفقر والعدم من هوانه، فيطغى ويفسد في الأرض إذا وجد ويكفر إذا فقد وقد اشتبه عليه الأمر، فما يصيبه

من القدرة والثروة ومن الفقر وضيق المعاش امتحان وابتلاء إلهي ليظهر به ما ذا يقدم من دنياه لأخراه))[١]،ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية ويقدم غرض السورة الذي يماثل البنية الكبرى عند المحدثين ،ويُبين لنا موضوع السورة هو الانسان وتعامله مع نعم الله طغيانًا وكفرًا.

ويضيف السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان رؤيته النصية بقوله: ((فليس الأمر على ما يتوهمه الإنسان ويقوله بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب وحضر العذاب أنْ ما أصابه من فقر أو غنى أو قوة أو ضعف كان امتحانًا إلهيًا وكان يمكنه أنْ يقدم من يومه لغده فلم يفعل وآثر العقاب على الثواب ،فليس ينال الحياة السعيدة في الآخرة إلَّا النفس المطمئنة إلى ربها المسلمة لأمره التي لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات ولا يطغيه الوجدان ولا يكفره الفقدان، والسورة مكية بشهادة سياق آياتها)) [٢].

يقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند معنى الفجر ((ولعل ظاهر قوله: **(وَٱلۡفَجۡرِ)** أنَّ المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضًا أنْ يرادَ به فجر يوم النحرِ وهو عاشر ذي الحجة))[٣]،ويذكر السيّدُ الطباطبائيُّ المعاني التي أوردها المُفسِّرون بعد تقديمه المعنى الذي يراه أقرب إلى انسجام النصِّ القرآني ويستعرضها دون ترجيح لرأيٍ أو الرد عليها ولكنه يقدم المراد دون إهمال آراء الآخرين .

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليلاته((وقوله: **(هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ)** الإشارة بذلك إلى ما تقدم من القسم، والاستفهام للتقرير، والمعنى أنَّ في ذلك الذي قدمناه قسمًا كافيًا لمن له عقل يفقه به القول ويميز الحق من الباطل، وإذا أقسم الله سبحانه بأمر – ولا يقسم إلَّا بما له شرف و منزلة – كان من القول الحق المؤكد الذي لا ريب في صدقه)) [٤]، وفي هذا الاستفهام دلالة على التقرير كما أشار السيّدُ الطباطبائيُّ، إذ إنَّ جملة الاستفهام التقريري إذا تضمنت أداة نفي فإنَّها تدلُّ على الانكار التقريري [٥]،وبما أنَّ هل تفيد النفي غير المحض

---

(١) الميزان:٢٠/٣١٥.
(٢) المصدر نفسه:٢٠/٣١٥.
(٣) المصدر نفسه:٢٠/٣١٥.
(٤) المصدر نفسه:٢٠/٣١٧.
(١) يُنظر: البيان في روائع القرآن:٢/١٩٧.

بل هو استفهام أشرب معنى النفي، فقد يكون مع النفي تعجب أو استنكار أو تقرير وهنا جاء الاستفهام للتقرير ،إنَّ المقصود من هذا التعبير اشراك المخاطَب في الأمر، ليقرر ويجيب بنفسه[١]

ويلحظ أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يُشير إلى حذف جواب القسم ودوره في الانسجام قائلًا:((وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنة، وأنَّ إنعامه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك إنَّما هو ابتلاء وامتحان، وحذف الجواب والإشارة إليه على طريق التكنية أوقع وآكد في باب الإنذار والتبشير))[٢]،وللقسم أهمية دلالية ؛لأنَّه يفيد توكيد المعنى المُقسم عليه، قال سيبويه(ت١٨٠هـ):((اعلم أنَّ القسم توكيد لكلامك)) [٣]

وحذف الجواب فيه من البلاغة في التعبير ما لا يتحقق عند ذكر الجواب، لأنَّه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف ،فلما جاء بعده بان عذاب الكافرين دلَّ على أنَّ المقسم عليه أولاً هو ذلك[٤]،ومرجعية الحذف تكون داخلية سابقة أو لاحقة أو مكررة وهذا في الغالب ،وهي تسهم في تحقيق الانسجام النصي ، كما في إشارة السيّدِ الطباطبائيِّ في المرجعية اللاحقة دلَّ عليها ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران ،لاشك إذن في أهمية وجود الدليل على المحذوف، مقالي أو مقامي والذي يهمنا هو وجود هذا الدليل على أكثر من جملة ؛فإذا كان المحذوف في جملة، والدال عليه في جملة أخرى، سواء أكانت في النص أم في غيره، بشرط كون النصين من قائل واحد، فإنَّ هذا يُسهم في الحقيقة في انسجام هاتين الجملتين أو هذه الجمل، خاصة إذا كان المحذوف من لفظ المذكور،أو يترادف معه، أو يتقابل معه[٥]،ومشروعية الحذف لم يتفرد بها علم اللغة النصي وإنَّما تحدث إليها سيبويه(ت١٨٠هـ) من خلال القرائن ومهمتها في إباحة الحذف في

---

(٢) يُنظر: معاني النحو ، د. فاضل السامرائي:٢٠٩/٤.

(٣) الميزان :٣١٧/٢٠.

(٤) الكتاب ،عمرو بن عثمان بن قَنْبر، الملقب بـ (سيبويه) علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه د. إميل بديع يعقوب:١٠٤/٣ .

(٥) يُنظر: التفسير الكبير :١٦٧/٣١.

(٦) يُنظر :علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية على السور المكية):٢٠٩/٢.

أكثر من باب من كتابه[١]، وتحدث الفرّاء (ت٢٠٧هـ)عن أهمية القرائن في تقدير المحذوف[٢].

والحذف يُعدُّ وسيلة تُسهم في خلق الانسجام النصي، إذ يشرع الحذف في تكوين حوار طرفاه النصّ والمتلقي، وهو حوار يتجلى فيه تواصل المتلقي مع النصِّ ،وإذا تأملنا الصلة بين النصِّ والمتلقي، في إطار الكشف عن مواقع الحذف، فإننا سنجد أنَّ ثمَّةَ تعويلًا لازمًا على (الدليل) أو الأثر الذي يدل القارئ أو السامع على مكان الحذف ويهديه إلى تقدير المحذوف[٣].

وأشار الطبري(ت ٣١٠ هـ) إلى أنَّ الله تعالى لا يخاطب خلقه إلَّا بما يعرفونه ((غيرُ جائزٍ أنْ يخاطبَ الله جل ذكره أحدًا من خلقه إلَّا بما يفهمه المخاطَب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلَّا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه ؛ لأنَّ المخاطب والمرسل إليه إنْ لم يفهم ما خوطب به ، وأرسل به إليه، فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء ؛ إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئًا كان به قبل ذلك جاهلًا ، والله عز وجل ذكره يتعالي عن أنْ يخاطبَ خطابًا، أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه ؛ لأنَّ ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث ، والله تعالى عن ذلك متعال؛ ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله :﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم:٤]))[٤].

وقد عدَّ (دي بوجراند) في معاييره السبعة للنصية معيار القبول، وهو يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أنْ تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك وانسجام[٥] .

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى:((﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ المرصاد المكان الذي يرصد منه ويرقب وكونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيلية شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمر به وهو لا يشعر فالله

(١) يُنظر: الكتاب،: ٢٥٣/١ –٢٦٠ الأبواب هي :حذف الفعل في الامر والنهي ٣١٠/١حذف الفعل في غير الأمر والنهي،٣١٤/١ حذف الفعل بعد حرف ٣١٦/١.

(٢) يُنظر: معاني القرآن :٣٦٢/١.

(٣) يُنظر:علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات): ١٤٦.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن،محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : أحمد محمد شاكر:٧/١ .

(٥) يُنظر :النص والخطاب والإجراء: ١٠٤.

سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب، وفي الآية تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين وفي قوله: (رَبَّكَ) بإضافة الرب إلى ضمير الخطاب تلويح إلى أنَّ سنة العذاب جارية في أمته (ﷺ) على ما جرت عليه في الأمم الماضين))[١].

ومن مظاهر الانسجام أيضا الجمع بين غرضين مختلفين كالجمع بين أصحاب التعلق بالدنيا وأصحاب النفس المطمئنة إلى ربها المسلمة لأمره التي لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات ،ومن مظاهر الانسجام التي أشار لها السيّدُ الطباطبائيُّ في هذه السورة حُسن النسق أيضًا وذلك بأنَّ يأتي المتكلم بكلمات متتاليات معطوفات مُتلاحمات تلاحمًا سليمًا مستحسنًا، وبما وحدة الغرض والموضوع واحدة لذا عدّها السيّدُ الطباطبائيُّ فصلًا واحدًا [٢] .

٣ ــ من السور التي اختارها الباحث (سورة الأخلاص) .

قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]،يقول السيّدُ الطباطبائيُّ في بيان هذه السورة ((السورة تصفه تعالى بأحدية الذات والرجوع ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أنْ يشاركَه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وهو التوحيد القرآني الذي يختص به القرآن الكريم ويبني عليه جميع المعارف الإسلامية))[٣].

ويُشيرُ السيّدُ الطباطبائيُّ إلى وحدة الغرض ووحدة الموضوع فالهدف واحد والموضوع واحد ، وهذه السورة هي الهدف المركزي للقرآن كله وكأنَّ السور الأخرى أهداف تنمو لتصل إلى الهدف المبتغاة ألا وهو التوحيد، ويقول :((والسورة تحتمل المكية والمدنية، والظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنَّها مكية)) [٤].

---

(١) الميزان:٢٠/٣١٨-٣١٩.

(٢) يُنظر: في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم.٤٤.

(٣) الميزان:٢٠/٤٤٨ .

(٤) المصدر نفسه:٢٠/٤٤٨ .

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ((هو ضمير الشأن والقصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له، والحق أنَّ لفظ الجلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربية كما أنَّ له في غيرها من اللغات اسمًا خاصًا به، وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أنَّ الأحد إنَّما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجًا ولا ذهنًا ولذلك لا يقبل العد ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإنَّ كل واحد له ثانيًا وثالثًا إما خارجًا وإما ذهنًا بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرًا وأما الأحد فكل ما فرض له ثانيًا كان هو هو لم يزد عليه شيء))[١]،وقد تألَّفتْ الجملةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ من جملتين اسميتين، وفي هذا دلالة على مضاعفة الثبوت، فالتعبير بالاسم أقوى من التعبير بالفعل ؛لأنَّ الاسم يدلُّ على الثبوت [٢]وأنَّها ابتدأت بالضمير(هُوَ) الذي يدلُّ على التوكيد، وقد حافظ الضمير(هُوَ) على جرس السورة الإيقاعي وسرعة الأداء فيها ، فلو تصوَّرنا التعبيرَ بدونهِ للحظنا حصول إبطاء في التعبير قد يخلُّ بالجرس الإيقاعي لها بسبب التقاء اللام في (قُلْ) باللام في لفظ الجلالة[٣].

يشكل ضمير الشأن بنية إحالية ذات وظيفة خاصة ،حرصَ النحاة على تأكيدها، وهم يتفقون أساسًا في أنَّه مبهم غائب مفرد ويتصدر الجملة ، ويُفسِّرُ ما يليه، يُقصدُ به التعظيم والتفخيم، وهو بذلك يخالف الضمائر الأخرى في أشياء ويتفق معها في أشياء أخرى، فالضمير عادةً ما يُفسِّر ظاهر يتقدَّم عليه، وهو يحيل عليه أما ضمير الشأن فله استخدام خاص؛ إذ كناية عن الجملة بعده، وتكون الجملة خبرًا له وتفسيرًا له أيضًا؛ ولذا يطلق عليه (ضمير الجملة)[٤] .

ويُفسِّر السيّدُ الطباطبائيُّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ((الإخلاص الأصل في معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد يقال: صمده يصمده صمدًا من باب نصر أي

(١) الميزان :٢٠/٤٤٩.

(٢) يُنظر معاني الأبنية في العربية، د. فاضل السامرائي :١٤.

(٣) يُنظرُ: دلالة البنى التركيبيَّة في السور القرآنية القصار، رسالة ماجستير ، عباس عبد السادة ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة البصرة،٢٠١٣م:٧٣.

(٤) دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، د.سعيد حسن بحيري:١٢٥.

قصده أو قصده معتمدًا عليه)) [١]، ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليله للمعنى المعجمي معولًا على المعنى السياقي ومراعيًا المعنى الذي يخدم الانسجام النصِّي ((وقد فسَّروا الصمد ـ وهو صفةـ بمعانٍ متعددة مرجع أكثرها إلى أنَّه السيد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج، وإذا أطلق في الآية ولم يقيد بقيد فهو المقصود في الحوائج على الإطلاق)) [٢]

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليلاته مستفيدًا من قدرته الفلسفية ((وإذا كان الله تعالى هو الموجد لكل ذي وجود مما سواه يحتاج إليه فيقصده كل ما صدق عليه أنَّه شيء غيره، في ذاته و صفاته وآثاره قال تعالى:﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] وقال وأطلق: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم:٤٢] فهو الصمد في كل حاجة في الوجود لا يقصد شيئًا إلَّا وهو الذي ينتهي إليه قصده وينجح به طلبته ويقضي به حاجته))[٣]،ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ تنوع مصادره المعرفية في تتبع معنى (ال) التعريف للكلمة(ٱلصَّمَدُ) ((ومن هنا يظهر وجه دخول اللام في الصمد وأنَّه لإفادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق، وهذا بخلاف(أَحَدٌ) في قوله (ٱللَّهُ أَحَدٌ) فإنَّ أحدًا بما يفيده من معنى الوحدة الخاصة لا يطلق في الإثبات على غيره تعالى فلا حاجة فيه إلى عهد أو حصر)) [٤]،وهنا يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى دور (ال) التعريف في أحداث الترابط إذ تتجاوز ما يراه النحاة من أنَّها تحول النكرة إلى معرفة فهي تتعدى ذلك إلى الربط بين الجمل ربطًا يشبه ربط الإحالة بالضمير من حيث إنَّها تذكر السامع بشيء سبق ذكره أو شيء معروف بالذهن جرى الكلام عليه[٥]، وهذه الالتفاتة تُسهم في انسجام النص القرآني وتحديد الصمدية بالله دون غيره، يستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في تحليلاته لتوضيح النصَّ القرآني ودور تكرار لفظ الجلالة في هذا الانسجام ((وأما إظهار اسم الجلالة ثانيًا حيث قيل: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ ولم يقل: (هو الصمد)، ولم يقل:(الله أحد صمد) فالظاهر أنَّ ذلك للإشارة إلى كون كل من

(١) الميزان:٢٠/٤٤٩.
(٢) المصدر نفسه:٢٠/ ٤٤٩.
(٣) المصدر نفسه:٢٠/ ٤٤٩.
(٤) المصدر نفسه:٢٠/ ٤٤٩.
(٥) يُنظر: في اللسانيات ونحو النص: ٢٢٢.

الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى حيث إنَّ المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختص به فقيل: (الله أحد الله الصمد) إشارة إلى أنَّ المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أو قيل كذا)) [١].

ويبدو للباحث إلى أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ ـ هنا ـ يُشير إلى الجملة النصية وبذلك هو يفرق بين الجملة النصية والجملة النظام هي شكل الجملة المجرد الذي يتولّد عنه جميع أشكال الجمل ،والمتأمل لهذا التناول يجده يعطي الجملة معنى الاستقلالية بعيدًا عن السِّياق، وهذا النوع يدخل تحته نطاق نحو الجملة، أما الجملة النصية التي تدخل تحت نحو النص وهي جملة تتسم بالتواصل مع جملة أخرى حيث يحتويها نصّ أوهي المنجزة فعلًا في مقام ولها مدلولها داخل السِّياق نتيجة ملابسات لايمكن حصرها يترتب على هذه الملابسات الفهم والافهام وهذا النوع من الجمل لا يفهم إلَّا بإدماجه في نظام الجمل فيعطي دلالته من خلال الاتساق والانسجام

ويضيفُ السيّد الطباطبائي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[الإخلاص:٣-٤]((الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أنْ يلِدَ شيئًا بتجزئته في نفسه فينفصل عنه شيء سنخه بأي معنى أُريد من الانفصال والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح أنَّه ابن الله وكما يقول الوثنية في بعض آلهتهم أنَّهم أبناء الله سبحانه ، وأما أنَّه لا كفؤ له فلأنَّ الكفؤ سواء فرض كفوًا له في ذاته أو في فعله لا تتحقق كفاءته إلَّا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة ،وتنفيان عنه أنْ يكون متولدًا من شيء آخر ومشتقًا منه بأي معنى))[٢] .

وبعد أنْ حللَّ السيّدُ الطباطبائيُّ النصَّ أشار إلى ما في الآيتين من تفريع يخدم انسجام النص ويجعله مترابطًا دون التعويل على الآراء التي تبدو عند السيّدِ الطباطبائيِّ غير منسجمة مع معطيات النص((فقد تبين أنَّ ما في الآيتين من نفي متفرع على صمديته تعالى ومآل ما ذكر من صمديته تعالى وما يتفرع عليه إلى ثبات توحده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله بمعنى واحد لا يناظره شيء)) [٣]

(١) الميزان:٢٠/٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه:٢٠/٤٥٠-٤٥١.

(٣) المصدر نفسه:٢٠/٤٥١.

ويظهر للباحث إنَّ الانسجام النصِّي في السورة التي اتخذها السيّدُ الطباطبائيُّ فصلًا دلاليًا واحدًا ذو طبيعة دلالية إذ يبدأ بتفسِّير كلِّ آيةٍ تفسيرًا خطيًا داخليًا ،ثُمَّ ينتقل السيّدُ الطباطبائيُّ إلى مستوى ثانٍ ينظر إلى النص في وحدته وتكامله، ويحدد السيّدُ الطباطبائيُّ غرض السورة هي بالتوحيد وهو التوحيد القرآني الذي يختص به القرآن الكريم ويبني عليه جميع معارفه الاسلامية، فسورة الإخلاص حملت دلالة التوحيد لله تعالى، وإذا تم استعراض عناصر الاتساق في بيان التوحيد في سورة الإخلاص نجد أنَّ الإحالة بالضمائر هي العنصر الإحالي الأول الذي استخدم في تقديم دلالة التوحيد، ثم العنصر الإحالي المعجمي لفظ الجلالة الله الذي يشير إلى مقام الألوهية.

وتظهر رؤية السيّدِ الطباطبائيِّ النصية بعد مقاربتها مع رؤية المحدثين ويقول باحث معاصر في اللسانيات النصية: ((ومع هذا القول الفصل، الذي ما بعدَه قولٌ في اللهِ، جلَّ شأنه، تتفق الدالُ التي تنتهي بها آياُت هذه السورة؛ فهي بصفتِها صوتًا غيرَ استمراري، ينقطعُ معه النفسُ؛ فلا يمتدّ، توائمُ ثبات هذه الحقيقة)) [(١)] ، وإذا كانت الأصوات تمثل الملمح الأقرب من حيث ارتباطها بالنص، وإعلانها عن بعض دلالاته، فإن الأصوات، والتشكيل الصوتي يضفي على جوانب التشكيل اللغوي بعض الترابط، والانسجام الذي يسود النص، وقد أشار الدكتور عبد الواحد زيارة :((تكرر صوت (الدال) في هذه السورة خمس مرات ليدل دلالة إيحائية تنذر بالشدة والقوة، فصوت (الدال) الشديد الانفجاري الذي يعرف عنه بأنَّه يمتلك صفات توحي بشدة الجرس وقوته ، وبالتالي دلالة هذا الجرس على المعنى الذي يؤديه هذا الصوت مفرداً على نطاق اللفظة الواحدة، أو مكرر في سياق العبارة أو السورة كاملة، ولما كانت السورة إثباتًا وتقريرًا لعقيدة التوحيد ونفي الشرك عن الذات الإلهية، جاءت بهذا الشكل الصوتي الذي أحدثه صوت (الدال) ليقرر الحقيقية الكاملة، ولينسجم الإيقاع الصوتي مع هذه السورة مع الجو العام لمشهد التوحيد وإثباته في النفوس)) [(٢)].

---

(١) التحليل الصوتيّ للنصّ(بعض قصار سور القرآن الكريم أنموذجًا) مهدي عناد أحمد قبها، إشراف. د. محمّد جواد النوري، رسالة الماجستير كليّة الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنيّة في نابلس، فلسطين،٢٠١١م:١٤١.

(٢) سحرُ النّص قراءة في بنية الايقاع القرآني ،د. عبد الواحد زيارة: ١٦٨.

وهذا الذي دفع السيّدُ الطباطبائيُّ إلى عدّها سورة مكية انسجامًا مع ما ستنبطه من النص القرآني دون الاكتراث للروايات مستندًا إلى منهج تفسير القرآن بالقرآن ،ثم إنَّ انسجام السورة ،يتعين من خلال البنية الكبرى لها، ذلك أنَّ الانسجام النصي الأفقي في سورة الاخلاص، والانسجام الكلي الذي تبيَّن من خلال البنية الكبرى لها، جعل السورة تبدو كالكلمة الواحدة في تلاحمها واتساقها، وهو يمثل روح النظم القرآني كله.

٤- من السور التي اختارها الباحث (سورة النصر) .

ومن السور القصار التي تعامل معها السيّدُ الطباطبائيُّ على أنَّها فصلٌ دلاليٌ لوحدة سياقها واتحاد هدفها مع موضوعها سورة النصر قال تعالى :﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:٣] يقول السيّدُ الطباطبائيُّ:((وعد له (ﷺ) بالنصر والفتح وأنَّه سيرى الناس يدخلون في الإسلام فوجًا بعد فوجٍ وأمره بالتسبيح حينئذ والتحميد والاستغفار، والسورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة)) [(١)].

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى :﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] ((ظهور (إِذَا) المصدرة بها الآية في الاستقبال يستدعي أنْ يكون مضمون الآية إخبارا بتحقق أمر لم يتحقق بعد، وإذا كان المخبر به هو النصر والفتح وذلك مما تقر به عين النبي (ﷺ) فهو وعد جميل وبشرى له (ﷺ) ويكون من ملاحم القرآن الكريم))[(٢)]، وهنا يُشير السيّدُ الطباطبائيُّ إلى دلالة (إذا) التي تُفيد الاستقبال يدل دلالة ظاهرة على أن الفتح لم يكن قد جاء بعد، لأن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان هذا هو المعروف في استعمالها، ويُشير إلى الأصل في (إذا) أنْ تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير التوقع ،وقالوا ولمّا كانت(إذا) تفيد الجزم بالوقوع، غلب معها لفظ الماضي، لكونه ادلُّ على الوقوع، باعتبار لفظه[(٣)]

(١) الميزان:٢٠/٤٣٥.

(٢) المصدر نفسه :٢٠/٤٣٥.

(٣) يُنظر : البرهان في علوم القرآن:٢/٣٦٢،ومعاني النحو :٤/٦٥.

ويضيفُ السيّدُ الطباطبائيُّ في ايضاح تحليلاته النصية بقوله:((وليس المراد بالنصر والفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التي أيد الله فيها نبيه (ﷺ) على أعدائه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه وإيمان الأنصار وأهل اليمن كما قيل إذ لا يلائمه قوله بعد: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾))[١]،ويردُّ السيّدُ الطباطبائيُّ على ما ذهب إليه الزمخشري(ت٥٣٨هـ)((وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم)) [٢]

ويستمر السيّدُ الطباطبائيُّ في توضيح الفتح ((وليس المراد بذلك أيضا صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحًا إذ قال :﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه)) [٣].

ويستثمر السيّدُ الطباطبائيُّ رؤيته النصية في بيان مفهوم المصداق بقوله: ((وإنَّ للقرآن اتساعًا من حيث انطباقه على المصاديق وبيان حالها فالآية منه لا يختص بمورد نزولها بل يجري في كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكًا كالأمثال التي لا تختص بمواردها الأول، بل تتعداها إلى ما يناسبها، وهذا المعنى هو المسمى بجري القرآن))[٤].

والفرق بين الانطباق والتطبيق ((إذ إنَّ الانطباق تؤكده حوادث جارية بالفعل وقد قعدت في سجل التدوين التاريخي، لذا يعدُّ أمرًا مفروغًا منه وقوعًا وحصولًا مثل القصة القرآنية لموسى (عليه السلام) ، أمّا التطبيق فإنَّ دلالته قصدية التأمل في دلالة الآية والتعبير عنها يكون قصديا وهذا التطبيق إنْ استند إلى عقلية التفسير، واستقامة التفكير بالاستمداد من المعنى القرآني وفهم مداخله ومخارجه فيكون –حينئذ– تفسيرًا اجتهاديًا أضاء لدلالات الآية الخفية ملمحًا ثريًا، وأضاف إلى التفاسير الباقية معلمًا غنيًا)) [٥] .

يحدِدُ السيّدُ الطباطائيُّ موضع الانطباق في سورة النصر بقوله:((وأوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر والفتح المذكوران في الآية هو فتح مكة الذي هو أم فتوحاته (ﷺ) في

(١) الميزان :٢٠/٤٣٥.
(٢) الكشَّاف :٤/٨٠٥.
(٣) الميزان :٢٠/٤٣٦.
(٤) المصدر نفسه:٣/٧٨.
(٥) مقارنات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري(تفسير القرآن أنموذجاً):٣٧.

زمن حياته والنصر الباهر الذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب، ويؤيده وعد النصر الذي في الآيات النازلة في الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ١-٣] فإنَّ من القريب جداً أنْ يكون ما في الآيات وعدا بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبية وهو نصره تعالى نبيه (ﷺ) على قريش حتى فتح مكة بعد مضي سنتين من فتح الحديبية))[١].

ويرد السيّدُ الطباطبائيُّ مستعينًا برؤيته النصية ومعارفه المتنوعة على مَن يذهب إلى حمّل الآية على إجابة أهل اليمن ((وهذا الذي ذُكر أقرب من حمل الآية على الإجابة أهل اليمن الدعوة الحقة ودخولهم في الاسلام من غير قتال، فالأقرب إلى الاعتبار كون المراد بالنصر والفتح نصره تعالى نبيه(ﷺ) على قريش وفتح مكة، وأنْ تكونَ السورة نازلة بعد صلح الحديبية ونزول سورة الفتح وقبل فتح مكة)) [٢].

ويقف السيّدُ الطباطبائيُّ عند قوله تعالى:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[النصر:٣] قائلًا: ((لما كان هذا النصر والفتح إذلالًا منه تعالى للشرك وإعزازًا للتوحيد وبعبارة أخرى إبطالًا للباطل وإحقاقًا للحق ناسب من الجهة الأولى تنزيهه تعالى وتسبيحه، وناسب من الجهة الثانية – التي هي نعمة – الثناء عليه تعالى وحمده فلذلك أمره (ﷺ) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)وهاهنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار جميعًا وهو أنَّ للرب تعالى على عبده أنْ يذكرَه بصفات كماله ويذكر نفسه بما له من النقص والحاجة ولما كان في هذا الفتح فراغه (ﷺ)من جل ما كان عليه من السعي في إماطة الباطل وقطع دابر الفساد أمر أنْ يذكرَه عند ذلك بجلاله وهو التسبيح وجماله وهو التحميد وأنْ يذكره بنقص نفسه وحاجته إلى ربه وهو طلب المغفرة ومعناه فيه (ﷺ)– وهو مغفور – سؤال إدامة المغفرة فإنَّ الحاجة إلى المغفرة بقاءً كالحاجة إليها حدوثًا، وبذلك يتم شكره لربه تعالى وقد تقدم كلام في معنى مغفرة الذنب في الأبحاث السابقة، وقوله:(إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق وتأكيد)) [٣].

(١) الميزان:٢٠/ ٤٣٦.
(٢) المصدر نفسه:٢٠/ ٤٣٦.
(٣) المصدر نفسه:٢٠/ ٤٣٦.

يحدِد السيّدُ الطباطبائيُّ لنا العلاقات الدلالية التي تربط آيات الفصل الدلالي بعضها ببعض واتصال الكلام ، وتناسب الجزء مع الكل في المفهوم، والتدرج ومناسبة الآية الأولى مع الآية الثانية ،وأشار إلى علاقة الشرط (إذا)، وإنَّ انتظام المعاني واتصال الكلام بعضه ببعض في نظر السيّدِ الطباطبائيِّ يمنح النصَّ القرآني مبدأ التناسب المعنوي الذي يربط بين أجزائه، ويحقق له خاصية الانسجام، وإنَّ استخدام العلاقة الدلالية غالبًا لا تكون بين جملتين فقط ،وإنما تمتد بين الجمل مشكلةً مجموعة من الدلالات(١) ، بعد ذلك أشار إلى علاقة التقابل بين الحق والباطل، وإنَّ للعلاقات الدلالية داخل النص الواحد أثرًا مهمًا في الكشف عن قيمة النص ودلالته المتوخاة، فالنظر في طبيعة العلاقات النصية يضع المعرفة اللغوية بقوانينها المطردة وغير المطردة في فهم النص القرآني الكريم(٢).

(١) يُنظرُ: علم لغة النص النظريَّة والتطبيق ،د. عزة شبل محمد:٢١٣.

(٢) يُنظر : تفسير من وحي القرآن (دراسة في ضوء علم اللغة النصي) : ١٥٤ .

الخاتمةُ

بعد هذه الرحلة العلمية مع تفسير الميزان يمكن الإشارة إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

- ✓ إنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ كان مدركًا أثر السِّياق اللغوي، واعتماده في تفسير المفردات القرآنية، وأشار البحث إلى أنّه كان يرى أنَّ لكلِّ لفظة معنى أساسيًا هو المعنى الذي تم التواضع عليه، أما إذا دخل اللفظ في تركيب معين فسيتولد له معنى آخر غير معناه الاساس، هو المعنى السياقي؛ لأنَّ في الالفاظ المركبة دلالة مستنبطة هي غير دلالتها المجردة، وهو يرجح دلالة على أخرى ؛لأنَّه يرى في الدلالة الراجحة أكثر ملائمة للسِّياق، وأدلُّ على المعنى .
- ✓ أظهر البحث أنَّ للسِّياق أثرًا واضحًا في تفسير الميزان بوصفه أحد القرائن المهمة في فهم الكلام فقد اعتمده السيّدُ الطباطبائيُّ أساسًا عن الكشف في معاني القرآن، وفي ردّه على آراء المُفسِّرين أو موافقتها، وكذلك عدَّ السِّياق دليلاً للفصل بين السور المكية والسور المدنية، وفي تحديد بعض الالفاظ القرآنية المبهمة، كما استعمله دليلًا في قبول الروايات ورفضها.
- ✓ أظهر البحث إنَّ أهم مقياس وضعه السيّدُ الطباطبائيُّ للعلم بالمكي والمدني هو السِّياق القرآني، بحيث يتم التعرف بأنَّ مضامين هذه الآية أو تلك تناسب ما كان عليه الحال في مكة، فتكون مكية، أو تناسب ما كان عليه الحال في المدينة، فتكون مدنية.
- ✓ أظهر البحث أنَّ الالتفات وسيلة من وسائل تحقيق انسجام النص القرآني عند السيّدِ الطباطبائيِّ؛ كون الالتفات علاقة دلالية من علاقات المناسبة التي تُسهم في انسجام النص اسهاما فعالًا، ويثير في المتلقي الانتباه إلى أنَّ النص متعدد الأغراض وأنَّ المخاطبين ليس على درجةٍ واحدةٍ.
- ✓ يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ ترتيب النزول لم يكن ذا أهمية في تفسير القرآن بالقرآن الذي يهتم به أهل البيت (عليهم السلام) إنَّما المهم فيه هو ملاحظة مجموع الآيات ومقارنة بعضها ببعض، لأنَّ القرآن الذي هو الكتاب الدائم لكل الأزمان والعصور

والأقوام والشعوب لا يمكن حصر مقاصده في خصوصية زمنية أو مكانية أو حوادث النزول.

- ✓ استعان السيّدُ الطباطبائيُّ بأسباب النزول بوصفهما قرائن يمكن أنْ توضحَ النص القرآني وتوجه وجهة معينة، وتصدّى للروايات المتناقضة فاسقط قسمًا كبيرًا منها.
- ✓ يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ تكرارَ الكلمات المحورية في السور أسهم في الانسجام الافقي ، تمهيدًا للانسجام الكلي بعد ذلك ،وإنَّ الاعجاز القرآني إعجاز ملازم للنص القرآني ،لا يمكن أنْ ينتهي عند عصر معين
- ✓ يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ اللغة أساس في التفسير، ولكنه لم يرد لتفسيره الاستغراق في ذلك بل اكتفى بإيراد اللغة، والصور البلاغية في الآيات لبيان نكتة علمية تُسهم في إيضاح المعنى، وبهدف تجلية المراد من الآية وبيان معناها .
- ✓ يوكّد السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ ترتيب الآيات في السورة الواحدة غير توقيفي بلا أشكال وكذلك ترتيب السور القرآنية وأسماء السور .
- ✓ انتهج السيّد الطباطبائي في تفسير الميزان منهجًا مهمًا في التعامل ،مع النصوص المتصلة بالنص القرآني سواءٌ منها نصوص أسباب النزول أو بعض النصوص التفسيرية، والشيء الذي نَلْحَظَهُ في الميزان أنَّ السيّدَ الطباطائيَّ لم يحضرْ النصَّ في بحثه التفسيري، بل تعامل بروح أكاديمية صرفة مع تفسير النص مخضعًا عمله لقواعد التفسير نفسها، وعندما كان يأتي للبحث الروائي الذي كان يعقده في أواخر كلِّ فصلٍ تفسيري كان يكتفي بمجرد عرض النصوص دون أنْ يوحيَ لنا بأنَّه يركز نظره عليها كثيرًا ما لم تكن القضية من حيث اساسها روائية.
- ✓ إنَّ تحديد انسجام النص القرآني لا يتم بآليات وأدوات نهائية ثابتة، فهي ليست قوانين مطلقة يتبعها كل باحث أثناء دراساته، ودليل ذلك تنوعها عند المُفسِّرين والاختلاف في تصنيفها.
- ✓ ظهر للباحث أنَّ ما قاله بعض اللغويين والمُفسِّرين العرب القدامى واثبته السيّدُ الطباطبائيُّ في تفسيره عن الترابط النصي، لا يختلف عمّا توصّل إليه اللغويون المحدثون في هذا الخصوص ، وهذا يجعلنا نُؤيد مَنْ يذهب إلى أنَّ التراث اللغوي العربي القديم يزخر بنظرات وآراء صائبة حول مختلف القضايا والظواهر اللغوية.

- ✓ على الرغم من وجود أبحاث فلسفية عديدة عقدها السيّد الطباطبائي في تفسيره الميزان فانه لم يسلك مسلك الفلاسفة في التفسير، ولم ينضد الآيات في نظريات فلسفية كما فعله، وإنما كان يروم من بعضها دعم وتأييد معاني الآيات وموضوعاتها القرآنية.
- ✓ لقد تميز أسلوب السيّدِ الطباطبائيِّ في تفسير الميزان بالدرجة العلمية والروح الموضوعية معاً، تراه يستند في فهمه الآيات القرآنية إلى مبادئ وأُسس ثابتة، سواء في القرآن الكريم، أم في السنة النبوية الشريفة وبالمأثور عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

- ✓ النص القرآني عند السيّدِ الطباطبائيِّ فضاء غير منغلق على قراءة جيل أو فرد بعينه أو مذهب محدد، وإنمّا النص القرآني يدعو المتلقي، ليتدبره ويرتاد آفاقه، ويتأمل فيه ولكنه لا يقبل القراءة المتربصة ، والقرآن الكريم نفسه يفضح هذه القراءة المتربصة أو التي تُريد النيل منه.
- ✓ يرى السيّدُ الطباطبائيُّ أنَّ السور القرآنية المصدرة بالحروف المقطعة لا تخلو من ارتباط بين مضامينها وبين تلك الحروف فالحروف المشتركة تكشف عن مضامين مشتركة.
- ✓ أظهر البحث أنَّ من مظاهر انسجام النص القرآني وتماسك بنائه وإحكامه تناسبُ أجزائه ، ويدخل في هذا الباب كل المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية التي تُعنى بالعلاقات الكبرى بين أجزاء النص القرآني، ومن هذا الباب ما يسمى بـ (التذييل).

- ✓ إنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ جمع بين نمطي التفسير: الموضوعي والترتيبيّ، فقد فسَّر القرآن آية فآية وسورة فسورة، لكنّه إلى جنب ذلك، نراه يجمع الآيات المتناسبة بعضها مع بعض ليبحث عن الموضوع الجامع بينها، كلّما مرَّ بآية ذات هدف موضوعي، وكانت لها نظائر منبثّة في سائر القرآن.
- ✓ أثبت البحث أنَّ السيّدَ الطباطبائيَّ يُقسِّم السورة إلى فصول دلالية معتمدًا الوحدة السِّياقية أساسًا لهذا التقسيم وكذلك عندما يُريدُ أنْ يذكر معنى جديد لم يذكره المُفسِّرون أو توضيح فكرة ذُكِرَتْ ولم توضحْ.

- ✓وزع السيّد الطباطبائي الآيات على فصول دلالية ينتظمها سياق واحد، وقدّم غرض السورة الاساس في مفتتح تفسيره لها، ونبه إلى ما تعالجه هذه الفصول الدلالية القرآنية من أغراض في بداية تفسيره لكلِّ فصل دلالي.
- ✓أثبت البحث عناية السيّد الطباطبائيّ التامّة بجانب الوحدة الموضوعيّة السائدة في القرآن، كل سورة هي ذات هدف أو أهداف معيّنة، هي تشكّل بنيان السورة بالذّات، فلا تتمّ السورة إلاّ عند اكتمال الهدف الموضوعي الذي رامته السورة، ولذلك نجد السور تتفاوت في عدد آياتها.

وفي الختام أسأل الله أنْ يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأنْ يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وأنْ يجعله حجة لنا لا علينا.

قائِمةُ المصَادِرِ والمَراجِعِ:

أولاً: القرآنُ الكريمُ.

ثانياً: الكتبُ المطبوعةُ .

- الإتقان في علوم القرآن:جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطيّ(ت٩١١هـ) الطبعة الأولى ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٧م
- اجتهادات لغوية: د .تمام حسان، الطبعة الأولى ،عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٧ م .
- الإحكام في أصول الأحكام المؤلف: علي بن محمد الآمدي أبو الحسن(ت٦٣١هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان ، ٢٠٠١م .
- أساس البلاغة: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ) ، دار صادر، بيروت ـ لبنان،١٩٧٩م.
- أسباب النزول علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ) تحقيق عبد الله المنشاوي الطبعة الأولى ،دار المنار للطبع والنشر والتوزيع ،٢٠٠١م.
- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، الطبعة الأولى دار الكتاب الجديد المتحدة بنغازي ، ليبيا ، ٢٠٠٤م.
- أسس الفلسفة والمذهب الواقعي :العلَّامة الطباطبائي(ت١٩٨١هـ)، تعريب محمد الخاقاني. الطبعة الثانية ، بيروت، دار التعارف، ، ١٩٨٨م.
- إشكالات النص (المداخلة أنموذجا)دراسة لسانية نصية:د٠جمعان عبد الكريم، الطبعة الأولى ،الناشر النادي الادبي بالرياض والمركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٩م.
- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس (نحو نص) :د٠محمد الشاوش، الطبعة الأولى، كلية الآداب منوبة ، تونس، ٢٠٠١م.

- إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي ، الطبعة السادسة ، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٦م.
- البحث الدلالي في تفسير (من وحي القرآن)للسيد محمد حسين فضل الله :د .جابر محيسن الركابي، الطبعة الأولى، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣م .
- البحثُ الدِّلالي في تفسير الميزان – دراسة في تحليل النَّص ، د. مشكور كاظم العوادي، الطبعة الأولى، مؤسسة البلاغ ، بيروت، ٢٠٠٣م .
- البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض شارك في التحقيق د. زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل الطبعة الأولى، دار النشر : دار الكتب العلمية ،لبنان، بيروت ،١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.
- بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي(ت٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران الطبعة الاولى، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(ت٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة المكتبة دار التراث ، القاهرة،١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
- البلاغة الأسلوبية: د. محمد عبد المطلب ،الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٤ م .
- بلاغة الخطاب وعلم النص :د. صلاح فضل ، الطبعة الاولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ، ١٩٩٦م .
- بناء الجملة العربية: د. محمد حماسة عبد اللطيف، الطبعة الأولى ،دار غريب للطباعة والنشر،٢٠٠٣م.
- بناء لغة الشعر : جون كوين ، ترجمة : أحمد درويش، الطبعة الاولى ، الهيأة العامة لقُصور الثقافة ، ١٩٩٥م .
- البيان في روائع القرآن : د. تمام حسان، الطبعة الثانية ،عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن :ابن أبي الأصبع زكي الدين عبدالعظيم بن عبد الواحد المصري (ت٦٥٤هـ) تقديم وتحقيق د.حفني محمد شرف، الطبعة الأولى، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ ـ١٩٦٣ م .
- التحرير والتنوير : محمد الطاهر ابن عاشور(ت١٩٧٣م)، الدار التونسيَّة للنشر ، تونس ١٩٨٤م .
- تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص: د. محمد مفتاح، الطبعة الثانية المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م.
- تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام :د. فتحي رزق الخوالدة، الطبعة الأولى، دار أزمنة، عمان، الأردن، ٢٠٠٦م.
- التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية :د. محمد مفتاح، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،١٩٩٦م.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن: د. عودة خليل أبو عودة الطبعة الأولى، مكتبة المنار ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار: الشيخ محمد رشيد رضا(ت١٩٣٥هـ)، تعليق وتصحيح :محمد مصطفى، الطبعة الأولى، دار احياء التراث العربي ،بيروت،لبنان،٢٠٠٢م.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (٦٠٤ هـ) الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.
- تفسير من وحي القرآن (دراسة في ضوء علم اللغة النصي) : مؤيد عبيد ، الطبعة الأولى ،دار الملاك ، بيروت،لبنان ، ٢٠٠٩م .
- تناسق الدرر في تناسب السور، المسمى (أسرار ترتيب القرآن): جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)،الطبعة الأولى ، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار النصر ، ١٤٣١هـ–٢٠١٠م .

- جامع البيان في تأويل القرآن ،محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق : أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى ،مؤسسة الرسالة،١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، صحَّحه وعلَّق عليه : أحمد عبد العليم البردوني، الطبعة الثانية ،دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، ١٩٨٥م .
- حاشية الصبّان على شرح الاشموني على الفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ات: ١٢٠٦هـ) تحقيق إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ،١٩٩٧م.
- الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة ،محمد بن إبراهيم ، الطبعة الرابعة ،دار إحياء التراث العربي، بيروت،لبنان،١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
- خصائص التركيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)د. محمد محمد أبو موسى ، الطبعة الرابعة، الناشر مكتبة وهبة، ١٩٩٦م
- الخطاب القرآني: د. خلود إبراهيم العموش ،الطبعة الأولى ،عالم الكتب الحديث ،عمان- الأردن ، ٢٠٠٨م .
- الخطاب وخصائص اللغة العربية (دراسة في الوظيفة والبنية والنمط): د. أحمد المتوكل الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون ، لبنان ومنشورات الاختلاف ،الجزائر ودار الامان ، المغرب كتاب،١٤٣١هـ ـ٢٠١٠م.
- دراسات في علوم القرآن الكريم : د. محمود البُستاني، الناشر مدينة العلم ، الطبعة الأولى ،مركز التوزيع ايران ، قم ، سوق صاحب الزمان،١٤٢٧-٢٠٠٧م.
- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة :د. سعيد حسن بحيري، الطبعة الاولى مكتبة الآداب، القاهرة ،٢٠٠٤م .
- دراسة في سورة العنكبوت ، الشيخ أحمد القطان ، ومحمد الزين ، الطبعة الثانية، مكتبة السندس ، ١٩٨٨ م.
- الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم : د .أشرف عبد البديع عبد الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٨ م .

- دروس في تفسير القرآن تفسير سورة الكوثر: السيد جعفر مرتضى العاملي، الطبعة الأولى ،المركز الإسلامي للدراسات، ١٩٩٩م .
- الدلالة القرآنية في فكر محمد حسين الطباطبائي(ت١٩٨١هـ) تفسير الميزان نموذجا: د .الشيخ شبر الفقيه، الطبعة الأولى، دار الهادي ،٢٠٠٨م.
- دلالة السياق في القصص القرآني : د محمد عبد الله علي سيف العبيدي ،وزارة الثقافة والصناعة ، اليمن، صنعاء ، ٢٠٠٤م .
- دلائل الإعجاز : الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت٤٧١هـ) قراءه وعلّق أبو فهر/محمود محمد شاكر ، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني المؤسسة السعودية في مصر،١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- دور الكلمة في اللغة ،ستيف أولمان، ترجمة د . كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٨م .
- دينامية النص (تنظيرًا وانشطارا) :د . محمد مفتاح، الطبعة الثالثة المركز الثقافي العربي المغرب ،٢٠٠٦م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين الألوسي (ت١٨٥٤م)،الطبعة الأولى، دار إحياء التراث، بيروت ،لبنان، ١٩٧٦م.
- سحر النّص قراءة في بنية الايقاع القرآني :د. عبد الواحد زيارة، الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع ،١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- السِّياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ،علي آيت أو شان، الطبعة الاولى ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٠م .
- شجرة النور المالكية، في طبقات المالكية، الشيخ محمد بن محمد مخلوف(ت٧٥٧هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الطبعة الرابعة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٩.
- الشمس الساطعة، آية الله الحاج السيّد محمد الحسين الحُسيني الطهرانيّ، الطبعة الأولى، دار المحجة البيضاء،١٣٣٠هـ ـ٢٠٠٩م.

- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) أبو نصر سماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٨هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠م.
- الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري ،د.صلاح الدين زرال، الطبعة الاولى، منشورات الاختلاف ،٢٠٠٨م.
- ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي، د. سعيد حسن البحيري ،الطبعة الأولى دار النوادر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦ .
- العلَّامة الطباطبائي ملامح من سيرته الذاتية ومنهجه العلمي ،كمال الحيدري، الطبعة الأولى، دار المحجة البيضاء ،٢٠١٣م.
- علم الدلالة :د. أحمد مختار عُمر، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٨م.
- علم اللسانيات الحديثة:د. عبد القادر عبد الجليل، الطبعة الاولى ، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٢م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية على السور المكية): د٠صبحي إبراهيم الفقي ، الطبعة الأولى ، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، ٢٠٠٠م.
- علم المناسبات في السور والآيات : د. محمد بن عمر بن سالم بازمول ،الطبعة الأولى المكتبة المكية ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م. .
- علم النص و نظرية الترجمة : د .يوسف نور الدين، الطبعة الأولى دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة ،١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م .
- علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: د .سعيد حسن بحيري، الطبعة الأولى ،مؤسسة المختار، القاهرة ،١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م .
- علم لغة النص النظرية والتطبيق: د .عزة شبل محمد، الطبعة الاولى، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.
- علوم القرآن عند العلامة آية الله السيد محمد حسين الطباطبائي(ت١٩٨١هـ) (دراسة مقارنة)، جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد، الطبعة الأولى، بيروت لبنان،٢٠١٣م.

- العنوان وسيموطيقيا والاتصال، د. محمد فكري الجزار، الطبعة الاولى، الهيأة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٧م.
- فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق حسن خان القنوجي(ت١٣٠٧هـ) المحقق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، الطبعة الاولى ، بيروت المطبعة المصرية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
- في اللسانيات ونحو النص :د. إبراهيم خليل ، الطبعة الاولى ،دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ،عمان، الاردن، ١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٧م .
- في ظلال القرآن : سيد قطب(ت ١٩٦٦ م) ، الطبعة الثانية والثلاثون ،دار الشروق ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م .
- في نظرية الأدب وعلم النص (بحوث وقراءات): د .إبراهيم خليل الطبعة الأولى ،منشورات الاختلاف ،الدار العربية للعوم ناشرون، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي(ت٨١٧هـ) ،ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، لبنان ،١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .
- قراءتان في النص الديني الآليات والمعنى، د. أحمد رسن ، الطبعة الأولى، الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠١٤م.
- القرآن في الاسلام : العلاّمة محمد حسين الطباطبائي(ت١٩٨١هـ) ، المترجم أحمد الحسني ،الطبعة الأولى، مؤسسة المحبّين للطباعة والنشر،١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت ١٧٥هـ)تحقيق د. عبد الله درويش ،مطبعة العاني،١٩٧٦م.
- الكتاب :سيبويه (ت ١٨٠ هـ)عمرو بن عثمان بن قنبر علق عليه ووضع حواشي وفهارسه:د.اميل بديع يعقوب،الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد، الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، رتبة وضبطه

وصححه :محمد عبد السلام شاهين ، الطبعة الثالثة،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م.

- اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء العكبري ،تحقيق غازي مختار طليمات، الطبعة الأولى ، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م.
- لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ) تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، الطبعة الأولى ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م .
- لسان العرب للأمام العلّامة جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري(ت٧١١هـ)، الطبعة الثالثة طبعة جديدة محققة ، دار صادر، بيروت، لبنان،٢٠٠٥م.
- لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والاجراء: د. نعمان بُوقرة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢م.
- لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) :د محمد خطابي، الطبعة الثانية ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب،٢٠٠٦م .
- لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس، الطبعة الأولى ،عالم الكتب الحديث، إربد ،الأردن،٢٠٠٧م
- اللسانيات والدلالة ، د. منذر عياشي، الطبعة الثانية ، الناشر :المركز الإنماء الحضاري ٢٠٠٧م.
- اللغة : (فندرس)، ترجمة، عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، الطبعة الثالثة ،مكتبة الأنجلو، القاهرة،١٩٦٧م.
- اللغة العربية معناها ومبناها :د . تمام حسان، الطبعة الخامسة ،عالم الكتب ،القاهرة، ٢٠٠٦م.
- اللغة والمعنى والسِّياق، جون لاينز، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يوئيل عزيز، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق،١٩٨٧م.

- المباحث الأصولية، الشيخ محمد اسحاق الفياض، الطبعة الأولى، الناشر: مكتب آية الله العظمى الشيخ محمد إسحاق الفياض، ٢٠٠٠م.
- مباحث في التفسير الموضوعي: د .مصطفى مسلم، الطبعة الرابعة ، دار القلم ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .
- مبادئ في اللسانيات: خولة طالب الإبراهيمي،الطبعة الأولى، دار القصبة، الجزائر ، ٢٠٠٦م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: أبو الفتح، *ضياء الدين*، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى، المكتبة : الناشر العصرية – بيروت ، ١٩٣٩م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي(ت٥٤٨هـ)،حققه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحققين والأخصائيين،قدم له محسن الأمين العاملي، الطبعة الاولى،منشورات مؤسسة الأعلمي،بيروت– لبنان،١٩٩٥م.
- مجهول البيان : د. محمد مفتاح، الطبعة الأولى، دار توبقال ،المغرب،١٩٩٠م.
- المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت٥٤١هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الاولى ،دار الكتب العلميَّة، بيروت ، لبنان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- المحكم في أصول الفقه ، السيد محمد سعيد الحكيم ،الطبعة الثانية، الناشر مؤسسة المنار،١٩٩٧م.
- مدخل إلى السيميائية السردية :د. سعيد بنكراد ، الطبعة الأولى منشورات الاختلاف، الجزائر،١٩٩٤م.
- مدخل إلى علم اللغة النصي : فولفغانج هانيه من وديتر فيهفجر ، ترجمة فالح شبيب العجيمي ، مطابع جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩م.
- مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: د. محمد الأخضر الصبيحي،الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م.

- مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت دي بو جدراند، وولفجالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، الطبعة الاولى، الهيأة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩م.
- معارف القران من خلال الحواميم السبع تأليف: الشيخ جوادي املي الطبعة الاولى، دار الصفوة، ٢٠٠٩م.
- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل السامرائي، الطبعة الثانية ،دار عمَّار، عمَّان ،الأردن،١٤٢٨ ـ٢٠٠٧م.
- معاني القرآن: ،أبو زكريّا يحيى بن زياد الفَرّاء(ت ٢٠٧هـ) ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شبلي، مراجعة علي النجدي ناصف، الطبعة الثانية، الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٨٠ م .
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، الطبعة الثانية، شركة العاتك للطبع والنشر والتوزيع ،١٤٢٣هـ ـ٢٠٠٣م
- معترك الاقران في إعجاز القرآن : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق :أحمد شمس الدين ، الطبعة الأولى الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معجم البلاغة العربية :د. بدوي طبانة، الطبعة الرابعة دار المنارة للنشر والتوزيع جدّة ١٩٩٧م.
- المعجم العربي الاساسي: تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب ، إبراهيم السامرائي ،تونس، لاروس،١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م.
- المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م
- المعجم الوسيط قام بإخراجه ،إبراهيم مصطفى ،أحمد حسن الزّيات ،حامد عبد القادر ،محمد علي النجار، الطبعة الخامسة، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر،٢٠٠٧م. .
- معجم تهذيب اللغة لإبي منصور محمد بن أحمد الازهري(ت٣٧٠هـ)تحقيق د .رياض زكي قاسم، الطبعة الاولى، دار المعرفة، بيروت لبنان ٢٠٠١م.

- مغني اللبيب عن كُتب الأعاريب، ابن هشام الانصاري(ت٧٦١هـ) ،تحقيق بركات يوسف هبُّود ،الطبعة الأولى شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت لبنان ،١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.
- مفتاح العلوم : أبو يعقوب السكاكي (ت٦٢٦هـ) ، ضبطهُ وعلق عليه : نعيم زرزور ،الطبعة الأولى ،دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .
- مفردات ألفاظ القرآن: العلاّمة الراغب الاصفهاني(ت٤٢٥هـ) تحقيق صفوان عدنان داودي، الطبعة الاولى، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت،٢٠٠٦م المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، د. محمد العبد الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ،القاهرة ،٢٠٠٦م.
- مفهوم النص(دراسة في علوم القرآن) :د .نصر حامد أبو زيد ، الطبعة الرابعة ،المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م .
- مقالات في الأسلوبية: د .منذر عياشي، الطبعة الأولى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٠م.
- من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب)،د. محمد أبو موسى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة ، ١٩٨٩م.
- من الصوت إلى النص نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري د. مراد عبدالرحمن مبروك ،عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٩٣ م
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، القاهرة، المطبعة الفنية.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجي (ت ٦٤٨ هـ)، تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي الطبعة الثالثة ، بيروت، لبنان ، ١٩٨٦ م.
- منهج السِّياق في فهم النص :د. عبد الرحمن بودرع، مكتبة الثقافة، الدار البيضاء،٢٠٠٨م
- مورفولوجية الخرافة، فلاديمير بروب، ترجمة: إبراهيم الخطيب ، الطبعة الأولى الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، المغرب، سنة ١٩٨٦م.
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيّد عبد الاعلى السبزواري، الطبعة الثالثة ،مؤسسة المنار،١٤١٤هـ

- الميزان في تفسير القرآن: العلاّمة الطباطبائيّ ، محمد حسين (ت١٩٨١م)، الطبعة الأولى ، صححه واشرف على طباعته الشيخ حسين الأعْلَمي ،مؤسسة الأعْلَمِي للمطبوعات ،بيروت–لبنان ،١٤١٧هـ –١٩٩٧م.
- النبأ العظيم :محمد عبد الله دراز، طبعة السعادة مصر ١٣٧٩هـ –١٩٦٠م .
- نحو النص (نقد نظرية وبناء أخرى) : عمر أبو خرمة ، الطبعة الأولى ،عالم الكتب الحديث، أربد . الأردن ، ٢٠٠٤ م.
- نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي: د .أحمد عفيفي ، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠١م
- نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية : عثمان أبو زنيد ،الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث ، أربد ، ٢٠١٠م.
- نحو النص بين الأصالة والحداثة :د. أحمد محمد عبد الراضي ، الطبعة الأولى ،مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٨م.
- نحو النصِّ في ضوء التحليل اللساني للخطاب، مصطفى النحاس، الطبعة الثانية، منشورات ذات السلاسل،٢٠٠٢م.
- النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي: د. محمد حماسة عبد اللطيف، الطبعة الثانية، دارغريب للطباعة والنشر، القاهرة،٢٠٠٦م .
- نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً: الأزهر زنّاد، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٣م.
- النص والخطاب والاتصال: د .محمد العبد، الطبعة الأولى ،الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي،٢٠٠٥م.
- النص والخطاب والإجراء: روبرت دي بو جراند، ترجمة د .تمّام حسان، الطبعة الثانية ،عالم الكتب ،القاهرة،١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م .
- النص والسَّياق الشعري من البنية إلى القراءة: د. علي آيت أوشان، الطبعة الأولى مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٠م.
- نظرية السِّياق القرآني: عبد الفتاح محمود المثنى ،الطبعة الأولى، دار وائل للنشر ، عمان،الأردن ، ٢٠٠٧م .

- نظرية النقد الأدبي الحديث : د. يوسف نور عوض، الطبعة الأولى، دار الأمين ، ١٩٩٤م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي(ت٨٨٥هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي ،الطبعة الثانية : دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان ، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣ م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) .، تحقيق عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة ،١٩٩٢م.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد ،طه جابر العلواني ،سلسلة دراسات قرآنية (٣)،الطبعة الأولى ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ،١٤٢٧هـ –٢٠٠٦م.

ثالثًا: الرسائل والأطاريح الجامعية:

- الاتساق والانسجام في القرآن الكريم،أطروحة دكتوراه مفتاح بن عروس ، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨م .
- الانسجام في القرآن الكريم (سورة النور أنموذجًا) : نوال لخلف أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الجزائر ، ٢٠٠٧م .
- البحث الدلالي عند الرازي في كتابهِ (مفاتيح الغيب) ، في ضوء علم اللغة الحديث : حيدر مصطفى هجر ، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٥م .
- خطب سيدات البيت العلوي (عليهن السلام)دراسة في ضوء لسانيات النص، مطلك ارزيج عطشان، رسالة ماجستير، اشراف الدكتور شاكر سبع ،كلية الآداب ،جامعة ذي قار،٢٠١٣م.
- دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه دولة ، محمد العيد رتيمة، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر،١٩٩٢م .
- دلالة البنى التركيبيَّة في السور القرآنية القصار، عباس عبد السادة ، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة البصرة،٢٠١٣م.

- السِّياق في كتب التفسير (تفسير الكشاف وابن كثير إنموذجًا) ، محمد المهدي حمامي رفاعي، رسالة ماجستير ، كلية الاداب والعلوم الانسانية جامعة حلب ٢٠٠٦م .
- السِّياق ودلالته في توجيه المعنى إعداد فوزي إبراهيم عبد الرزاق، رسالة دكتوراه في اللغة العربية ، مقدمة لكلية الآداب في جامعة بغداد . عام ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

رابعًا : البحوث المنشورة في المجلات والدوريات:

- الاتساق النصي في التراث العربي، الاستاذة :نعيمة سعدية ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية و الاجتماعية، العدد الخامس،٢٠٠٩م .
- الاقتضاء في التداول اللساني: عالم الفكر ،ع٣،س:١٩٨٩م مجلة عالم الفكر- المجلد العشرون- العدد الثالث - الرابع ١٩٨٩م.
- بنية النص الكبرى : صبحي الطعان ، مجلة عالم الفكر ، مج ٢٣ ، ع١ـ ٢ ١٩٩٤م.
- التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة ، د.بخولة بن الدين ،عود الند مجلة شهرية ثقافية العدد ٨٠ / ٢٠١٣ م.
- جدلية السِّياق والدلالة في اللغة العربية النص القرآني أنموذجًا، م.د سيروان عبد الزهرة الجنابي،م. حيدر جبار عيدان، مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع لعام ٢٠٠٨ م
- حبك النص (منظورات من التراث العربي): محمد العبد مجلة ،فصول مج١٠ ، ع٥٩ ، ٢٠٠١م .
- الخطاب الروائي في الكويت: أنماط العنونة ومستويات الصوت السردي، مرسل فالح العجمي ، مجلة العلوم الإنسانية ، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٩٢، خريف ٢٠٠٥م.
- دراسة أسلوبية في سورة (ص): نصرالله شاملي و سميه حسن عليان ،آفاق الحضارة الاسلامية، أكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية، السنة الرابعة عشرة، العدد الاول،١٤٣٢ هـ . ٢٠١٢م.

- السِّياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني ،د. زيد عبد الله مجلة جامعة الملك سعود، م ، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢)،ص٨٣٧ – ٨٧٧
- السِّياق غير اللغوي في النصِّ القرآنيِّ، د. خليل خلف بشير، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية ،المجلد/١٥، العدد / ٤ ،٢٠٠٨ م
- ظاهرة المناسبة واتساق النص القرآني ،د. نوح الأول جنيد ،مجلة حوليات التراث،العدد ١١-٢٠١١.
- علم الكلام عند السيّد محمد حسين الطباطبائي، قراءة في جدل العقل والنص ، مقال حيدر حب الله (٤٥ ـ ٧٤) مجلّة الكلمة، العدد ٣٦، ٢٠٠٢م.
- عمارة السورة القرآنية :دراسة في فنيتها سورة (صاد)نموذجًا، د.محمود البُستاني ،مجلة المنهاج العدد ٤ (٢٤-٤٥) ،مركز الغدير للدراسات والنشر،١٩٩٦م.
- فهم النص في سياقه التاريخي : آية الله السيد حيدر علوى نجاد ، مجلة البصائر العدد (٣٩) السنة ١٧ – ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م
- في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، د. عبد الرحمن بو درع ،بحث مقدّم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية ١٤٣٤/٤/٦هـ -٢٠١٣/٢/١٦م .
- في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم(دراسة نظرية): بشرى حمدي البستاني، وسن عبد الغني المختار مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ١١ ، العدد١ ،٢٠١١م.
- قراءة في اللّسانيات النصيّة، جان ميشال آدم ،عرض خولة طالب الإبراهيمي، مجلة اللّة والأدب، العدد ١٢، معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ١٩٩٧ م.
- لباب البيان في مقاصد القرآن ،د. مشكور كاظم العوادي مركز دراسات الكوفة، العدد الثالث عشر لعام ٢٠٠٩ م .
- اللغة والنقد الادبي، بحث، تمام حسّان، ،مجلة الفصول، مطابع الهيئة العامة للكتاب ، المجلد الرابع عدد (١)لسنة ١٩٨٣م .
- مجلة قضايا اسلامية ، تصدرها مؤسسة الاعظم،٢٤٠، العدد السابع ،١٩٩٩م.

- المحدِّدات الاجتماعيَّة للمعرفة الوحيانيَّة ؛ نظريَّة العلامة الطباطبائيّ: ، مجلة المنهاج –العدد السابع والخمسون –٢٠١٠م.
- معايير الرد النحوي في تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: حبيب مشخول حسن مجلة آداب ذي قار العدد–٢ المجلد ١– ٢٠١٠م .
- مفهوم التماسك وأهميته في الدراسات النصية:د. جمعان عبد الكريم ، مجلة علامات، ٢٠٠٧ مج ٦١ .
- مقاربات منهجية بين الطباطبائي والسبزواري،(تفسير القرآن أنموذجا)،د. كاظم مشكور العواديِّ ، مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع عشر لعام ٢٠١٢ م .
- مقاربة أولية لنص شعري: محمد مفتاح مجلة الفصول الأربعة العدد ٢٩ السنة الثامنة ، ١٩٨٥ م.
- المقام في البلاغة العربية (دراسة تداولية) : شكري الطوانسي مجلة عالم الفكر: العدد ١ المجلد ١٢ –٢٠١٣م.
- المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، د. عادل رشاد حسن غنيم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية ٦/٤/١٤٣٤هـ ـ٢٠١٣/٢/١٦م
- نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية، سعد مصلوح، بحث منشور ، في فصول مجلة (الهيأة المصرية للكتاب المجلد ١٠ (العددان ١ ،٢) ،١٩٩١م.
- نسقية السورة القرآنية من خلال تفسير (في ظلال القرآن) ،د. أحمد بزوي الضاوي ،مجلة الإحياء العدد(٢٦) لسنة ٢٠٠٧م .
- النص بناه ووظائفه (نظرية الأدب) ،عبد القادر بوزيدة مجلة اللغو والأدب، ع١١، ١٩٩٧، مجلة اللغة والأدب ، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر.